

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفصل الأول

نظرات عامة للمؤلف

١ — القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها

.....^(١) واستنباط الغريب الذي لا يعقله كثير من الناس ؛ فإن ذلك ١ (١)

يولد خشونة اللفظ ، الذي تمنّجه الأسماع .

- والكلام ، إذا خرج من القلب ، وقع في القلب . ولا خير في رام
٥ رَعِش ، ولا متكلم هائب ؛ فإنّ الهيبة فرع [من] الخافة ، والخافة فرع
[من] الخذر ؛ ومن حذر ، فقد عقله ، ومن خاف ، تكدر عيشه ، ولا
تصح مع هذا قريحة ينطق عنها اللسان ، ويذكر بها الجنان ؛ فالنفس ،
إذا منعت ما تشتهي ، ترى مختلطة ، وتصير كأنّها بطوارق الخيل مختبطة .
ولا يجب على الناطق والكاتب أن يتبع هواه في أمره كله : فكل
١٠ مفتون ملقن حجته ، ولا عليه أن يرفض ذلك ؛ فيكون بانياً على غير أصل
وعاملاً لغیر نهاية . وعسى بذلك يسعى فيما يصلح غيره ويُفسد حال نفسه ،
وهو لا يشعر ، بل يصرف نفسه على فرقتين : يسعى في بلوغ أمّله وإدراك

(١) هنا يبتدئ نص المخطوط ، إذ تلفت منه الورقة الأولى .

مراده دون أن يكون ذلك مُخِلًّا بذكره ولا غرضاً لعدوه . وكلُّ بيان ما لم يكن صواباً ، فهدرٌ .

وليس يُحمَدُ لواضع كتابٍ أو ناظم خبرٍ أكثرُ من جودة التأليف فقط ، لأنه إنما وضع ما قد سبقه إليه غيره ؛ وكلُّ أحدٍ ينفق ممَّا عنده .
 ٥ وإنَّ الأوَّل لم يدع للآخر شيئاً . فلو كان نطقُ الناس إحالةً بعضهم على بعض ، ما مُسِّحَ أحدٌ يأمر بمعروفٍ ولا ينهى عن منكرٍ ، ولا يتبرَّع في [شيء] . ولكنَّ الأوَّل أن يؤخذ بما نصَّ الله عليه في قوله ^(١) : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ .

وليست الفائدة فيما قصدنا إليه ذِكْرُ خبرٍ يوصف ويأتى عليه نادرة مستطرفة ، أو حكاية مستغربة ، أو معنى يؤدَّى إلى تأدب وانتفاع . فلعلَّك — أيها المتأمل كتابنا — أن يكون عندك أو طراً إليك خبرٌ من أحوال الدولة مشهور لا تجده منصوصاً هنا ، فتعجز واضعُه : فليس إلّا كما قدّمناه .
 اللهمَّ إلّا أن يكون حديثاً يؤدَّى إلى القيام بحُجَّةٍ صاحبه * والاعتذار عنه ١
 من أمرٍ قد التبس على الجاهل أو أشكل على السامع لم يهجم على حقيقة ، فنطق هذرًا ، وساعدَ عليه أقواماً لم يخسروا في عرض غيرهم شيئاً ، وطعنوا ١٥
 على غائبٍ أو ميّتٍ لم يُحرر الجواب عن نفسه ، أو دليلاً لم ينتصر لعرضه .

أو أبان المؤلف عن نفسه حدِّقاً ومعرفةً تُذكر عنه وتُنشر بعده : فإنَّ ذلك من آكد ما يجب له السعْيُ فيه وإعمالُ ذهنه وحواسِّه في تلخيصه ،
 ٢٠ إن أعانه على ذلك اغتباطٌ بجَميلِ الثناء ، وأنفةٌ لسوءِ القال ، ونشاطٌ على

ترفع الذكر ، مع فتو المهمة وصبوة القريحة . وإلا ، فالأمر ناقص منه ،
واللسان عي عنه .

ولا شيل إلى اجتماع أمرين مختلفين في الإنسان معاً ، ولا في غيره من
جميع المخلوقات . فإنه ، متى ارتفع أمر ، نزل ضده : كالحياة ، إذا ارتفعت ،
وجب الموت ؛ وإذا ارتفعت الصحة ، وجب السقم ؛ وإذا ارتفع الكرب ،
وجب الفرج .

هكذا نسق كل أمر : كالعامل للآخرة محضاً ، لا يد له من قصان
دنياه .

ألا ترى أن مؤلف الكتاب ، إن كان غرضه نظم الكلام وسجع
اللفظ ، كان ذلك ضاراً بالمعنى ؛ وإن آتى به ، فإنما يسوقه بعد تحقيق عليه ،
وربما وضعه من غير شكله . وإذا تم المعنى ، قص بعض اللفظ ؛ كما قيل :
« إذا تم العقل ، نقص الكلام » .

وأرى أن مساق الحديث في التأليف يفضله بعض أحسن خوطاً وأفضل
نظماً من تقطيعه . ولهذا نريد إيراد كالحديث « [فالحديث] ذو
شجون » ، ونضرب المثل لبعضه ببعض : فيتفق إرادته دفعة واحدة ،
ونصه على أكمل ما يمكن .

٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به

ومن كان لا يعرف دنياه التي نشأ فيها ، وأدركها ببصره وجميع حواسه ،
فهو لآخرته أجهل ، [آخرته] التي لا تعرف إلا بالتفكير والاعتبار ، بعد

ما حضّ عليه الكتاب وأتى به الرسول — عليه السلام — . وقال تعالى^(١) :
 ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . وما * يصلح لنفسه لا يصلح لغيره . وأصل^(٢) ()
 العلم كله معرفة الإنسان بدينه ، و [يقينه] بمعاده ، وأنه لم يخلق عبثاً . فإذا
 صحّت معرفته بذلك ، كان أخرى أن ينتفع به لندياه التي يشاهدُها معاينةً .
 ٥ والرجالُ ثلاثةٌ : رجلٌ عَمِلَ قَمِيلٌ : فذاك الذي يُدْعَى في الملوكوت ؛
 ورجلٌ عَمِلَ ولم يَعْمَلْ : فذاك الذي يُضَاعَفُ له العذاب ؛ ورجلٌ لم يَعْمَلْ
 ولا عَمِلَ : فذاك ، إن مات ، يموت مَيِّتَةً جاهليّةً ، ولا تصحُّ له معرفة
 دينه إلا بأن لا يقدح فيه قول كافرٍ ولا مُعْطَلٍ . فإذا حَسُنَ تمييزُهُ عن
 الصنف المُلْحَدِ ، عرف فَضْلَ ما هو عليه ، فأتبع على يقينٍ وجودةَ نَظَرٍ ،
 ١٠ لا باستهزاء ولا تقليدٍ ، فيعجز ويشكّ .

وأما من كان من الأصناف المُلْحَدَةِ ، غير أهل الكِتَابِين^(٣) من المُشْرِكِينَ
 ومن سِوَاهُمْ ، فالضلالُ منهم يَبِيْنٌ ، لا يحتاج معه إلى قياس ولا تفتيش . وأما
 ما يزعم أهل الكتاب من أنهم على الحقّ ، ولهم الدين القويم^(٤) ، وأنّ قولهم
 أحلّ [بنيره] ، فالرّدُّ عليهم في ذلك أن يُقال لهم : « إن كنتم تزعمون
 ١٥ أنه ليس بعد نبيّكم نبيٌّ ولا سُنَّةٌ ، فلا يكون هذا القياس إلا بأن
 تكفروا بمن كان قبل نبيّكم من الأنبياء ! ألم تكن قبل موسى شرائعُ
 وكتبٌ مُنْزَلَةٌ وأنبياءٌ عدّةٌ ؟ فلو كان على مذهبكم ، لا ينسخ دينٌ ديناً ،
 لم يجب لكم أنتم شيء ! »

وإنّ الله تعالى لا يترك الخلق سُدًى مُهْمَلِينَ ، وهو قوله تعالى^(٥) :

(١) سورة الرعد : ١٨ . (٢) كذا في الأصل . (٣) أصل : « القديم » .

(٤) سورة فاطر : ٢٢ .

- ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ ، وقد كانت الضلالة بيّنة في الفترات من عبادة الأوثان وتعبدهم بعضهم لبعض ، ما لم يكن في حكمة الله ومشيتته أن يترك المرء ودينه ، ولا يميل من يعبد سواه حتى يموت محمداً — صلى الله عليه وسلم — بالحق بشيراً ونذيراً ؛ فصدع بالقرآن ، وجاهد في الرحمن ، وسنّ السنن ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر . وكان في ذلك الزمان ٥
- قد ضلّ أهل الكتاب ، واختلفوا ، وردّ بعضهم [على بعض بما لا] يمكن أن تصحّ لفرقة منهم شريعة مع الأخرى ؛ وكانوا كه * (١) ٢ (ب)
- الله تعالى ؛ فحتم الله الرسالة بنبيّنا — عليه السلام — ليبيّن له ما فرضه عليهم ، ويظهره على الدين كلّّه ! إن يقولوا : « ما جاءنا من بشير ولا نذير ! » ١٠
- وقال الله تعالى (٢) : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ ، فالْحِجَّةُ عليهم ظاهرة على ما بيناه فيما يعطى العقل والقياس . وأما تبليان نبوته — عليه السلام — في الآيات التي جرت على يده ، فأكثر من أن توصف .
- وإذا قتلت أحدكم ببعض هذه الحجج ؛ فمن ينتحل منهم قبحاً في علمه وسداداً ، يرجع إلى أن يقول : « إنما كان رسولاً إلى العرب ! » فتأمل ١٥
- تناقضه ، وكيف أثبت له الرسالة ؛ ومتى وجب إثبات الرسالة ، فقد أوجب على نفسه التصديق في كلِّ مقالة وما أتى به . ثمّ الله يقول (٣) : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . وقال — عليه السلام — : « يُعِثُّ إِلَى الْأَسْوَدِ وَالْأَبْيَضِ وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ » ؛ فهم لا يصحّ لهم الإنكار جلةً ولا الإيمان بأمرٍ دون أمرٍ .

(١) خرم نحو سطر في الأصل .

(٢) سورة المائدة : ٤٨ .

(٣) سورة سبأ : ٢٨ .

٣ - قصور القياس دون عون من الوحي

وقد كانت معرفة الباري تعالى بالعقل اضطراراً لقوله^(١) : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ . ولو ترك الناس في ذلك على قياسهم وما تدركه عقولهم ، لكان خوضهم في هذا المعنى قليلاً ، مستضعفين ، لا يطيقون نصر ما عهد إليهم مما يريدون من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولغلب جهالهم وعامتهم التظلم ، ولم يلتفت أحد إلى قوله وما يقيس عليه . فكانت النعمة مما أراد الله من صلاح العالم أن بعث فيهم الرسل ، ليكون ما أتوا به دواء لما في الصدور وهُدًى ورحمة ؛ فن عرف الله قبل العقل ، أتم عليه نعمته ؛ فقد عرفه نفسه باليقين ، وبشره بالثواب ، وأنذره العقاب ، ليرفع الشك ويوقن بالمعاد ولينقد إليه عامة الناس طوعاً أو كرهاً .

١٠ ألا ترى أن لا شيء من أمور الدنيا يصح بالظن دون اليقين ؟ فكيف الآخرة التي لا يوقن^(٢) * الذين أبانوا عنها ؛ والظن كذب الحديث والشرع ، ومن تقلده بطل [رأيه] . وليس حكم الباري تعالى مما يجري على قياس : كيف ؟ وهو خالق القياس ، وهو

١٥ واهب العقل الذي به أدركنا جميع الأشياء . ألا ترى أن النفس لم يقف أحد منها على حقيقة ؟ ما هي إلا اختلاف بين العلماء الشرعيين وأهل الطبيعة والذهنية . والحق إنما يكون في طرف واحد ؛ فهم يخطئون خبطاً عشواء وإذا قست على الحق ، فإنما تجده عند أهل السنة لما بأيديهم من القرآن

(١) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٢) خرم نحو نصف سطر في الأصل .

وحديث ارسول — عليه السلام — ، فهم يتكلمون على أصل ، وغيرهم على قياس : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ ^(١) .

وترى من الملحدين كثيراً [مَنْ] لا يؤمن بالغيب ويقول : « إِنَّمَا أَعْلَمُ ^(٢) ما تُدْرِكُه حواسي من حارٍّ وباردٍ ورطبٍ ويابسٍ ، وما أدركته بعقلي مما كان ؛ ولا أعلم ما يكون ، وإِنَّمَا أَنَا أَنُ الْآنُ » . فالرَّدُّ عليه أن يقال له : « أتدري بِمَ عرفتَ هذا كله ؟ » سيقول : « بالنفس . وعلمتُ النفس بالعقل الذي هو أرفع الدرجات » . فتقول له : « إذا عرفتَ بالعقل ما أنتَ فيه ، لم يكن لك شيءٌ متقدِّمٌ تعرف به العقل ، ولا استطعتُ لنفسك ، ولا علمتها قبل ؛ فتركب فيها عقلاً وتديبها . وواهبُ العقل الذي خلقتك ودبرك كيف شاء ، قادرٌ على أن يميزك ولا يجعلك هماً ، ولم يخلقك عبثاً ! ولو أنك تعلم — أيها الشقي — أن العقل ، إذا جحدت به آيات ربك ، كلُّ عليك وحتمٌ يوم القيامة ؛ وهو قوله تعالى ^(٣) : ﴿ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سِتْمُهمْ وَلَا أَبْصَارُهمْ وَلَا أَفْتِدَتْهمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ . وقال ^(٤) : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ﴾ .

١٥ وقد أنت الرُّسل بالآيات التي هي خارجة عن حكم الطبيعة ليكون ذلك في العالم أشدَّ استغراباً ومعجزاً يؤمن به أكثرُ البشر . وقد أمر الله تعالى بالإيمان بما قد غاب عن العقل والقياس ؛ ولا يعجز الله في قدرته على ما يشاء * جاحدٌ كافرٌ .

٣ (ب)

كقول أهل الطبيعة : إنها هي تُدبِّرُ كلَّ شيء ، وإنها أعلم [من] كلِّ

(١) سورة الأنعام : ١١٦ .

(٢) أصل : « نعلم » .

(٣) سورة الأحقاف : ٢٦ .

(٤) سورة يس : ٧٨ .

عليم وأحكم [من] كلِّ حكيم ؛ فنَجَّع من فعلها في الأبدان ما لا تُدرِكه
الطِّبَاءُ بِاجْتِهَادِهَا . وقال غيرُهم : « الطبيعة اسمٌ واقعٌ على غير شيء لا يُدرى
ما هو . » فَالْحُجَّةُ عَلَيْهِم : أهيَ طبيعةٌ واحدةٌ ، أم طبائعٌ كثيرةٌ ؟ بل ،
سيقولون : « لكلِّ شيءٍ طبيعةٌ ، فأرى أضداداً لا تصحُّ لأحدها إلهيةٌ ،
وغيرُها مُناقِضٌ لها . وهي كانت حُجَّةُ إبراهيم على قومه وردَّه على من قال
إنَّ الشمس هي حياة العالم دون غيرها ؛ فقال — عليه السلام — : « أرى
الظِّلَّ يفعل ضدَّ ما تفعله الشمس ؛ والخالقُ لا يُضادُّ ! » فَأُثِّبَتِ الْوَحْدَانِيَّةُ
بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ الْوَاضِحَةِ .

وقد ذَكَرَ عن سُقْرَاطَ ، وكان في زمن جاهليَّةٍ ، أنَّه قال ، بما أوتي من
الحكمة ، مخاطباً الباريَّ عزَّ وجلَّ : « يا أزلَّ الأزلِّ ! ويا أوَّلَ الأوائلِ !
ويا قديماً ! لم يزلْ مِنِّي ناركُ لِعَلِّي أن هذه المخلوقات من آثارك ؟ »
ولم تكن معه فِتْنَةٌ يَتَّبِعُونَهُ على قوله ، ولا يَمُتُّونَ ما قال ، حتى أمروا
بقتله .

ولهذا يرجع ما قدَّمنا ذِكْرَهُ أنَّ شرعاً لا يتمُّ بقياس العلماء وخواصِّ الناس
دون الرسالة ، على أنَّه لا يشكُّ ذو عقل أن المخلوقات قد جعلها الله عِللاً بَعْضُهَا
لِبَعْضٍ ، ولم يخلقها عَبَثاً ؛ وَلِكُلِّ عِلَّةٍ عِلَّةٌ إِلَى أن ينتهي ذلك إلى الباريَّ عزَّ
وجلَّ ؛ فهو الذي لا فوقه شيء . وهو قولُ إِفْلَاطُونِ لموسى — عليه السلام —
إذ قال له : « يا أخى ؟ رَسولٌ مَنْ أنت ؟ » أراد استخباره ؛ فقال له موسى :
« أنا رسولُ العِلَّةِ » . فقال له إِفْلَاطُونُ : « ما العِلَّةُ ؟ » قال : « لا أدري !
ولو كنتُ أدري ، لكنتُ أنا العِلَّةُ ! إِنَّمَا أنا مُتَّبِعٌ ! » فقال له إِفْلَاطُونُ :
« اذهبْ وَبَلِّغْ ما شئتَ ! فالآن صبحٌ عندى أنكَ رسولٌ حقٌّ ! »

وكذلك الجزء لا يُحيط بالكل ، والكل مُحيط بجميع الأشياء ؛ وهو قوله تعالى^(١) : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ .

وكذلك * أهل الهندسة والعرفة بالنجوم قد علموا أنها مخلوقة مصرفة ٤ (١)
لما . . . العباد ؛ والعقل منهم يقر بذلك ، غير أنه نُهي عن النظر فيها
والاجتهاد فيما نُهي عنه ، إذ ليست عقول أكثر الناس تهتدي إلى الحقيقة ؛
والفسادُ أسرعُ من البنيان ، وأقربُ إلى عقول الناس من الاهتداء . « وَدَعُ
مَا يُرِيدُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيدُكَ » .

وَهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ فِيهَا سَعُوداً وَنَحُوساً ، إِنَّمَا فِي الْفَلَكَ سَعْدَانٌ وَنَحْسَانٌ ،
يعنون بها المشتري والزهرة وزحل والمريخ ، ونيران ، وهما الشمس
والقمر ؛ ولا يصح لعالم أن يتكلم عليها إلا بمزج بعضها ببعض ، فكيف
يكون لها الحكم ؛ وهي أضداد ، والحاكم لا يضاد ، وخالق الخير والشر
إليه يرجع الأمر كله ؟ وهو مصرفُ الدهور بما يشاء لا إله إلا هو ،
العزیز الحكيم ا

وليس في العالم أمرٌ يثبت ؛ وعلى هذا بُنيت الدنيا ، وكذلك الدُّوَل
والمَلَل : كلٌّ يأتى في أوانه ، ولا يتمدّد وقته ؛ والدينُ صلاحُ العالم ،
ولا عدلٌ إلا به ، والمَلَكُ يعضده ويحميه ، وهو قوامُ العالم على مارتب
البارئ عز وجل .

٤ - ضرورة التعليم والتجربة

- وأعلم أن العقل محتاجٌ إلى التعلم ، ولا يستحكم تعلمٌ إلا بتجربة ، ولا تتحكم تجربةٌ إلا ما كان فيها بعض النكد والإشغاف ؛ فالإنسانُ على ما ضرى عليه وعلى أن السعيد من أعطى بغيره ؛ لكن من شأن الإنسان التسويف و « لعل » و « عسى » ؛ فإذا أُحْتِيجَ في ذاته ، أعقبه ذلك يقظةً وحنكةً . وكذلك من أخوجَ إلى نفسه كأنما لا يتكل على غيره . فينبغي للعاقل أن يعمل نفسه في رياضة ذلك ، والتمرن فيه ، إن لم يحوجه الدهر ؛ وإلا : فليتمب ذهنه ، ويشغل باله بالفكرة فيه ، خوفاً أن يضطرَّ إليه ، وإنَّ الدعة غير دائمة . فإن احتاج إلى نفسه ، وجدها ؛ وإن استغنى عنها ، عرف فضلَ ما هو فيه ، وكانت لذته به أشدَّ تمكُّناً : فإنه لا يعرف قدرَ الخير من لا يعرف الشر . وإعمال الفكرة في هذه المعاني كالتجرب بها : فإنَّ الاهتمام بما لم يكن بلاءاً في النفس كائنٌ ، وذلك البلاء مؤدَّبٌ ، وأعظمُ ، نافعٌ ، مضبوطٌ ، خيرٌ من بلاء موجهٍ حال .
- وقيل : ليس العلم بكثرة الرواية ؛ إنما هو نورٌ بضته الله في القلوب . ولا عذر للإنسان في أن يجهل علماً يليق به ، لقول الله تعالى ^(١) : ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ . ومن حسنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه . وليس كلُّ ما حضَّ عليه ونهى عنه على العموم ، بل لذلك كله حُكْمٌ يحسنه العاقل ؛ والجاهل لا يحسنه ، وإن جهد جهده .

(١) سورة النحل : ٤٣ .

٥ - التكوين السياسى للمؤلف

وقد كنّا — معشرَ أهل بيتِ للملكة — نرى من آكد ما تتأدّب به إعمال السياسة فى طلب الرياسة ، والسعى لها بكلّ الوجوه ، وإحضار الأذهان ، ما لو أنّ المفْرِطَ فى بعض ذلك مِنّا يكون أفعه الناس فى سائرهما من العلوم ، لكان عندنا ناقصاً ، لا يصلح لهذا الشأن ، حتى وقع التناقضُ على ذلك .

وقتلناها نحنُ علماً لرياضة أنفسنا لها ، وما أجراناً^(١) عليه آباؤنا ، وبصّرونا فيه من أوّل نشأتنا .

وتلك صناعةٌ وجب تعلّمها لضرورة الحال ، كسائر الصنائع التى منها معاش الناس ، ولا بدّ لهم من إتيانها . ولعمري إنّ الوالى أكثر علماً وأحسن عقلاً : فإنّ جميع عقول الناس تعرض لديّه ، ويمرّ بـ فى موضعه ما لا يمرّ بغيره فى قلبه فى البلاد ، وإليه تهدى الأخبار ، ويتخاصم الناس ، وعنده يقع الطلب ، وترفع الحاجات ، وتقع العناية ؛ فيرى ويسمع كلّ يوم جديداً لم يره أمس . وقال عمر بن العزيز — رضى الله عنه — :
 ١٥ « لستُ كخبّر ، ولا الخبُّ يخدعنى ! » وقيل : « فلان لا يعرف الشر » .
 قال : « ذلك أجدرُ أن يقعَ فيه ! »

* ولما كان المظفر جدّنا — رضى الله عنه — قد أُوتى من الدهاء والتميز ٥ (١) لأحوال الزمان ما لا خفاء به ، وأنّه من آكد ما يجب له النظر فيه ترشيحُ

(١) أصل : « أجرنا » .

أَحَدَ بَنِيهِ لِلْوَلَايَةِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِتَمَرِينِهِ وَإِعْمَالِهِ فِي جَمِيعِ خِدْمَتِهِ ، كَيْ يَتَدَرَّبَ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِ الدَّوْلَةِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِيهِ نَفْسُهُ ، كُنْتُ مَعَهُ وَقَعَ اللَّهُ لِبِرِّهِ وَالْإِنْصِياعِ لَوْصِيَّتِهِ . فَأَمَرَ بِإِخْرَاجِي مِنَ الْمَكْتَبِ إِلَى التَّصَرُّفِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَقَالَ لِي — نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ — : « مَعَكَ مِنْ الْكِتَابَةِ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ مَا يَكْفِيكَ ! وَهَذَا أَوْلَى مَا تَتَعَلَّمُ ! فَعَلَيْكَ بِإِحْضَارِ ذَهْنِكَ لِجَمِيعِ مَا يَكُونُ مِنِّي وَمَا يَنْقُضِي فِي دَوْلَتِي أَيَّامَ هَذِهِ الْقِنِّ ؛ فَإِنَّ الزَّمَانَ أَشَرُّ ، وَالْأَيَّامُ أَقْصَرُ مِنْ أَنْ تُذَرِكَ تَعَلَّمَ كُلُّ شَيْءٍ بِغَيْرِ الْمُلُوكِ لِأَبْنَائِهِمْ ! »

فَامْتَلَأْتُ حَذَّه . وَأَخَذْتُ نَفْسِي أَوَّلًا بِالتَّوَاضُّعِ لَهُ وَابْتِغَاءِ كُلِّ شَيْءٍ يَقَعُ مِنْهُ فِي نَفْسِهِ أُنَى أَشْرَهُ بِهِ إِلَى تَعْجِيلِ الْوَلَايَةِ أَوْ الْحِرْصِ عَلَى الرِّيَاسَةِ ؛ بَلْ كُنْتُ أَتَأَنَّى لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْكُمُ بَيْنَ اثْنَيْنِ إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِ وَمِشَارَكَةِ أَهْلِ السُّنَنِ وَالْعَمَلِ مِنْ وَزَرَاتِهِ ، وَأُنْزِلُ نَفْسِي لَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْإِبْنِ ، حَتَّى وَقَعَ ذَلِكَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ مَوْقِعًا ارْتِضَاؤِي بِهِ لِلْخَلَافَةِ مِنْ بَعْدِهِ . وَاتَّفَقَ فِي ذَلِكَ رَأْيُهُمْ مَعَ رَأْيِ الْجَدِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ .

وَلَمْ يَكُنْ مِنْهَا نَهَارٌ إِلَّا وَأَسْتَفِيدُ فِيهِ فَائِلَةً مِنْ تَجَرُّبَةٍ وَحُكْمَةٍ .
وَمَا كُنْتُ أَجْهَلُهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ ، أَجِدُّ لَهُ أَعْوَانًا مِنَ الْوُزَرَاءِ ، يَعْلَمُونَني بِالصَّوَابِ فِيهِ لِقَلَّةِ خِلَافِي عَلَيْهِمْ وَبِرِّي بِهِمْ .

كُلُّ ذَلِكَ [مِنْ] الْأَسْبَابِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ مِنْ أَجْلِهَا وَلَايَتِي مِنْ بَعْدِهِ .
وَقَدْ كَانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ مَنْ يَصْلَحُ لَهَا قَبْلِي ، وَمَعِيَ مِنْ آخَرٍ كَبِيرٍ وَعَمٍّ وَقَرَابَةٍ أَتَوَقَّعُ اسْتِغْدَافَهُمْ إِلَيَّ وَتَغْلِبَهُمْ عَلَيَّ ، مَا لَوْ أَنْفَقْتُ مِثْلَ الْأَرْضِ عَلَى كِفَايَةِ شَرِّهِ ، مَا اسْتَطَعْتُ لَهُ . فَكَفَانِي اللَّهُ تَعَالَى مَا كُنْتُ * ه (ب)

أَتَوَقَّعُ ، وأراني الخيرة في عاقبة كلِّ أمرٍ كنتُ فيه أكرهه . فنحنُ
جُدَرَاءُ بتعدادِ رِيعِ اللهِ والإنصافِ في شُكْرِهِ ، كما حضَّ اللهُ عليه في
قوله^(١) لَنَبِيِّهِ — عليه السلام — : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ .
وقد كان أبونا سَيِّفُ الدولة — رحمه الله — مُرَشَّحًا للملكة ، كثيرًا
حُبُّ أبيه له ، وجمُّه الأموال من أجله ، وتدريبه عليه بكلِّ وجهٍ .
وكان — رضى الله عنه — من العقول والكرم وحُسن الخلق والحلم مشهور به
في البلاد ، واجتمع عليه محبة العباد . ولم يكن للمظفر جدًّا غيره ؛ فتوقَّى
— رحمه الله — ابنَ خمسةٍ وعشرين عامًا . وسنذكر من أحواله مع سائر
أُمُور الدولة ما يَرِدُ بعد هذا إن شاء الله .

٦ — صعوبة الإنصاف التاريخي

وأوَّلُ ما ينبغي تقديمه ذِكْرُ دُخُولِنا الأندلسَ ، وكيفيَّةَ ولايتنا إيَّاهَا ،
إلى هَلَمَّ جَرًّا .
فإنَّه ، متى أتينا على خبر يطيب ذِكْرُهُ في هذا التأليف ، للمُعْتَرِضِ
أن يقول : « هذا أَحْسَنُ لو كان على أَصْلِ مُحَمَّدٍ ، وعن ولايةٍ تُرْتَفَضُ ! »
فينطق هَذَرًا دون اختبار ولا إنصاف ، على أنَّ الثناء الحسن لا يقع على الدولة
إِلَّا في مُدَّتِها وأَيَّامِ سعادتها ، ولو كانت ظالمةً ؛ فلا يقع فيها الذمُّ إِلَّا بعد
تَوَلَّيْها ، ولو كانت عادلةً . والناسُ مع من سبق إِلَّا مَنْ نظر بعين العدل ،
لا بعين الهوى ؛ وقليلٌ ما هم !

(١) سورة الضحى : ١١ .

ولتري أن لاشيء في العالم يسعد وينحس إلا وكان أحد الأمرين لا يشوبه غيره . ولا يتعلق بالسعادة إلا كل مستحسن من غير تكدير ، كما أنه لا تشوب المنحسة ما فيه أدنى سرور . وليس مع الإقبال إداراً إلا تمام المدة .

- ٥ ولا يتفق الناس أجمع على مدح أحد ولا على ذمه : فإن رضى العامة أمر لا يدرك ، ولا بدّ للوالى أن يقضى عند حكمه لأحد الخصمين على الآخر ضرورة ؛ فالمقضى عليه انقلب سائحاً ، والمقضى له انقلب راضياً ، وكلاهما يتكلم على شهوة نفسه . فكيف يتفق إجماع العامة على خير واحد ؟
٦ أو مدحه ؟ وإن الله تعالى كان قادراً على أن يسوى بين [أمور خلقه ،
١٠ وجديراً ، وإن] كيّفت ، أن يرفع بعضهم فوق بعض درجات .

٧ - المصادفة وأثرها في التاريخ

مثل المنصور

- وإذا اعتبرت أحوال هذا العالم على شيء من أمر الدنيا ، فإنما تجد كائناً بأرق سبب : فمن بين جاهل مسعود أو حاذق ممخرق . وإذا
١٥ بعثت على ما هو فيه أعين استحقاق تصير إليه ، لم تختبر من فضاله ومقاله شيئاً يشذ عن العالم ، ولا يشف على رأى من تزدره عينك ، ولأن الجهل في العامة أغلب ، والباطل إلى عقولها أسرع : استعظمت ما هو عند اللبيب حقير ، وتكلمت على ما ظهر إليها ، ولم تقس عليه بمقولها ؛ والله

ما بطن ، وللتاس مظهر . ولهذا ترى صاحب التاموس أرفع ذكرًا وأطيب نساء ، وإن كان يُرائى .

وقد كان المنصور بن أبي عامر ، على دقة شأنه قبل ، ولأنه لم يكن من أهل بيت الملكة ، فيستحقها عن الآباء ، ولا كانت به قدرة على الدنيا ، قد حصل على عظام بدهائه وخرقته على العامة ، مع ماهيات السعادة له (وكان أقوى الأسباب في سلطانه) . وقد ذكر بعض أهل العلم بالتنجيم أنه من كان طالعه من البروج الحوت والقوس كان أعظم الأسباب في سلطانه أو عقاره .

ولولا قيامه بدعوة الخليفة ، وإظهاره الانخضاع له [في جميع] ما يأتي ويذر إلى طاعته وإقامة أوده ، وتوليته الحجابة والوزارة ، وإخاله لأهل الدولة الحكيمية^(١) ، وتقضيهم بالقتل ، متأولاً في ذلك أن دولته تصفو^(٢) به ويقوى سلطانه ، وأن في بقائهم كثرة الخلاف وإبشار الفتن وهلاك المسلمين ، حتى اتسق له ما أمل ، وبلغ من ذلك كله الغاية القصوى — ولو أن أحداً اشتهر ببعض ما أتى هو به دون تعلق بسبب أو إظهار طاعة ، [لكان قتل] من ساعته ، ولو كان من أهل بيت الخلافة — إلى أن ورث الأمر ابنه من [بعده ، فصار المنصور] * بأحسن سيرة وأحد طريقة ؛ وكانت له في بلاد^٦ (ب) العدو فتكات ، نال الإسلام في أيامه عزاً ما كان بالأندلس [مثله] ، وأذل ما كان النصراني عليه .

(١) في الأصل : « الحاكيمية » .

(٢) أصل : « أن به تصفى دولته » .

الفصل الثاني

الأحداث الممهدة لقيام دولة بني زيري
وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن زيري
وحبوس بن ماكسن

٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور .

قدوم بني زيري إلى الأندلس وقيام دول الطوائف

وتوقع [المنصور] من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفًا واحدًا ، وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ؛ فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسؤل له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتًا متفرقة : إن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة ، غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تحلل بلاد العدو وتدوينها متى شاء . فاستجلب من رؤساء البربر وحماة وأنبجاءها من بلغه فروسيته وشدته . وتسامع الناس بالجهاد ؛ فبادر إليه من شرق العدو من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به . وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ؛ وهم كانوا

العِدَّة في الجيش والموثوق بهم عند اللقاء ومعتزك الوغاء . وكان من أذهام رأيا وأبندهم همة زَاوَى بن زِيرَى عُمَا ، وبعده حَبُوسُ بن مَأْكَسَن ابنُ أخيه — رضى الله عنهما — ؛ فإليهما كان الرأى والمشورة في الأمر ، والحكم على من دونهم من الأجناد .

فرتب ابنُ أبى عامر الرُتَبَ ، وأظهر هبة الخلافة ، وقع الشُّرك ، وحضَّ المسلمين عامَّة على الغزو ؛ فعبز عن ذلك رعيَّة الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ؛ ولم يكن القومُ أهلَ حَرْبٍ . فقاطعتهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويمطوا من أموالهم كلَّ عام ما يقيم به من الأجناد مَنْ يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم . فضرب عليهم الأقطاع ، وحصل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها * عليهم^(١) [وفرض] بينهم ما لا [يرتزق] منه الجيش . فبقيت تلك ٧ (١) الأقطاع عليهم إلى [أن عمَّت الأندلس] عدَّة الثَّوَار و[اتبعوا] هم على تلك الآثار . [ودأبهُ] في ذلك إنَّما كان على ما وصَّفتناه .

وكان الناس مؤتمنين على ما يعطونه من زكاة أموالهم في الناض والطعام والمواشي ، يقسمون ذلك على المساكين بكلِّ بلدة ؛ ولم يكن الوالى يقرب من ذلك إلَّا ما يقيم به الجيش والدولة التى هى قيام العالم ؛ ولولا حماية السلاطين للرعيَّة ، وعزُّ دُولهم ، وذَبُّهم عنهم ، ما طاب لهم عيشٌ ولا عزٌّ بهم قرارٌ . فكان ذلك كله عن سداد وصلاح وتأوُّل الخير . ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً [عامرة] بالعلماء والفقهاء وأهل الدين ، وإليهم كانت الأمور مصروفة ، إلَّا ما يلزم الملك من خاصته وعبيده وأجناده من الأخذ من واحد

(١) وقع هنا وفيما يلى خرم وبعض محو في الأصل . وأكلناه بما يتفق والمعنى .

وَدَفَعَهُ لآخر ، لينخل بذلك عسكره ويتخير أفضله فيه للمسلمين
 كفاية وعدة ، إذ كانت الأموال التي يعطونها من غير أصولهم ، ولا اكتسابهم ؛
 إنما كان ذلك من وجه النظر للمسلمين . وأما ما كان بينهم من مظلمة
 أو قضية وكل حكم يرجع للسنة ، فإنما كان لقاضي البلدة .
 ٥ فلما تمت الدولة العائرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد
 بمدينة ، وتحصن في حصنه بعد تقديمه النظر لنفسه ، واتخاذ المسكر ،
 وادخاره الأموال ؛ فتناقصوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر .
 وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ؛ فكيف سلاطين كثيرة وأهواء
 مختلفة ؟ إلا الله من كان ظالماً منهم يتعدى . . .
 ١٠ للقدرة* الذي شاء ربنا لا شريك له .

٧

٩ — استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها

فلما رأى سلاطين صنهاجة وبنو زيري اقتطاع كل أمير في بلد نفسه ،
 وذهاب ما كانوا عليه من عز وأثر ، عزموا بالرحيل عن الأندلس والجواز
 إلى العدو ، ليرجعوا إلى مستقرهم . فانعدوا على ذلك بعد أمور يطول
 ١٥ ذكرها ، وظهور فساد كثير أضربنا عن إirاده كله ، إذ كان مقصدنا
 وصف دولتنا خاصة . ولا بد من ذكر لمع من غيرها عند الاحتياج إليه .
 وكان أهل البيرة في بساط من الأرض ، وكان بهم من الغش بعضهم
 لبعض ما إن الرجل منهم ليتخذ بإزاء داره مسجداً وحماماً فراراً من جاره ،
 ولا يرجعون إلى طاعة ولا حكم وال . وكانوا مع هذا من أجبن الناس

وأخوفهم على مدينتهم ، لا يستطيعون على قتال أحد ، ولو كان الذباب ،
إلا بمن يحميهم ويذب عنهم . فلما بصروا باختلاف سلاطين الأندلس ،
وأنها أضربت ناراً ، وتوقعوا أن يتخطقهم الناس ، وجَّهوا إلى زاوى المذكور ،
ساكنين مما هم فيه ، ويقولون : « إن كنتم جاهدتم قبل اليوم ، فهذا
الجهاد آكد عليكم : أنفسكم تحيونها ، ودياركم تحمونها ، وعزة تأوون إليها !
ومن شاركوكم بأموالنا وأنفسنا : لكم منا الأموال والسكنى ، ولنا
منكم الحماية والذب عنا ! » .

قبل القوم قوتهم . واغضبوا بمكانهم ، واستبشروا باستفتاح البلدة
لغيرها ، و . . . أنفسهم من الغدر لتشتتهم ورجوع أمرهم كله إليهم دون
فئقة [تحميمهم] ، ولا جماعة يتوقع غضبتها . فأتوهم محتشدين منائفين ،
قد انقطع إليهم كل من اتقى من البربر وتعلق بهم . ونزلوا ساحتهم ،
وحبَّوهم بالتخف والأموال ، وتشاركوهم أحسن مشاركة ، راضين بهم
لا ساخطين . واستجاب لهم عند ذلك معاقل كثيرة ، منها جيان وأنظارها ،
وحصن آشر* من الغرب .

(٨)١

١٥ فلما طاعت لهم البلاد ، اجتمع رأيهم على أن يتقارعوا عليها ؛ وكانت
عادة في البربر ، كنى لا يأنف أحدكم مما يصير إلى أخيه . فرجعت
إلييرة في قرعة زاوى ، وحصن آشر مع جيان في قرعة حبوس ابن أخيه
جدنا — رحمة الله عليهم — . وتماقد جميعهم على أنه ، إن طرق العدو
جهة صاحبه ، يكون الآخر يحميها بنفسه ورجاله .

١٠ — ردّ الفعل الذى أحدثه فى الأندلس قيام دولة بنى زيري

اختطاط غرناطة

فلما بصر بفعالهم ثوار الأندلس ، جزعوا منهم ، وحذروا أن تقوى شوكتهم ، فيطرقوهم ويحصّوهم على بلادهم ، لما اختبروا من شدّتهم ورأيهم .
 ٥ فاجتمعوا على منازلهم وقصدتهم إليهم بأحشادهم ، كراهية تطييدهم بذلك للكان وبفضهم لجنسهم . وقدموا على أنفسهم إنساناً سموه بالمرتضى ، زعموا أنه قرشي^١ ، كنى يستهلّوا بخلافته عامة الناس ، ويرجع أمرهم إليه . ونزل الجمع على مقربة منهم .

وكان قبل ذلك ، لما بلغهم احتشادهم وتألّبهم ، جمعوا أهل البيرة المذكورة وقالوا لهم : « نحن لم نأت لفساد دياركم ، ولا قهرناكم على استيطانها ؛ وإنما كان ذلك على اختياركم لنا . وهذه الفئات مقبلة لطلبنا : فإن استوقفنا منكم ، دافعنا عنكم ؛ وإن كانت الأخرى ، فأعلمونا : نمضي عنكم على أجل وجه . فلن نعلم الخير بسيوفنا ! » فأجابهم القوم : « اثبتوا في قتال عدوكم والدفاع عنا وعن أنفسكم ! فنحن رعييتكم الطائفة وأسيافكم القاطعة ! » فقال لهم زاوى بن زيري : « إذا كان هذا رأيكم ، فأرى من الصواب أن نرتحل عن هذه المدينة ، ونختار لأنفسنا فيما يقرب منها مَقِلاً نأوى إليه بأهالينا وأموالنا * والحرب^٨ (ب) سيجال^(١) يصيب عندها ولا يصاب ؛ فقد يُظنُّ عجزاً ! وقد أمر

(١) غرم فى الأصل .

النبي — عليه السلام — عند احتشاد المشركين على المدينة أن يُخَذَّقَ
حواليها ، وسنَّ الحَزَمَ ، مع مدِّ الوَحْيِ له ؛ فكيف نَحْنُ ؟ »

وقالوا لأهل البيرة : « لَسْنَا نَكْلِفُكُمْ ^(١) من الأموال ما نسرَّغتم به ،
إلا أن تنفقوها فيما يخصُّكم من تقوية مدينتكم بحشود رجالة منكم ، تنفقون
عليهم ليكونوا بها لكم أعواناً : تصرفونهم حرساً وجواسيسَ وما أشبه ذلك ،
وتحملون من تعرفون أنه يستطيع على الجندية ، أو تبثون لأنفسكم سوراً
يتوقع بتركه ثلثة تدخل بها الداخلة عليكم . وأما سوى ذلك مما يخصُّنا
نحن ، فاعلموا أنه لم تأتِ الأندلس إلا وأجلبنا مع أنفسنا من الأموال
ما لا نحتاج فيه إلى أحدٍ ، بانين على الإقامة إن اضطررنا إليها ؛ ولم
تأتنا من فاقة ولا سعاية ؛ إنما جئناها رغبةً في الجهاد ، وأن تكون
كفائتنا التي شهرنا بها على العدو دون سائرهم ، وأن نفنى باقى أعمارنا في
طاعة الله ، إلى أن دفعتنا الأقدار إلى ما تروون . ونحن لم نطلب أحداً ،
ولا تعددنا على بشر ! وهؤلاء باغون متطاولون . ومن ^(٢) مَنى علينا
لينصرَّنه الله ^(٣) ؛ ومن قُتِل دون ماله وأهله ، فهو شهيد ! »

فرضى القوم من قولهم ، وزاد ذلك فيهم رغبةً . واتفق رأى الجميع أن
يخيروا لأنفسهم جبلاً مُنيفاً ومَعَقِلاً شامخاً ، يبنون فيه ديارهم ، ويرحلون إليه
بقلبتهم وكثرتهم ، ويعملونه القاعدة ، ويخربون له البيرة المذكورة
..... ^(٤) فوقعت أعينهم على بسيطٍ جميل ، قد جمع الأنهار والأشجار ؛ ^(٥) ٩ (١)
وجميع ما يليه من البلد كله ينسقى من وادى ^(٦) شَلِيلٍ المنحدر من جبل

(١) أصل : « نكلفوكم » . (٢) سورة الحج : ٦٠ . (٣) خرم نحو

سطين في الأصل . (٤) أصل : « واد » .

شَلَّيْر . وبصروا بالجبل الذى فيه الآن مدينةُ غَرْناطةِ موسَّطة للبلدِ كُلِّهِ :
 الفَحْصَ أمانه ، وَجِهَتَي الزاويةِ والسَّطْحِ بِجَنَّتَيْهِ ، ونظَرَ الجَبَلَ وراءه .
 فأفْتَنَهُم المكان ، وعملوا عليه كلَّ حساب ، ورأوا أَنَّهُ فى وَسَطِ النِّعَمِ وجمهور
 الرعايا ، وأنَّ العدوَّ ، متى نازَلَهُ ، لم يَطقْ له إِحصاراً ، ولا منعه داخلاً
 ٥ ولا خارجاً البتَّة ، فى كُلِّ ما يحتاجُ إليه الناسُ من المرافق . فشرعوا فى
 بُنيانه . وتولَّى كُلُّ امرئٍ منهم إقامةَ داره من أَندَلُسٍ وبرَبَرٍ . وخرَبَتِ
 عند ذلك لِابيرة .

١١ - خروج المرتضى لحرب بنى زيري وهزيمته

فلم يكن إِلاَّ مُدَّةٌ يسيرةٌ قبل أن يستكمل البُنيان ، فإذا بالطوائف
 ١٠ الباغية قد أَقبلت طامعةً متألِّفةً ، يظنُّون أَنَّهُم ، عند وصولهم ، لا تتردد
 لهم ساعةٌ . وقدَّموا كتاباً إلى زَاوَى المذكور ، يأمرُونهم - بزعمهم -
 بالخروج أمانهم على الأمان ، وأنَّ لاسبيلَ إلى البقاء ، ولا يتركونهم بذلك
 الموضع : يُبَلِّون بذلك العذرَ عندهم ، إِذا ظفروا بعد هذا ، أن لا يقيلا
 لهم عثرةً .

١٥ فلما قرِئَ على زَاوَى كتابُ المُرْتَضَى المُقام لهذا الناموس ، جمع
 رجاله ، وخطَبَ ابنَ أَخيه حَبُوساً ، يأمره بالقدوم عليه ؛ فَأَتَى فى جميع
 عسكريه ، ودخل المدينة على أعْيُنِهِم ، غير مُجانب لهم ، ولا مُتَكامن منهم .
 واجتمع بِغَرْناطةِ من صِنهاجةِ دون الألف من خيرة الخيرة ؛ وكانت الطوائف
 الباغية فى نحو من أربعة أَلْف فارس .

٢٠ فأمر زَاوَى المذكور [بكتبِ الجواب من] إِملائه ، وقال للكتاب :

« لَا تَزِدْ شَيْئًا عَلَى مَا أُمِّلِي عَلَيْكَ ! * اَكْتُبْ : ﴿ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ، حَتَّى ٩ (ب) زُرْتُمْ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ^(١) 》 .

فلما ورد الجواب عليهم ، عجبوا من دهائه ، وقالوا : « إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمْ يَأْبَ الطَّاعَةَ لَنَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَائِقٌ بِنَجْدَتِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ مُوَطَّنٌ عَلَى الْمَوْتِ ، أَوْ مُعْجَبٌ بِحَيِّ ! » فَرَحُّوا إِلَيْهِ .

وهشَّ القومُ إِلَى مُلَاقَاتِهِمْ . فَأَمَرَهُمْ زَاوَى بِالثُبُوتِ وَتَرَكِ الطَّيِّشَ ، حَتَّى يَبْدُو لَهُ مَا هُمْ فِيهِ . فَقَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : « لَا خَيْرَ لَنَا فِي غَيْرِ مُلَاقَاتِهِمْ ، إِذْ قَدْ أَيقَنَّا بِأَنَّهُمْ لَا يَنْفَعُنَا مَعَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا الظُّفْرُ بِهِمْ أَوْ الْمَوْتُ عَلَى أَيْدِيهِمْ . وَلَا مَهْرَبَ لَنَا فِي الْأَرْضِ دُونَ قِتَالِهِمْ ! إِنْ بَقِينَا ، لَمْ يَبَارِحُونَا ، وَأَحْصَرُونَا ١٠ مَعَ رَعَايَانَا إِنْ لَمْ يَرَوْا مِنَّا دَفَاعًا عَنْهُمْ ! فَإِنَّمَا هَلَكٌ وَإِنَّمَا مُلْكٌ ! وَإِنْ مَوْتَنَا فِي مُلَاقَاتِهِمْ ، بَعْدَ إِبْلَاءِ الْعُذْرِ ، أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ تَغْلِبِهِمْ عَلَى مَدِينَتِنَا ! »

فَخَرَجُوا إِلَيْهِمْ بِأَنْفُسٍ جَرِيئةٍ وَعَلَى الْمَوْتِ مُوَطَّئَةً ، وَقُلُوبٌ خَنِيقَةٌ وَالْمَوْتُ طَالِبَةٌ . فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا كَصَفْقَةٍ بِالْكَفِّ عَلَى الْكَفِّ حَتَّى وَلَّوْهُمُ الْأَدْبَارَ ، وَانْهَزَمُوا أَمَامَهُمْ مَذْعُورِينَ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمِحْشَاةِ أَنْفُسِهِمْ ، لَا يَلْوِي مِنْهُمْ أَحَدٌ عَلَى صَاحِبِهِ . وَاتَّبَعْتُهُمْ صِنْهَاجَةٌ ، وَانْبَسَطَتْ عَلَيْهِمْ أَيْدِي الْبَرَبَرِ ، يَقْتُلُونَ مِنْهُمْ نَهْمَةً أَنْفُسَهُمْ ، وَيَأْخُذُونَ أَمْوَالَهُمْ وَمَا تَرَكَوهُ مِنْ أَسْلِحَتِهِمْ ، حَتَّى امْتَلَأَتْ مِنْ ذَلِكَ أَيْدِيهِمْ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَقْعَةُ أَوَّلَ ظَفْرِ ثُبُوتِهَا فِي أَوْطَانِهِمْ . وَهَابَهُمُ النَّاسُ ، وَانْقَادَتْ لَهُمُ الرِّعَايَا . وَتَوَطَّدَ مُلْكُهُمْ بِغَرْنَاطَةِ ، وَطَاعَتْ لَهُمْ أَكْثَرُ بِلَادِ أَعْدَائِهِمُ الْمُهْزَمِينَ . ٢٠

١٢ — رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً

وإنَّ زاوي بن زيري ، لما بصر بهذه الحال ، ورأى تألَّبَ أهل الأندلس عليهم وبُغْضهم لهم ، عمل بذلك فِكْرَتَه وقال : « قد علمتُ وأيقنتُ أنَّ هذا يكون * دأبهم أبداً ، وإن كُنَّا قد مُنَحنا الظفر في أوَّل ١٠ صفة ، لم نأمنهم على أنفسنا وديارنا كلَّ حين ! وهُم ، إن قُتِلَ منهم واحدٌ ، خَلَفَهُ أَلْفٌ ، مع مِثْل جنسيِّهم من الرعايا إليهم ؛ فتكون الزيادة فيهم والنقصانُ مِنَّا ! ولا يموت لنا نَحْنُ أَحَدٌ ونخلفه أبداً ! » فنظر من المكان بعين الحقيقة ، وزَهَدَ فيه ، مع ما عَلِمَهُ من وفاة باديس بن المنصور ، والِدِ المِعْزِ ، ملكِ القَيْرَوان ، وأنَّ ابنه وَلِيَ طفلاً صغيراً ؛ فشرهت نفسه إلى تلك الولاية ، وعزم على النهوض إليها ، للقَدَر الذي قَدَره الله من إزالته عنها وولاية ابن أخيه مكانه .

وكان لزاوي بَنُونَ ، يعدل كلُّ واحد منهم بِبَدَنه مائة فارس في نجدته وقوَّة بأسه ورأيه : منهم بُلْقَيْن بن زاوي . فأعاب هذا الرأى على أبيه ، وقال له « بَنَيْتَ لَنَفْسِكَ ، فتكون له بمنزلة الخادم أو الأجير ! لا تترك حاضراً لغائب ! واثبت بمكانك الذي لم تحصل عليه إلا بعد مشقَّة وإشرافٍ ١٥ من نفسك على الهلاك ! » فقال زاوي : « نستخلف على المدينة من شيوخ تَلَكَّاتِ الموثوق بهم في المِهْمَات مَنْ يَثْقُّها ، وينوب منابى فيها ، حتَّى أباشِرَ بنفسى حال القَيْرَوان وكيفية دَوْلَتها . فلما أن يتهياً غَرَضُنَا ، وإلا انصرفنا إلى مَرْكَرْنَا » .

٢٠ قهياً للمسير على سبيل المشاركة للمِعْزِ ، وأن يكون له بالأندلس عُدَّةٌ

- وعَبْدًا ، وما أشبه ذلك مما يُسْتَعْمَلُ فِي الْمَشَارَكَاتِ وَاتِّصَالِ الْأَيْدِي عَلَى الْمِهْمَاتِ . وَاسْتَحْلَفَ مِنْ اسْتَحْلَفِهِ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَّا يَدْخُلُوا^(١) عَلَيْهِ دَاخِلَةً وَلَا يُسْلَمُوا^(٢) مِنْ أَحْوَالِهِ شَيْئًا لِابْنِ أَخِيهِ وَلِأَخِيهِ مِنَ خَلْقِ اللَّهِ ، * يُرِيهِمْ^(٣) (ب) فِي مَسِيرِهِ^(٤) النَّظَرَ لَهُمُ وَالسَّعَى فِيمَا هُوَ خَيْرٌ مِنْ مَوْطِنِهِمْ ذَلِكَ .
- ٥ ثُمَّ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدِ كَأَنَّهُ يُقَادُ قَوْدًا ؛ فَلَمْ يَخْرُجْ مِنْهَا بِمَرَحَلَةٍ إِلَّا وَكُتِبَ مُسْتَحْلَفِيهِ سَائِرَةً إِلَى حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، يَسْقُوهُونَ رَأْيَ زَاوَى وَيَقُولُونَ لَهُ أَنْ يُجَلَّ بِالْقُدُومِ إِلَى الْبَلَدِ ، وَأَنَّهُ أَحَقُّ بِوِلَايَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ ، قِيلَ أَنْ يَطْمَعَ فِيهِ مَنْ لَا يَرْضُونَهُ ، أَوْ يَشْرَهُ إِلَيْهِ مِنْ فَغْرَ فَاهُ إِلَيْهِ بِزَوَالِ زَاوَى عَنْهُ . فَلَمْ يَتَأَخَّرْ عَنْهُ إِقْبَالُ حَبُوسِ . وَتَلَقَّيْتَهُ^(٥) صِنَاهَا بِالطَّاعَةِ وَالْإِقْبَادِ لِمُلْكِهِ . ١٠ وَبَعَثَ بِخَبْرِهِ زَاوَى ، وَهُوَ فِي طَرِيقِهِ عَلَى مَقَرَّةٍ مِنْ غِرْنَاطَةِ ؛ وَنَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ . وَلَآمَهُ وَلَدَهُ عَلَى ذَلِكَ .
- وَيَذْكُرُ أَنَّهُ ، لَمَّا وَصَلَ إِلَى الْقَيْرُوانِ ، وَأَحْسَ بِمَذْهَبِهِ بَعْضُ وُزَرَاءِ الْمُعِزِّ نَكَرُوهُ وَخَافُوا دَوَاخِلَهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَكْدُرَ مَا صَفَا . وَرَأَوْا أَنَّ وِلَايَةَ الْمُعِزِّ عَلَى طِفْلٍ لَيْسَ بِهِ عَيْشَهِمْ مَعَهُ ، وَنَحْكَمُهُمْ عَلَيْهِ ، أَخَفَّ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوَلِّيَةِ دَاهِيَةٍ ١٥ مِثْلَ زَاوَى ، لَا يَمْلِكُونَ مَعَهُ مِنْ قِطْعِيرٍ . فَدُسَّ إِلَيْهِ مِنْ سَقَاهُ السُّمُّ . وَمَاتَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ .

١٣ - إِمَارَةُ حَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ

وَصَفًا الْأَمْرُ لِحَبُوسِ بْنِ مَأْكَسَنَ ، وَسَارَ بِأَجْمَلِ سِيرَةٍ وَأَعْدَلَ طَرِيقَةٍ . وَصَرَفَ أَحْكَامَهُ أَجْمَعَ إِلَى قُضَاةِ الْبِلَادِ ، وَتَنَفَّ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَجُمِدَتْ

(١) أصل : « يَدْخُلُونَ » . (٢) أصل : « يَسْلَمُونَ » . (٣) أصل : « يَرِيهِمْ » .

(٤) أصل : « وَتَلَقَّيْتَهُ » .

يَدُّهُ عَلَى الْحَرَامِ وَالْأَمْوَالِ . فَأَحْبَبَهُ النَّاسُ ، وَأَمِنَتْ مَعَهُ السُّبُلُ ، وَقَلَّ
الْفَسَادُ ، وَارْتَفَعَ الْجَوْرُ .

وكان الرجلُ مُحِبًّا فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ ، لَمْ يَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ .
وَقَسَمَ عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ . وَأَمَرَ كُلَّ قَائِدٍ أَنْ يَنْتَخِبَ مِنَ الرِّجَالِ عِدَدًا يَلِيقُ بِهِ
وَمَا يَكُونُ عَلَى قَدْرِ مَا أُعْطَاهُ مِنَ الْجِهَاتِ ، وَأَنْهَى إِلَيْهِمْ : « إِلَّا قَائِدَةٌ
تَقِيدُونِي بِهَا تُتَّفَقَ عِنْدِي مِنْ مَالٍ أَوْ تَحْفَ غَيْرِ الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَجْنَادِ ؛ فَمَتَى
دَعَوْتُ * أَحَدَكُمْ لِمَهْمَةٍ ، وَبَصَرْتُ عَسْكَرَهُ أَكْثَرَ عِدَدًا وَأَجُودَ خَبِيرَةً ، ١١ (١)
فَذَلِكَ الْأَثِيرُ عِنْدَنَا ، وَالْحَظِيُّ لَدَيْنَا ! » فَسَارَعَ الْأَجْنَادُ إِلَى الْاِثْقَةِ ، وَزَادَ
الْجَيْشُ فِي أَيَّامِهِ ؛ وَقَامَتْ هِمَمُ الرِّجَالِ عَلَى سَاقٍ ، وَتَنَافَسُوا عَلَى خِصَالِ
١٠ الْحُرُوبِ وَمَقَاطِعِ الشُّجْعَانِ .

وكان بنو عَمِّهِ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ سُلْطَانًا فِي نَاحِيَّتِهِ ، قَدْ حَازَ جِهَتَهُ
وَانْفَرَدَ بِعَسْكَرِهِ . وَكَانَ حَبُوسٌ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لَا يَنْفَرِدُ بِرَأْيِ دُونِهِمْ ،
وَلَا يَقْطَعُ مَقْطَعًا إِلَّا بِمَشُورَتِهِمْ ، حَتَّى إِنْهُمْ لِيَجْتَمِعُونَ مَعَهُ لِلْحُكْمِ فِي مَوْضِعٍ
خَارِجٍ قَصْرِهِ دُونَ السَّيْرِ إِلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ اسْتِحْصَانًا مِنْهُ ، كَيْ لَا يَحْصُلَ عَلَيْهِمْ
١٥ مَا يَقَعُ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْهُ ذَلَّةٌ وَلَا مَا يَنْقُمُونَ عَلَيْهِ . وَكَانَ رَفِيقًا بِهِمْ ، مُحْسِنًا
إِلَيْهِمْ ، مُؤَلِّفًا لِكَلِمَتِهِمْ . وَكَانَ مِنْ قَوْلِهِ : « إِنْ صُنِّهَاجَةٌ عِنْدِي مِثْلُ
الْأَسْنَانِ فِي الْقَمِ : إِنْ عَدِمْتُ مِنْهُمْ وَاحِدًا ، لَا نَخْلُقُهُ أَبَدًا ! » فَكَانَتْ
لَهُ بِهِمُ الصُّوْلَةُ عَلَى النَّاسِ وَالِاسْتِطَالَةُ عَلَى الْعَدُوِّ . وَمَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ يَرَى
تَرْكَهُ غَنِيمَةً وَالسَّلَامَةَ مِنْهُ مِنْ أَعْظَمِ الْفَائِدَةِ ، فَضْلًا أَنْ يَطْمَعَ فِي شَيْءٍ
٢٠ مِنْ جِهَاتِهِ ، أَوْ تُحَدِّثَهُ نَفْسُهُ بِغَزْوِ بَعْضِ بِلَادِهِ .

١٤ - المؤامرات التى دُبِّرت لإسناد الإمارة

إلى يَدَيَّر بن حُباسة .

موت حُبوس

وكان لِحُبُوس بن مَكْسَن - رحمه الله - ابنُ آخر يُعَرَفُ يَدَيَّر
 ٥ ابن حُباسة . وكان عنده آثر من وَلَدِه ، لِذِي كان يرى من نباهته ،
 وإقباله على قراءة الكُتُب ومُجالسة الفقهاء ؛ وهو الذى كان يلقي به
 الرُّسُل ، ويصرفه فى المُهمات . وكان باراً بِحُبُوس وبجميع أهل المملكة .
 وكان من أَحَبِّ الناس فيه كاتبُ حُبُوس المعروف بأبى العباس ، لِمَا يرى
 من تواضعه وحُسن مُشاركته فيما عَنَّ له من سَبَب . وطار له بذلك ناموسٌ
 ١٠ كبيرٌ عند* صِنْهاجة حتى آثَرُوهُ على غيره .

١١ (ب)

وكان بَادِيس بن حُبُوس جَدُّنا - رحمه الله - كبير النفس ، على الهمة ،
 حادٌ للزاج ، لا يستطيع أَحَدٌ [أن] يَمْخَرِقَ عليه فى أمر من الأمور ، ولا يَنْكَسِرُ
 لأَحَدٍ من بنى عَمِّه ، رِقَّةً منه بسعاده ؛ وإنَّ الانخضاع والتمريض فى القول
 لا يَنْتِيهِ ذلك ولا يزيد فى أَيَّامه . وكان ذلك كُلُّه منه فى حزم وروية ،
 ١٥ لا يفسد جانباً حتى يصلح آخر ، ويضرب بعضهم ببعض . فوجست أنفُسُ
 البعض منه ، وأُشْرِبُوا هَيْبَتَهُ وخافته ، وتوقعوا ، إن صار الأمر إليه ، أن
 يَجْرِبَهُمْ على خلاف ما عهدوه من أيه . فَأَضْمَرُوا كَثْرَهُمْ لَهُ الغوائل ، وآثَرُوا
 عليه يَدَيَّر المذكور ، وتمنَّوا بولايته : كلُّ ذلك لشقايتهم وتَمَامُ أَيَّامِ سعادتهم !
 وَتَمَيَّعَتُ الْمُظْفَرُ بَادِيس - رحمه الله - يَصِفُ بعض ذلك فى مجلسه

ويقول : « كنتُ واقفاً بين يدي حَبُوس أبي — رحمه الله — حتى انتدبَ إليه من شيوخ صِنْهَاجَة من قال له : « إنَّ من آكَدِ ما تنظر فيه أن تولَّى على أمرِكَ مَنْ يَخْلُفُكَ مَعْن تَرْجَى بَرَكَتُهُ لِلْمُسْلِمِينَ ولِبنِي عَمِّكَ ! فَإِنَّ الموتَ يَغْدُو وَيروح ! » قال أبو العباس كَاتِبُهُ : « ليس يصلح لهذا الأمرُ إِلَّا يَدَّيْرُ ، لطهارته ، وعفافه ، ومحَبَّتُهُ في الناس ! » وكان في الجُمْلَةِ من شيوخهم صديقٌ لى ائِمَّة فِرْقَان ، قد اصْطَنَعْتُهُ واستمَلَّتُهُ ؛ فسمعتُ رَدَّهُ على أبي العباس ، وهو يقول له : « ما ينبغي لك أن تتكلَّم بهذا ! كيف يُقَدِّمُ للأمرِ غَيْرُ ابنه ، وهو مستطَلعٌ بجميع الأمور ؛ وقولُكَ أنتَ وقولُ غَيْرِكَ باطلٌ اكْأَنِّي ، والله ، أَرَى موتَ حَبُوس وولايَةَ باديس من بعده ، وَإِنَّ يَدَّيْرَ سَيَحْتَمِقُ على باديس ، ويظفر به ، ويقتله ! » قال باديس : « فسرَّني * كلامُهُ ، وأعطيتُهُ عليها ألف دينار . »

وكان الأمر بعد ذلك على ما وصف فِرْقَان . ثُمَّ إِنَّهُ اطَّيَّبَ من وجوه صِنْهَاجَة أَقْوَاماً ، ووعدهم بالإحسان ، وسعى بجهدِهِ على حلِّ تلك الصَّفَقَةِ ، إلى أن كَلَّمُوا أَبَاهُ في تَوَلَّيْتِهِ . فرضى ذلك ، وأمر الناس بانصياعهم له . ١٥ وزجر يَدَّيْرَ في مَلَأٍ من الناس ، وقال له : « لا تشره ما ليس لك ، يا ابن حُبَاسَة ! » يُخَاطِبُهُ بهذا اللفظ .

فوقع من ذلك في نفس يَدَّيْرَ عدواة مُجَدَّدَة لباديس ؛ وعمل من ذلك الوقت على خلافه ومُكَابَرَتِهِ وإِجْماعِ الجَمَاعَاتِ عليه ، وشَتَّتْ أَقْوَاماً من صِنْهَاجَة ، حتى صاروا معه . وَوَالَى بُلْقَيْنَ شَقِيقَ باديس — رَحِمَهُمَا اللَّهُ — ؛ وكان من أهل البأس والنجدة ، غير أَنَّهُ لم يكن له معرفةٌ بِسِيَاسَةِ الْمُلْكِ . ٢٠ ولَمَّا رَأَى بعضُ أَصْحَابِهِ مَوَالَاتِهِ لِبُلْقَيْنَ وَسَعْيَهُ له في ظَاهرِ الأمرِ ، لَامَهُ على

ذلك ، وقال له : « إن كنت لا تسعى لنفسك ، ويكون من سعيك لغيرك ما نرى^(١) ؛ فباديسُ أحقُّ بذلك ، الذى هو الأكبر والأسعد ، وله الرياسة ! » فكان جوابه لقائل ذلك : « ليس سعى بلقين إيثاراً منى له على نفسى ، غير أنه صحيحُ النية ، غيرُ حاذقٍ بمكايدِ المملكة ؛ وهو شقيقُ الذى أطلبُ ، ولن أجِدَ لطلبه أقدرَ على ضرِّه من أخيه ! فإنما أنا أصيدُ به ! فلو اتسقت لى الأمور ، ونهياً قتلُ باديس على يدى أخيه ، كان أمرُ بلقين من بعده هيناً ، وخطئه ممكناً ! »

فكان أبداً يحضه على قتل أخيه ، ويريه السعى له . وكان الأخُ فى ذلك متشبباً فى أمره مُشفقاً على أخيه ، إلى أن توفى حبوس بن ١٠ ما كسن - رحمه الله .

(١) أصل : « نروا » .

الفصل الثالث

إمارة باديس بن حبوس

(١) من أوليتها إلى موت ابن نغالة

١٥ — أولية إمارة باديس بن حبوس
وتعاضم الوزير اليهودي أبي إبراهيم

وولى الأمر من بعده جدنا باديس — نضر الله وجهه — فحاول
أموراً كباراً ، وشقّ * مع كل أمة : صنهاجة يطلبون مكانه مع يدّير ، ١٢ (ب)
وسلاطين الأندلس يرمون بلاده ؛ وهو فى ذلك كله حسن السياسة ، صبور
على الأذية .

وكان أبو إبراهيم اليهودي كاتباً بين يدى أبي العباس كاتب حبوس .
ولما توفى أبو العباس المذكور ، وترك بنين ، أقام حبوس — رحمه الله —
أكبرهم عوضاً من أبيه ، واستعمله مكانه . وكان فى الابن صبوة لا يرتبط
معا إلى خدمة الرئاسة ؛ ففكر به أبو إبراهيم اليهودي ، ولزم خدمة الرئيس ،
١٠ وصار ، متى عاب ولد أبي العباس ، يحضر أبو إبراهيم ؛ فيسأل عنه حبوس ؛
فيقول ، محتذراً فى الظاهر ومطالباً له فى الخن القول : « ولد أبي العباس ،

كما ترى ، صبيٌّ يُؤثِّر الراحة ؛ وأنت جديرٌ بالإغضاء عليه وإقامةِ
عنده . وأنا عَبْدُهُ ، أنوبُ منابه ؛ فمرّني بما شئتُ : يَهَيِّأُ ذلك ! »
فلم يزل على هذا أبداً حتّى تمكَّن ، وظهرت خدمته وسعّيه في
ضمِّ الأموال .

٥ وكان مع هذا قد ميّز عن باديس سعادته ودهاءه ؛ فافترض السّمتَ
له والتخدّم لإرادته ما دَامَ أَمْكَنُهُ ذلك ، في وقت اللّناوين له والقاعين
عليه ، للذي قدّر من أيتامه معه .

فلما اتَّفَقَ أعداؤه مع يَدَّير عليه ، شاركوا في ذلك أبا إبراهيم ،
واجتمعوا في منزله ، يرومون قتلَ باديس وإقامة يَدَّير ، وَعَدَمَ على الاجتماع
١٠ عنده . وتقدّم إلى باديس ، وأخبره الخبر ، وأتى معه إلى المنزل ، وقال
له : « ليس الخبر كالبيان ! اسمع بأذنك وع بقلبك ! » وهو بموضع مرتفع
على البيت الذي يرومون فيه عمَلَهُمْ ؛ وأبو إبراهيم في ذلك كلّهُ يقول عند
محاورتهم كالمخاطب للباري : « يا مَنْ يَرَى ولا يَرَى ! » وهو يعنى بذلك
باديس جدّاً الذي يَرَاهُمْ ولا يَرَوْنَهُ . فشكر ذلك باديس* لأبي إبراهيم ، ١٣ (١)
وأيقن بثِقته وأمانته . وصار له خادماً من ذلك النهار ؛ وشاوره في أكثر
١٥ رأيه مع بني عمّه .

وكان في اليهوديّ من الكيس والمُداراة للناس ما طابَقَ الزمانَ الذي
كانوا فيه والقوم الذين يرومونهم . فاستعمله لذلك استيحاءاً من غيره ، ولَمَّا
كان يَرَى من طَلَبِ بني عمّه له ، ولأنَّ هذا يهوديّ ذِمِّيٌّ ، لا تشره
٢٠ نفسه إلى ولاية ، ولا هو أُنْدَلُسِيٌّ ، فَيَتَّقِي منه إدخالَ داخلٍ مع غير جنسه
من السلاطين ، ولاحتياجه إلى الأموال التي يَطَّي بها بني عمّه ، ويحاول بها

أَمَرَ الْمَلِكُ ، لم يكن له بُدٌّ من مثله أن يجمع له من الأموال ما يُدرك معها الآمال . ولم يكن له تَسَلُّطٌ على مُسْلِمٍ في حَقِّ ولا باطِلٍ ، ولأنَّ الرعايا أَكْثَرُهُمْ بتلك البلدة ، والعَمَالُ إِنَّمَا كانوا يَهُوداً ؛ فكان يجبي منهم الأموال ويعطيه ؛ فليق ظالماً منهم إلى ظلمةٍ ، يأخذ منهم ما [يملأُ به] بيت اللال ؛ وإقامة أود الملكة أُولَى به منهم .

١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يَدِّيَر بن حُبَّاسَة

ضدَّ باديس

فلما ولي باديس ، كَثُرَ عليه الخِلافُ والهِرَجُ ، واتفق رأيهم على ما قدَّمنا على قتله وتولية يَدِّيَر . وأعطى على ذلك أقواماً المشاقيل والصكوك بالإنزالات القويَّة .

وكانت عادة السلطان أن يخرج إلى موضعٍ يُعرف بالرَّمْلَة ، ويلبثها مُنِيَّةً كان يحكم بها حَبُوس أبوه ؛ وكان لها بابان ، [فاتفقوا] على أن يقيموا المَلَسَبَ ، ويقتلوه عند خروجه من تلك المُنِيَّة ، وهم قد تسلَّحوا بالدروع من تحت الثياب ، عازمين على الشرِّ .

وكان ممن ارتشَى على ذلك شيخٌ من صِنْهاجة يُعرَف بِفِرْقَان ، أعطى خمسمائة متقال وصكاً بقرية قولَجَر من عمل السطح . فقال في نفسه : « لم أجِدْ فُرْصَةً نحظى بها عند باديس أمكنٌ * من هذه ! » ٣ فجعل أنَّ القَرَمَسَ زَادَ به في جَرِيدِهِ ، كأنه جمع ، حتى دخل المُنِيَّة ، وألقى باديس على الخروج من ذلك الباب ؛ فقال له مختلساً : « انج بنفسك وأخرج من الباب الآخر ! فإنَّ المَلَأَ يَأْتَمرون بك ليقتلوك ! » وأراه الدنانير ٢٠

التي أعطى على ذلك . فخرج باديس من الباب الآخر ، يجدُّ في السير إلى قَصَبَتِهِ ؛ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، يَنْتَظِرُونَهُ .

فبينما هُمْ عَلَى ذَلِكَ ، إِذَا بِعَلِيِّ بْنِ الْقَرَوِيِّ وَأَصْحَابِهِ مِنْ وَزَرَاءِ بَادِيسَ وَثِقَاتِهِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ ؛ فَقَالُوا لَهُمْ : « إِنَّ السُّلْطَانَ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِنْ بَعْضِ أَنْظَارِهِ خَبَرَ مُقْلِقٌ وَجِبَ الْإِنْصِرَافُ لَهُ ؛ فَأَعْذِرُوهُ فِي تَخَلُّفِهِ عَنْكُمْ أَوْ مَعَ هَذَا ، فَإِنَّهُ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ » . فَلَمَّا سَمِعَ الْقَوْمُ بِذَلِكَ ، فَكَلُّوا مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ خَبَرَ هَرَبَ عَلَى الْمَقَامِ ، وَهَرَبَ يَذِيرُ بْنُ حُبَّاسَةَ ، لَا يَلْتَفِتُونَ عَلَى شَيْءٍ ، يَطْلُبُونَ النِّجَاةَ بِمُهْجِهِمْ .

ثُمَّ افْتَضَحَتْ الْقَضَايَا كُلُّهَا لِبَادِيسَ مِنْ بَعْدِ هُرُوبِهِ ؛ وَمَشَى إِلَيْهِ بِالنَّصَاحِ كَثِيرٌ مِمَّنْ بَغَاهُ قَبْلَ ذَلِكَ . وَطَلَعَ إِلَيْهِ أَخُوهُ بُلْقَيْنَ ، وَبَكَى بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوَ عَمَّا أَدْخَلَهُ فِيهِ الْفَاسِقُ ابْنُ عَمِّهِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ بِهِ أَبَدًا يَوْمَ ذَلِكَ مِنْهُ لَوْلَا تَلَبُّهُ وَشَفَقَتُهُ عَلَيْهِ . وَإِنْ يَذِيرُ خَرَجَ عَنِ الْبَلَدَةِ ، وَصَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَكُلُّ رَئِيسٍ قَدْ اتَّعَدَّ إِلَى فِتْنَةٍ جَدُّنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — يَنْحَازُ هُوَ إِلَيْهِ ، وَيَصِيرُ مِنْ أَعْوَانِهِ وَعَلَى أَجْنَادِهِ ، يَدُلُّ بِهِمُ الْبَلَدَ ، وَيُزِيلُهُمُ الْمَخَادِعَ ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ مِنْ عَوْرَاتِ الْجِهَةِ مَا خَفِيَ عَنْهُمْ ، لَا يَفْتَرُ بِالضَّرْبِ عَلَيْهِ وَتَهْتِكُ بِلَادَهُ ؛ وَجَدُّنَا فِي هَذَا لَا يَأْوِي مَعَهُ إِلَى رَاحَةٍ ، وَلَا يَقْرَأُ بِهِ قَرَارًا .

وَصِنْهَاجَةٌ مَعَ هَذَا يَخَاطِبُونَهُ ، حَتَّى إِذَا وَقَعَتْ بِيَدِ السُّلْطَانِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ

اللَّهُ — كُتِبَ كَثِيرَةٌ مِنْ عِنْدِ صِنْهَاجَةٍ إِلَى يَذِيرَ ، تَضَمَّنَتْ أَزِيدَ مِنْ

٢٠ مَائَتِي رَجُلٍ* مِنَ الْأَكَابِرِ . فَغَضِبَ لَذَلِكَ ، وَهُمْ يَقْتُلُهُمْ . وَشَاوَرَ أَبَا إِبْرَاهِيمَ (١) ١٤

فِي الْأَمْرِ ؛ فَقَالَ لَهُ : « أَرَى مِنَ الرَّأْيِ إِلَّا تَوَنَّبَ أَحَدًا عَلَى هَذِهِ

الكتب ، ولا تعلمهم أنها صارت إليك ، وأن تأمر الآن بنار تحرقها بها وتطفى أثرها ؛ ورأس العقل مُدارةُ الناس . فإن عاقبت ، كم عسى [أن] تُعاقب ، وهمُ أجنادك وأجنحتك ! فاحتل للأمر بغير هذا الوجه ! « قبل نصيحته ، واستعان ببعضهم على بعض ، وأفشى فيهم العطايا ؛ وضرب الابن بأبيه والأخَ بأخيه .

فكان دأبُ يَدَّير هكذا أبداً ، لا يقرُّ عن الضرب على بلاده ومعاودة ذلك بلا سامة ولا فترة ، إلى أن أظفره الله به وصار في ثقافه . وذُكر أنه مات مقروعا حتف أنفه . وتأتت الأمور لباديس من بعده ، وصفا له الجو .

١٧ — انتصار باديس على زهير صاحب المرية

وأولُ فتحٍ أفاء الله عليه هزيمته زهير الخصى والي المرية . وكان له كاتبٌ ، يُعرف بولد عباس ، من أشدَّ الناس حماقةً واستخفافاً ، مُثيراً للشر ، مؤرثاً بين الملوك ؛ وكان الغالب على أمر زهير ، إذ لم يكن زهير يصلح لشيء لعباوته وجَهله . وكان قد جمع كلَّ خصى بالأندلس واحتفل ؛ فبالغ . وأدركه الطمع في غرناطة ، لِمَا بلغه من موت حبوس بن ماكسن . فأتى حتى نزل على مقربة منها ، بموضع يُعرف بالقنوت ، محتقراً لمن ولي غرناطة ، يزعم أنهم أصاغِرُ وأمرهم مختلٌ بعد حبوس ، لِمَا أراد الله من هلاكه وهلاك جنسييه الحصيان .

وكان جدُّنا باديس — رحمه الله — قد رأى عند ذلك رؤيا أن الحورَ بغرناطة قد سقط إلى الأرض جميعه ؛ فهالهُ ذلك ، وخشى أن تكون الواقعة عليه ؛ فأرسل في المُعَبَّر وقصَّ عليه . فقال له المُعَبَّر : « أبشُرْ بهنَّه

الرُّوِيَا ! إِنَّ الحَوْرَ شبيهٌ بالخَصِيانِ ، الذي * لا طَمَمَ له ، ولا أصل يتورَّك ١٤ (ب)
عليه ؛ وهمٌ بهذه المرتبة . ولا شكٌ في سقوطهم وبوارهم على يدك ! «
فكان ذلك .

وقدَّم على الساكر أخاه بُلقَيْن ؛ وكان من أشجع الناس ؛ وكان
٥ باديس ، عند موت أبيه ، قد اختصَّه بكلِّ ما شاء وفضَّله في الميراث على
نفسه إلَّا الناصَّ الذي تحتاجه المملكة . فلقى العسكر المردول ؛ فلم تكن
إلَّا ساعة من النهار حتَّى انهزم وقُتل جميعٌ من كان فيه من الخَصِيانِ ،
ونخى زُهَيْرٌ عن العسكر ؛ فلم يوجد حيًّا ولا ميتًا . وكانت تلك أوَّلَ
سعادة باديس ، كما كانت هزيمة المُرتَضَى أوَّلَ سعادة أبيه ، ثمَّ افتتح
١٠ البلاد ، وصارت إليه الأنظار التي تلي المَريَّة . وظفر بعدوّه كَاتِبِ زُهَيْرٍ ،
وأمر بقتله متأوِّلاً لإثارته الفتنة ، ونقم عليه أشياء كثيرة قَبْلَ ذلك ، من
أقاويل خَشِنَةٍ ومُعَامَلَاتٍ قبيحة عَرَفَهُ بها .

وقرَّ مُلْكُ باديس جدًّا قراره ، وطار له الذِّكْرُ . وكانت له من الهيبة
في الناس أن لم يَجْتَرِ عليه أحدٌ بعد تلك القضية .
١٥ ثمَّ إِنَّ بُلقَيْنَ أخاه لم يلبث بعد تلك الواقعة إلَّا يسيرًا حتَّى مات
— رحمه الله — . وكبرت سنُّ سَيْف الدولة في حال الخدائثة ، وهو أبونا .
وترك عمه بُلقَيْنَ ابنًا كان يناوئهُ ويمخِشُ منه ضرًّا كثيرًا ، ويتوقَّع على نفسه
من المطالبات بتلك الأخبار ؛ فخرج عن البلد بجميع ماله وتركه أبيه ،
لم يعترض له شيء .

١٨ — شخصية الأمير مُبَلِّقَيْن سَيْف الدولة والد المؤلف

ولم يكن للمظفر جدًّا غير مُبَلِّقَيْن أَيْنا — رحمهم الله — . وكان رفيقًا به ، مشفقًا عليه ، حذرًا من أعدائه وبنى عمه أن يُبلغوه من بعده بما بُولِغَ هو به بعد وفاة أبيه ؛ فكان لا يحسُّ من أحدٍ داخلَةً ولا نفاقًا إلا ونظر فيه بما يوافق أمره من إخالٍ أو نقيٍّ أو أخذٍ مالٍ ، لئلاَّ يبقى لابنه من يُناوئُهُ ويذِلُّهُ .

وكان سيف الدولة حليماً* رفيقاً ، ضدَّ أبيه في كلِّ حال ؛ فإنَّه لم يجربْ ١٥ من الأمر ، ولا ابتليَ بما ابتليَ هو به . وكان يعدُّ الناسَ بالجميل ، ويقول لهم : « أنا أنسيكم طريقةَ أبي ا » ومن استوجب من أبيه القتل أو أذنى ضررٍ ، كان هو الذى يعنى بأمره ، ويتشفَّع فيه عند الأب ، حتَّى يتخلَّصه . ١٠ فاجمع الناس على محبته خاصَّةً وعامَّةً للذى يرون من مكارمه ، مع تمكين أبيه له وبسطِ يده على الأموال .

١٩ — نشاط يوسف بن نمرالة اليهودي ومؤامراته

وكان في زمانه للمظفر أبيه وزيران ابنا القروى : أحدهما على ، والآخر ١٥ عبدالله ، ممَّن نشأ معه ؛ وكانا حَصِيرِيَّه في المكتب ؛ وكانا قائدَي العسكر ؛ وإليهما كان يرجع الرأى في أمور الفتن^(١) . وكان أبو إبراهيم الشيخ مؤثِّراً لهما ، مستعيناً بهما .

(١) أصل : « الفتون » .

- فلما توفي أبو إبراهيم، وترك ابنته وزيراً جدُّنا، ورث لأبيه أموالاً كثيرة، ووصاهُ بأن يسعى في طلب الوزراء عند استقامة الدولة للرئيس، وعرض عليه الأبواب التي منها يكون حَتَفٌ كلِّ واحد منهم، لِمَا كان بأيديهم من البلاد واستثمارهم بالجبليات. فجل الخنزير نفسه لذلك. وكان المُظفَّر — رحمه الله — لا يقبل منه مُطالبةٌ لمُسْلِمٍ، ولا عَرْضُهُ لذلك، غير أنه كان يتلطف بالأموال، ويعطى لثقاته وعبيده ما يجعلهم في المطالبة على هواه، وهو ساكت، لا يتكلم بشيء مثل أن يَدُسَّ في طلب أحدٍ على يدي مَوْقٍ الخصى صاحب المدينة من ثقات باديس؛ وكان متصباً لهذه المشايخ؛ فيأتي مَوْقٍ للذكور بنصيحة إلى السلطان ممن يزعم أنه من أهل الشر؛ فيُرْسَل في اليهودي ويُقال له: «بلغني أمرٌ كذا وكذا». فيُريه اليهودي التبرؤ^(١) من ذلك بأن يقول له: «كلُّ ما نُقِلَ إليك كذبٌ: فتثبت^(٢)». ا فيقول له الرئيس: ١٥ (ب) «أخبرني مَنْ لا شكَّ عندي في نصيحته ا» فكان آخر ما يقول له: «ما قطعُ الشرِّ إلا سياسة ا» وكان لمباهاته ومخترته، يرى الناس أنه يقدر؛ ولم يكن ذلك منه، إلا عن تحيُّلٍ ومكرٍ.
- ١٥ فلما توفي أبو إبراهيم الشيخ، وكان ابنته في سنِّ الصبا، كره توليته جدُّنا، وقال لعلِّ المذكور: «الزِّم خِدْمَةَ المملِكة؛ فأنت أحقُّ بها ا» فأبى ذلك على. وأطباءُ وَلَدُ أبي إبراهيم بالأموال الجسيمة، وقال: «ليس أَرغبُ إلا أن أكونَ عَبْدَكَ وترَيتَكَ؛ ولك الأمر؛ وأنا كاتبٌ بين يديك، وأقوم بتنفيذك كلها، ولو كان أهْلَكَ عَدَدَ الخصى ا» فطعم ٢٠ على في قوله، وكلم السلطان في ذلك، وقال له: «إن أبقيت على وَلَدِ

(١) أصل: «التبرؤ».

أبى إبراهيم ناصحك ، فأنا أرجو ذلك لو لَدَى من بعدى ؛ وأنا المُشْرِفُ عليه . « ففعل السلطان ما قال ، وقَدَّمه على العُمَّال والجبايات . وكان يعطى لعلَى صدرًا من دولته إلى أن كَبُرَتْ سنُّه .

وأظهر [ولدُ أبى إبراهيم] للسلطان نصائحَ كثيرةَ حِظَى بها عنده ؛ ٥ وَتَبَرَّمَكَ على على وغيره ، واستوثق من جانب الرئيس ما لم يَسْأَلْ به عن على ولا عن أحدٍ من خلق الله . وكان فيما قال له : « إِنَّ الذى يأخذ على أَنْتَ أَوْلَى به ؛ والرجلُ كثيرُ الأولاد والصفن ، ويذهب مالكُ إن لم تحمى وتمضنى . وهو متى تملأ ، طمع فى مُلكك ! وأنا رجلٌ ذمى لا همة لى إلاَّ خِدْمَتِكَ وَجَمْعَ الدراهم لبيت مالك ! » فوثق الرئيس بقوله ، ١٠ وقاس عليه بعقله ، ومنع منه عليًا وجميعَ الناس . ولما رأى على تأخُّره وتقدُّم اليهودى ، ندم على ما كان منه أولًا ، وفاته من الأمر ما لم يقدر معه على حيلة عند السلطان ؛ وغاظه ذلك وأكرَّبه .

وكانت مَدِينَةُ وادى آش* بِيَدِهِ ، قد قدَّم عليها أخاه عبدَ الله ؛ وكان ١٦ (١) يأكلها طعمةً ، ولا يعطى منها فوق خمسة عشر ألف دينار دَرَاهِمٍ ، وهى تُساوى أزيد من مائة ألف دينار تُلْثِيَّة . فدخل عليه اليهودى بهذه المطالبة ١٥ وقال للسلطان : « اقبض وادى آش من عنده ، ولك منى فيها أزيد من مائة ألف ! » فقال له : « لستُ أقدر على أخذها منه بهذا الوجه ؛ فتكون مفاصلةً ، وهم متصرفون فى خِدْمَتِهَا . فوجد اليهودى السبيل إلى حيلة فى نزاعها باسم سيف الدولة أينا ، وقال : « لَأُخَذَنَّ البلدة من يد عدوِّ ، فأضعها فى يد سلطان يشكرنى عليها ، ويرى لى ذلك عن تخدم ونصيحة ! » ٢٠ فقال لأبى : « إنه يلزمنى طاعتك ونصيحتك لأكون لك كالذى أنا لأبيك ؛

وأراك كثير الذُرِّيَّة ، تلزمك نفقات وتجثل الرئاسة ؛ ومن الغبن أن يكون وزراه والدك أغنى منك ! وهذه وادي آش ، بنتُ غرناطة ، لا تجمل إلا لك ، وأنا أتمررها وأجعلك تأخذ فيها مائة ألف ! « ففرح لقوله والدي — رحمه الله — ، وشكر له رأيه ، ووعدته بالزيادة في مرتبته إن صار الأمرُ إليه .

ثم مضى إلى الوالد ؛ فأخبره الخبر ، وقصَّ عليه أمرَ ابنه ؛ فقال له المظفر : « الآن وجب أخذها من أولاد القروى . » فأرسل على اللقمان في علي وقال له : « إن ابني محتاجٌ إلى المال ، وطلب مني وادي آش . ولو كنت آخذها منك ومُعطيها لقرنك ، لعزَّ عليك ! ولكن يجب لك أن تتسرع بها لابني . » فلم يكن جواب علي إلا أن قال له : « ما صلح للموتى على العبدِ حرامٌ ! » فضمها اليهوديُّ خادماً لأبي فيها ، وشرط عليه أن يعطيه رمتها في أنجم العام ؛ واتفقا على ذلك* . وصارت المودة متمكنة بين الابن ١٦ (ب) والوزير مدةً طويلةً .

٢٠ — موت الأمير بلقين مسموماً

فلما رأى وزراء الدولة وعليُّ وأخوه تمسكن اليهوديُّ عند السلطان وعند الابن ، أغاظهم ذلك وأقلقهم ، وبلغ منهم كلُّ مبلغ . وأجمع رأيهم على الدخول بينه وبين أينا . وكان أولاد عليَّ وعبد الله وزراء لسيف الدولة ونُدماء ، لا يفارقونه . فعملوا عليه من كلِّ وجه بأنفسهم ومع بنهم ، وقالوا لسيف الدولة : « إن الأموال التي ينفقها اليهوديُّ ويستأثر بها ، أنت أحقُّ بها وأولى . وقد أخمك وأخمل الدولة أجمع ! ولو أنك قتلتَه ، لم يقل لك أبوك في ذلك شيئاً ! وما عسى أن يصنع بابنه ؟ » أرادوا — الفسقة —

قَتَلَ عَدُوَّهُمْ عَلَى يَدَيِ ابْنِ الرَّئِيسِ ، لِيُخْرِجُوا أَيْدِيَهُمْ مِنَ الْمَسْأَلَةِ : فَإِنْ عَاقَبَ ،
عَاقَبَ ابْنَهُ ، إِنْ شَاءَ ، وَحَصَّلُوا عَلَى الدَّوْلَةِ دُونَ مَلَامَةٍ مِنَ السُّلْطَانِ . فَلَمْ
يَزَالُوا بِهِ أَبَدًا ، يَنْمُونُ بِالْيَهُودِيِّ ، وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِ ، وَيَعْمُضُونَ^(١) إِلَى
الْيَهُودِيِّ بِالْكَذْبِ عَلَى لِسَانِهِ ، حَتَّى تَغَيَّرَ أُبُونَا عَلَيْهِ وَتَغَيَّرَتْ لَهُ نَفْسُ
الْيَهُودِيِّ ، مَعَ قَلَّةِ تَجَارِبِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ لِمَكَايِدِ النَّاسِ . فَعَمِلَ عَلَى قَتْلِهِ ؛
وَكَانَ يَتَحَدَّثُ بِذَلِكَ ، وَيَفْشِي سِرَّهُ إِلَى الْوُزَرَاءِ الرَّافِعِينَ إِلَيْهِ ؛ فَلَا هُوَ يَعِزُّ
عَلَى قَتْلِهِ ، وَلَا هُوَ يَتَكَبَّرُ بِالْأَمْرِ ، إِلَى أَنْ صَحَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْيَهُودِيِّ ، وَاعْتَزَمَ
رَأْيَهُ عَلَى أَنْ يَسْبِقَهُ بِالْأَمْرِ ، وَرَأَى عِيَانًا تَغْيِيرَهُ عَلَيْهِ . وَكَانَ أُبُونَا ، لَمَّا هُمْ
بِقَتْلِهِ ، وَأَعَدَّ لَذَلِكَ عَيْدَهُ ، فَكَّرَ فِي سَطْوَةِ أَبِيهِ ؛ فَكَفَّ .

- ١٠ وَكَانَ لِسَيْفِ الدَّوْلَةِ أَخٌ صَغِيرٌ اسْمُهُ مَاكَسَنُ ، عُثِمَا الشَّهِيدُ فِي وَقِيعَةِ
بَطْلَيْوُسَ . فَعَمِلَ الْخُزَيْرِ رَأْيَهُ مَعَ مَشِيخَةِ الْيَهُودِ ، * وَأَخْبَرَهُمْ بِتَغْيِيرِ سَيْفِ ١٧
الدَّوْلَةِ عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ أَحَدُهُمْ وَأَدَهَاهُمْ رَأْيًا : « لَا تَطْمَعُ فِي الْفَلَاحِ بَعْدَ
الشَّيْخِ ، وَلَا فِي سَيْفِ الدَّوْلَةِ ! وَلَكِنْ انْظُرْ لِنَفْسِكَ فَيَمُنْ تُقِيمُ إِنْ مَاتَ
رَبِّيسُكَ : أَوْجَدْتَهُ ؟ وَتَحْيَلْ فِي مَتْنِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ . وَهَذَا مَا كَسَنُ أَخُوهُ
١٥ مَحْمُولٌ ؛ فَإِنْ قَتَلْتَ أَنْتَ هَذَا ، وَوَلَّيْتَ هَذَا ، قَدَّمْتَ عِنْدَهُ يَدًا لَا يَنْسَاكَ عَلَيْهَا ! »
فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ سَعْيَهُ . وَكَانَ مَتَمَكِّنًا بِذَلِكَ ، لِأَنَّ أَبَانَا كَانَ كَثِيرَ
الشَّرْبِ مَعَهُ وَالتَّكْرَارِ عَلَيْهِ فِي مَنْزِلِهِ . فَشَرِبَ يَوْمًا عِنْدَهُ عَلَى عَادَتِهِ ؛ فَلَمْ
يَخْرُجْ عَنْهُ حَتَّى قَذَفَ مَا كَانَ فِي جَوْفِهِ ، وَاسْتَلْقَى عَلَى الْأَرْضِ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ
الْمَشْيَ إِلَى مَنْزِلِهِ إِلَّا عَنْ مَشَقَّةٍ ؛ وَلَبِثَ يَوْمَيْنِ يَجُودُ بِنَفْسِهِ ، حَتَّى مَاتَ —
٢٠ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ .

(١) أصل : « ويمضوا » .

ولقد سمعتُ كبيراً من خِصيان ياديس يقول : « أُرْسِلَ في سَيْفِ الدولة يوماً وقال لي : « انهضْ إلى أُمَمَاتِي وَقُلْ لَهُنَّ ^(١) إِنِّي اعْتَزَمْتُ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . » يقول الْخَصِيُّ : « قُلْتُ لَهُ : « أَنَا لَا أَمْضِي بِهَذِهِ الرِّسَالَةَ ! فَإِنَّ الْخَبَرَ لَا تَحَالَةَ عِنْدَهُ ! لَوْ أَنَّكَ تَرِيدُ قَتْلَهُ ، مَا كَانَ يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُسَمِّعَنِي ذَلِكَ وَلَا أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللَّهِ ! » فَعَلْتُ أَنْ حَالَهُ تَوَوَّلُ إِلَى مِثْلِ ذَلِكَ . »

ومما أظن على الفساد قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ أَبَاكَ كَانَ مَعَ أُمَمَاتِهِ ، اللَّائِي رَبَّيْنِ وَلَدَهُ الْمُعِزَّ أَخَانَا ، عَلَى ضِدِّهِ مِنَ الْأَمْنِ ، لِإِفْرَاقِهِنَّ لِلْمَالِ عَلَى ابْنِهِ طِفْلاً صَغِيراً وَمَنْعِهِ هُوَ مِنْهُ . فَاحْتَاجَ إِلَى الْيَهُودِيِّ عَنِ الْمَالِ . وَكَانَ أُمَمَاتُهُ يُطَالِبُونَهُ وَيَمْنَعُونَهُ عَنْ حَبَّةِ الْيَهُودِيِّ ، حَتَّى شَعَرَا بِذَلِكَ ؛ وَاتَّفَقَ رَأْيُهُمَا عَلَى مُطَالَبَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الرَّئِيسِ ، وَتَجَرِيعِهِنَّ بِسُرْقَةِ الْمَالِ وَإِرسَالِهِ إِلَى الْبِلَادِ . فَلَمَّا وَقَفَ جَدُّنَا عَلَى الْمَقَالَةِ ، وَقَدْ وَقَعَتِ الْمَفَاسِدَةُ بَيْنَهُنَّ وَبَيْنَ ابْنَيْهِنَّ ، صَارَ مَلُومًا* مِنَ الْأَبِّ وَالنِّسَاءِ . وَتَحَيَّلَ النِّسَاءُ عَلَى أَنْ يَرَّأْنَ ^(٢) أَنْفُسَهُنَّ مَمَّا قُذِفْنَ ^(ب) ١٧ بِهِ ؛ وَدَعَتِ الضَّرُورَةُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ أَنْ يَتَصَالَحَ مَعَ النِّسَاءِ لِرُجُوعِ أَيْهِ مَعَهُنَّ ؛ وَرُدَّتِ الْقِصَّةُ فِي رَأْسِ الْيَهُودِيِّ . فَكَانَ ذَلِكَ مِمَّا زَادَهُ غَائِلَةً ١٥ وَفُورًا ، وَجَرَى عَلَى يَدَيْهِ مَا قَدَّرَ اللَّهُ بِهِ لِتَمَامِ الْمُدَّةِ .

وَكَانَ فِي أَوَّلِ الْمَفَاسِدَةِ قَدْ احْتَبَسَ لَهُ بِكَثِيرٍ مِنْ جَبَايَةِ وَادِي آش ؛ وَشَكََا بِهِ سَيْفُ الدَّوْلَةِ لِأَيْهِ . فَتَحَيَّلَ الْخَنْزِيرُ عَلَى أَنْ دَعَا أَبَاكَ إِلَى مَنْزِلِهِ لِشَرَابٍ ، حَتَّى سَكَرَ ؛ وَأَمَرَ بِمُخْرُوجِ بَنِيهِ وَعِيَالِهِ فِي ثِيَابِ الْحُزْنِ . فَهَالَ ٢٠ ذَلِكَ أَبَاكَ لِمَا رَأَى مِنْ حَالِهِمْ وَبُكَائِهِمْ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ : « هَلْ مَاتَ عِنْدَكَ

(١) أصل : « لَمْ » . (٢) أصل : « بَرِينَ » .

أَحَدٌ ؟ » فقال له : « مات عندى مالٌ كبيرٌ لا يمتسك عنك إلا بمِطْلٍ الرعيّة ! وهذا يومٌ طيّبٌ : فَأَنْسِ أَهْلِي بِكِتَابِ بَرَاءَةٍ تَبْرِئُنِي بِهَا إِلَى أَنْ يَرِدَكَ مَالُكَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ وَجَسَتْ نَفُوسُهُمْ وَفَزَعُوا . فَأَتَيْمُ إِحْسَانَكَ بِكِتَابِ الْبَرَاءَةِ ! » فَافْتَرَصَهُ فِيهَا ، وَكَتَبَهَا ؛ ثُمَّ ذَهَبَ بِهَا إِلَى أَبِيهِ وَقَالَ لَهُ : « إِنَّمَا يَنْفِقُ مَالَهُ عَلَى الْوُزَرَاءِ وَالشَّرَابِ الْمُدْمِنِ ! وَهَذَا إِبْرَؤُهُ لِي : فَأَيْنَ شَكْوَاهُ ؟ » فَرَجَعَ مَلُومًا مِنَ الْأَبِ زَائِدًا ، وَصَارَ فِي خُسَارَةٍ مَعَ الْوَزِيرِ وَالنِّسَاءِ ، لِمَا أَرَادَ اللَّهُ مِنْ تَمَامِ الْمُدَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُهُ بِجَمِيلِ نَيْتِهِ وَصَفَاءِ مَذْهَبِهِ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ !

٢١ — ما بلغ ابن نَعْرَائَةَ مِنَ الْمَكَانِ الْأَرْفَعِ

- ١٠ فلما تَوَفَّى أَبُوْنَا ، وَكَانَتْ مِنْ أَكْبَرِ الرِّزَايَا لِلنَّاسِ ، لِمَا كَانُوا يَرْجُونَهُ مِنَ الْعَدْلِ عَلَى يَدَيْهِ ، هَاجَ النَّاسُ بِأَمْرِهِ ، وَهَمُّوا بِقَتْلِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَتْ تِلْكَ مَقَدِّمَاتٌ لِهَلَاكِهِ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مَعَاقِبَةَ الرَّئِيسِ . وَزَادَ فِي طَلَبِهِ لِأَوْلَادِ الْقَرَوِيِّ ، وَصَوَّرَ عِنْدَ الْمُظَفَّرِ أَنَّ بَنِيهِ زَيَّنُوا لَابْنَهُ الْإِمَامَانَ عَلَى الْخُرْحَتِيِّ هَلَكًا . وَأَدْرَكَتْ لِتِلْكَ أَوْلَادَ الْقَرَوِيِّ مَنَحَسَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ نَفْيِهِمْ عَنِ أَوْطَانِهِمْ ، وَأَخْذِ أَمْوَالِهِمْ ، وَقَتْلِ بَعْضِ الْوُزَرَاءِ* الَّذِينَ كَانُوا ١٨ (١).
- ١٥ حَوَالِي أَيْنَا لِمَا اتُّهِمُوا بِهِ ؛ وَجَانِي الْقَضِيَّةِ لَا يُؤَبِّهَ لَهُ . وَتَبَرَّكَ الْيَهُودِيُّ بَعْدَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَسَعَى فِي إِقَامَةِ مَا كُنَّ عُمَّا .
- وَكَبُرَتْ عِنْدَ ذَلِكَ سَنٌ جَدُّنَا ، وَأَخْلَدَ إِلَى الرَّاحَةِ ، وَزَهَدَ فِي طَلَبِ الْبِلَادِ لِكِبَرِ سَنِهِ وَمَوْتَ ابْنِهِ ، وَأَلْقَى بِمَقَالِيدِهِ إِلَى الْيَهُودِيِّ فِي الْخِدْمَةِ عَنْهُ ؛
- ٢٠ فَتَمَكَّنَ بِمَا شَاءَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ .

٢٢ - امتيلاء باديس على مالقة

وإِنَّمَا كَانَ طَلَبُ جَدِّنَا أَكْثَرَهُ وَسَعْيُهُ عَلَى اخْذِ مَالَقَةِ ؛ فَإِنَّهُ ، مَتَى كَانَ يَأْخُذُ شَيْئًا مِنْ مَعَاوِلِ الْأَنْدَلُسِ ، يَبْلُغُهُ مِنَ الْمُعِزِّ بْنِ بَادِيسٍ أَنَّهُ يَقُولُ : « يَخَاطِبُنِي صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ بِأَخْذِ الْكُورِ وَالْقُرَى ! أَمَّا أَنَّهُ لَوْ أَخَذَ مِثْلَ قُرْطُبَةَ وَمَالَقَةَ وَمَا أَشْبَهَهُمَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، كُنَّا نَبَايِعُ لَهُ فِي ذَلِكَ ! » ٥
فَجَعَلَهُ كَلَامُهُ يَجِدُّ فِي خَيْرِ مَالَقَةِ ، وَلِلَّذِي كَانَ يَرَى مِنْ انْدِبَارِ سُلَاطِينِهَا ، وَتَوَقُّعِهِ عَلَى أَنْ يَأْخُذَ الْبَلَدَ مَنْ يَدْخُلُ عَلَيْهِ السَّخِطَةُ مِنْهَا . فَلَمْ يَزَلْ يَمَاقِدُهَا سِنِينَ^(١) بِلَا سَامَةِ وَلَا فِتْرَةٍ ، حَتَّى حَصَلَ عَلَيْهَا .

وَبَنَى قَصَبَتَهَا بِنْيَانًا لَمْ يَقْدِرْ عَلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ فِي زَمَانِهِ ، وَأَعَدَّهَا عُدَّةً لِلْمِهْمَاتِ ، وَجَعَلَ فِيهَا جَمِيعَ مَا وَرِثَ لَابْنُهُ ، وَزَادَ عَلَيْهِ ؛ وَكَانَ الَّذِي يَتَوَقَّعُ ١٠ مِنْ كَلْبِ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ وَاتِّفَاقِهِمْ عَلَيْهِ لَنَاقِ أَنْ يَتَحَصَّنَ فِيهَا مَا اسْتَطَاعَ ، وَإِلَّا ، فَيَجُوزُ مِنْهَا إِلَى عِدْوَةِ بَنِي عَمِّهِ بِأَهْلِهِ وَذَخَائِرِهِ وَمُذْ أَخَذَهَا ، حُلَّ عَنْ نَفْسِهِ .

وَنَازَعَهُ عَلَيْهَا ابْنُ عَبَّادٍ ، وَأَطَاعَهُ أَهْلُهَا دُونَ الْقَصَبَةِ ؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهَا ١٥ عَسَاكِرَهُ ، وَهَزَمَهُ عَلَيْهَا . وَرَجَعَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ الْيَأْسِ مِنْهَا . وَلَمْ يُبْلَقِ سُلْطَانٌ عَلَى مَدِينَةٍ مَالِاقِيٍّ هُوَ عَلَى مَالَقَةِ مِنْ طُولِ الْفِتَنِ وَنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ . فَلَمَّا بَلَغَ مِنْهَا النِّهَايَةَ مِنْ آمَالِهِ ، حُلَّ عَلَى نَفْسِهِ ، وَتَمَتَّعَ بِمُلْكِهِ . وَمِنْ ذَلِكَ دَخَلَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاخِلُ بِاسْتِنَامَتِهِ إِلَى الْوُزَرَاءِ وَوِلَاةِ الْبِلَادِ ، عَلَى حَسَبِ مَا تُقْصَى بَعْدَ هَذَا .

(١) أصل : « سِنِينَ » .

ولولا ما كان غَرَضُنَا وَصَفَ دولتنا خاصَّةً ، لَدَكَّرْنَا لَمَعًا من دَوْلِ بنى
 كُحُودٍ فى مَالَقَةٍ ، واختلالِ أَمْرِهِم * وَاحِدًا بعد واحد ، حتى تصيرَ الأُمُرُ إلى جدِّنا ١٨ (ب)
 — رحمه الله — ؛ لكن تقتصر على ذِكْرٍ ما نحتاج إلى إِرَادِهِ إن شاء الله .
 قَهْدَنَتِ الحال ، وتأتَّتِ السعادات ، وامتَلأتْ بيوتُ الأموالِ سِينِينَ^(١)
 ٥ لا يُسمع فيها يَغْتَنَّة ، ولا يُرى معها تشغيِبٌ ، إلى أن اختَلَّتِ الأحوال
 بعد ذلك بما كان من نفاق اليهودى — لعنه الله — ، وتَضَيَّرِ وادى آش
 وجميع أنظارها لابن صُمَادِح ، واستنْسَادِ الرؤساء على البلاد ، حتَّى إمَّته
 لم يَبْقَ لنا أكثر من غرناطة والمَنْكَبِ وباغُهُ وقَبْرَةٍ . ولما شاع عند
 الرعايا خبر موت الرئيس الأَجَلِّ — فَإِنَّهُ كان مُحتَجِبًا أَبَدًا — خَلَّتِ المعاقِلُ
 ١٠ من الرجال ، وافترضَتِ الرعايا بأسبابٍ نَحْنُ نَذْكُرُهَا^(٢) إن شاء الله بعد هذا .

٢٣ — علاقات باديس بنى صُمَادِحِ أَصْحَابِ المَرِيَّةِ

والأَوَّلَى أن نَقْدُمَ وَصَفَ ولايةِ ابنِ صُمَادِحِ للمَرِيَّةِ ، وعَضَدَ جدُّنا —
 رحمه الله — لِرِياسَتِهِ ، وإِثباتَهُ له فى مُلكِهِ عند قيام ابنِ أَبِي عامِرٍ عليه ،
 طالبًا له خِلافَهُ عليه ، وأَيادى كَرِيمَةٍ سَلَفَتْ من المَظْفَرِ قبلَهُ ، لم يَسْبِقْهُ
 ١٥ إليها أَحَدٌ من جَنسِهِ ، ولم تكن مكافأَتُهُ على ذلك إِلَّا أن افترض بلادَهُ
 وَقَبِلَ دواخِلَ إلى الإِفْرَنْجِ ، يَعمِدُهم بِالمالِ الكثير . وأجابهُ مُجَاهِدٌ لِمَا
 أشار به عليه ؛ وعملت الكلمةُ فى نَفْسِهِ ؛ فلما هَمَّ ابنُ أَبِي عامِرٍ بالرجوع
 عن لُرُقَةٍ يُريدُ المَرِيَّةَ ، تأخَّرَ عنه مُجَاهِدٌ ، وتَيَنَّنَ لِلنَّصُورِ قعودَهُ عنه
 وخِذلانَهُ إِيَّاهُ ؛ وسألهُ عن ذلك . فقال مُجَاهِدٌ مُخاطِبًا له ولأعلامِ قَوَّادِهِ :

(٢) أصل : « ذاكِها » .

(١) أصل : « سِينيًا » .

« يا قوم ، إن كنتم لا تعرفون البرّ ، ولا جرّبتُم حُرُوبَهُمْ ، فأنا ، والله ، أعلمُ بها أفليّاكم أن يكون بَوارُكم على أيديهم . وأنتم [ستعلمون] أنّ فِتنةَ عشرين سنةَ خيرٌ من مُلافاةِ ساعةٍ واحدةٍ ؛ فإنّ فيها تلفُ الدُّولِ ، ويتقلُّ المُلُكُ ، ويستأصلُ الجمعُ . فليكنم بالتأني ! » فقال له ابن أبي عامر : « جُبُنتَ ! ارجِعْ إلى دانيّةِ ولا تفسدْ على الجيش ! » فأقلع على اللّقام مفضباً من قذفه .

وجزع الناس بزوال مُجاهِدٍ عنهم ؛ وأدرك* الإفرنج الطمعُ ، وطلبوا ١٩ (١) منه ما لا قدرة له به . وانصرف خاسئاً .

وجمع المظفرُ رجاله وقال لهم : « كيف ترون هزيمةَ هذا التسكر من غير قتال ؟ » فأجابوه أن : « قد وُقِّتَ ! وأنتم ، متعشّرَ الملوك ، لم تُعطُوا الولايةَ على الناس حتى اختاركم اللهُ لها ، وجعل عقولكم أجَلَّ وأنقى من عقول الناس ؛ وبذلك فضّلتم من دونكم ! » ورجع المظفرُ غالباً منصوراً . وصار أبو الأخوص [بن صُمادِح] طاعةً له ؛ لا يروم شيئاً من كلِّ ما بالتريةِ إلّا وصار إليه ، ولا يأمر فيها بأمرٍ إلّا وكان مِلْكاً يَدِيَهُ . وبقى الأمرُ على ذلك سنين . ١٥

وكانت قُرطُبة في ذلك الزمان بمنزلةِ المَريّةِ ، إذ كان فيها ابنُ السَّقاء ، لا يمتنع على المظفر من رغبته فيها شيء ؛ إلى أن توفّي أبو الأخوص ، وترك ابنه هذا التوفّي بالمريّة — رحمه الله — عند ظهور الرابطين عليها ، وهو إذ ذاك صغير السن . فأرسل إلى المظفر يرغب إليه أن يكون له في العضد والحماية بالمنزلة التي كان عليها لأبيه ، وأنه أحسنُ طاعةً وأشدُّ اهتِداداً من أبيه ؛ وسأله تجديد العهد معه والاجتماع به . فأجابه المظفر إلى كلِّ

ما سأل ، ووعدَه بالذِّبِّ عنه على أتمِّ ما كان عليه لأبيه ، واجتمع به .
وجدد معه عقدًا . وثبتتْ رياسته ، وقرَّرَ حاله قراره ، ودأبًا على ذلك
دَهْرًا طويلاً ، لا يُسمع فيها بفتنة ، ولا يكابد معها تشييبٌ .

- وكان في ذلك [الوقت] خدامٌ دَوَّلَتَا مُتَّفِقِينَ مع اليهوديِّ ، إذ
- ٥ كان وزيرُ السلطان وصاحبُ سرِّه : فمنهم صَنِيعَةٌ له قد استغنى معه ،
ومنهم عدُوٌّ له ، مُؤازِرٌ في الظاهرِ استدفاعاً لشرِّه . فَاتَّسَقَتِ الأمورُ بذلك ،
وأعان بعضهم بعضاً على خدمة السلطان ، وأنسوا إلى ثِقَتِهِ بهم وعَضِدِ
بعضهم لبعض . ولما تهيأت له الأمور ، وتوطأت الدولة ، بعد كلِّ ما ذكرنا
من تلك الفتن ^(١) وغيرها ، وحصل على مدينة مالقة بعد المكابدة واليأس * ١٩ (.
- ١٠ منها ، حلَّ عن نفسه ، ومال إلى الراحة التي يستريح إليها للوك ،
وفوض أمرَه إلى الوزير والخدمة .

٢٤ — وصول النَّايَةِ إلى غرناطة .

حظوته ومنافسته لليهوديِّ

- وفي أَمَكْنٍ ما كانت الدولة وأبهجها ، قصده النَّايَةُ ، عبدُ كان للمُعْتَصِدِ
- ١٥ ابن عباد — رحمه الله — ؛ وكان من جملة من اتَّفَقَ على غدره مع ابنه
للشهورِ خَبْرُهُ ؛ فَأَتَى الْقَدْرَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَنْهُ بِحَيْصٌ . واعتنى به جماعةٌ
من كبار العبيد ، وطلبوا له من السلطان العطايا ؛ فأجابهم إلى ذلك تَعَمُّناً
لسرورهم ^(٢) ، كَتَبَ يَزِيدُوا فِي خِدْمَتِهِ وَنُصِيحَتِهِ ؛ وقالوا له : « قَصَدَكَ هذا
الإنسان عن مفاسدةٍ لغيرِكَ وتحويلٍ عليك ؛ وقد أَمْلَكَ ؛ فما تصنع فيه

(١) أصل : « العتو » . (٢) أصل : « لسانم » .

إِنَّمَا تُسَدِّدُهُ إِلَيْنَا . » ودخل غرناطة في أَسْعَدِ وقت له ، وأَشْغَبِهِ على الدولة . وسار في أوَّل أمره مع الخِدْمَةِ بأَجَل سيرة وتواضَعُ لهم ، حتى حُدُوا طريقته ، ونفعوه عند السلطان ، إلى أن استعمله في بعض خِدْمَتِهِ وصَرَّفَهُ في ولاية بعض عسكره . وكان لَطَلَبِهِ النَّارُ من بنى عَبَّاد ، قد اِكْتَفَى في فِتْنَةِ مَالَّةٍ واستمال أقواماً من الجُنْدِ ؛ وكان فيها مُتَصَرِّفاً بين يَدَيِ مُقَاتِلِ بْنِ يَحْيَى قَائِدِهَا . ولم يزل مُقَاتِلُ المَذْكُورُ ، متى خَرَجَتْ مُغِيرَةٌ إلى بَلَدِ ابْنِ عَبَّاد ، يُعَلِّمُ الْمُظَفَّرَ بِكفاية الناية المذكور فيها ، حتى كاد يجعل له الحسن كَلَّه ، إلى أن ورده كتابُ السلطان مشتركاً بينهما ، وصار قائداً معه في البلدة . وزاد جِدُّهُ ، ونَمَا خَبَرُهُ ، وتَضَاعَفَ إِحْسَانُ الْمُظَفَّرِ إِلَيْهِ . وكان ، متى ما أتى مَالَّةً ، نزل السلطان في داره ، وشرب معه ، مع تنويبه به والتزيد له من ذلك مع الأيام .

- وكان ، مع تقريب السلطان له مَتَى انْقَرَدَ به أو افْتَرَصَهُ على الخمر ، يَجْرَحُ عنده اليهودي ، ويقول له : « قَدْ أَكَلَ مَالَكَ ، وَتَمَلَّكَ بِأَعْظَمِ مِنْ مَالِكَ ، وَبَنَى خَيْرًا مِنْ قَصْرِكَ ! فَاللهُ اللهُ في إِزَاحَتِهِ والتَّجُوبِ إلى المسلمين بِفَقْدِهِ ! » والمُظَفَّرُ في هذا كُلِّهِ يَعِدُّهُ ويقول له : « لَا بُدَّ لِي مِنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْكُلُكَ * على قَتْلِهِ ! » قَرُبَمَا لَفْظَ بِذَلِكَ بِسَمْعٍ مِنْ لَا يُؤْبَهُ (٢٠) (١) له من صبيده والمُتَصَرِّفِينَ بين يديه ؛ فينقلون ذلك على المقام إلى اليهودي لِيَصِلَهُمْ عَلَيْهَا . فلا تزداد نفسُ الْخَنَزِيرِ إِلَّا حِمَاقَةً وَمُنَافَرَةً ، وَيَكَادُ أَنْ يَمُوتَ هُمَا وَحَقًّا ، مع حسده له على اللزلة التي خُصَّ بها دُونَهُ ؛ ورام مطالبته عند السلطان بكلِّ مرام ؛ فلم يقبل منه . فلما رأى أَنَّ منزلته لَا تزداد إِلَّا تَرْفِيعًا ، وخاف على نفسه أن يحمل السلطان على هلكته ،

انقطع رجاؤه من كلِّ وجهٍ وقال : « إِنَّمَا اسْتَهْزَأُونَا بِالنَّاسِ مِنْ أَجْلِ عِزِّ
السلطان ! وَأَمِنَّاكُمْ عَلَى أَنْفُسِنَا بِجَمَاعَتِهِ وَعِثَانِهِ . وَأَمَّا الْآنَ ، قَدْ انْقَطَعَ
الرجاء : لَا سُلْطَانَ نَأْمَنُهُ ^(١) ، وَفَرِينَ سُوءِ يَطْلُبُنَا عِنْدَهُ ، وَعَامَّةٌ تَرِيدُ
هَلَاكَنَا ، وَنَحْنُ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ! »

٢٥ — إجلاء الأمير ماكسن بن باديس

وكان [اليهوديُّ] قد ألقى يَدَهُ فِي عِمْنَا مَّاكْسَنَ ، رَجَاءً مِنْهُ أَنْ
يُسَدِّدَهُ وَيَأْمُرَهُ بِالْمُدَارَاةِ ، إِلَى أَنْ قَالَ لَهُ مُوَاجَهَةً : « أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا
قَتَلْتَ أَخِي ؟ » فَعَمَلَتْ فِي نَفْسِ الْيَهُودِيِّ . وَكَانَ مَّاكْسَنَ مَعَ هَذَا كُفَّةً
سَيِّئِ الطَّرِيقَةِ ، قَلِيلَ الْبِرِّ ، خَشِنَ الْكَلَامِ ، يَمِدُّ النَّاسَ بِالشَّرِّ ، حَتَّى
كَرِهَهُ أَهْلُ دَوْلَةِ أَبِيهِ وَأَبْغَضُوهُ . وَكَثُرَ عَلَيْهِ الطَّلَبُ عِنْدَ أَبِيهِ .

وَكَانَتْ أُمُّهُ تَتْرُكُ مَعَامَلَةَ الْوَزِيرِ الَّذِي أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ ، وَتَمِيلُ إِلَى خَالِهِ :
يَهُودِيٍّ يُعْرَفُ بِأَبِي الرِّبِيعِ بْنِ الْمَاطُونِيِّ ، وَكَانَ قَابِضَ الْوَجِيئَةِ ؛ فَتَخَاطَبُهُ
أَبَدًا ، وَتَطْلُبُ مِنْهُ مَالًا بِاسْمِ السَّلَفِ . فَغَارَ الْوَزِيرُ لَذَلِكَ ، وَعَمِلَ عَلَى طَلْبِهِ
وَطَلَبِ أُمِّهِ وَحَاشِيَتِهِ ، وَافْتَرَى عَلَيْهِمْ عِنْدَ السُّلْطَانِ . وَشَهِدَ لَهُ عَلَى ذَلِكَ
جَمَاعَةٌ مِنَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ ، فَمَنْ تَعَمَّقُوا عَلَى مَّاكْسَنَ قَبْلَ ذَلِكَ مَا قَدَّمْنَا
ذِكْرَهُ . وَأَغْرَى بِهِمْ حَتَّى جَعَلَتْهُ الْأَثَنَةُ مِنْ مَكْرِهِ مَا نُقِلَ إِلَيْهِ أَنْ يَأْمُرَ
بِقَتْلِ أُمِّهِ وَدَايَاتِهِ وَبَعْضٍ مِنْ اتَّمَى . وَقَتَلَ الْوَزِيرُ خَالَهُ غَدْرًا* فِي مَنْزِلِهِ ٢٠ (د)
عَلَى الشَّرَابِ خِلَافِهِ عَلَيْهِ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ ؛ وَاتَّقَى مِنْهُ نَصِيحَةَ السُّلْطَانِ ،

(١) أصل : « نَأْمَنُهُ » .

وأعطاه على ذلك مالا جسيما ، لئلا يثرب عليه قتله . فقبل السلطان ذلك منه ، وودَّ أن لو قَتَلَ كلَّ يومٍ يهوديًا ، فَيُغَرِّمَ عليه مالا .
 ثمَّ أمر بعد ذلك بَنَى وَلَدِهِ . وكان من آكِدِ الأسباب في نَفْيِهِ أن خرج السلطان يوما لعرَض الأجناد ، وقتَ الفِتْنَةِ مع ابن صُمَادِح ؛ فالتدب إليه من شيوخهم من قال له : « ما ينبغي لك أن تُقَدِّمَ علينا العبيد وغيرهم ، وتترك مثل هذا الابن ! أرسله معنا ، وتبَّعه في كلِّ مُلْكَةٍ ! »
 يعني ما كَسَن . فعزَّ ذلك على أبيه ، مع سَخَطِهِ عليه لِمَا كان يَرَى منه وقيل إليه عنه ، وخاف أن يكون وراء هذا الكلام فلٌ بأن يخلوه ويقدموا ابنه . وجرع اليهوديُّ لذلك جزعا شديداً وقال : « ما حسبتُ نفسي في ذلك اليوم إلا مقتولا ! » فأَعْلَمَ السلطان بهذه الوجوه ؛ وأمر على المقام بنَفْيِهِ عن البلدِ ، ووجهه معه من عبيده من يُجْرِجُه عن نظره كُلِّهِ . ووصَّى اليهوديُّ — لعنه الله — ذلك ^(١) العبد أن يَصِلَ معه إلى موضع سمَّاهُ بِمَيْثُ يَنْفِي أَمْرُهُ ، فيضرب فيه عنقه .

وكان أخونا المَعِزُّ قد ربَّاه جَدُّهُ ، ونال معه الكرامات ، وأَحْبَبُوهُ في حُرْمَةِ أبيه . واتفق رأىُ الجميع مع اليهوديِّ على قَتْلِ ما كَسَن وتولية المَعِزِّ ، حذرا على أنفسهم من ما كَسَن أن يثور عليهم ويماقبهم بِمَحَبَّتِهِمْ في [ابن] أخيه وترَبَّيتِهِمْ له . فكان من ذلك ما أَمْلَوْهُ .
 وخرج عَمَّنَا على أسوأ حال ، مذعورا ، خائفا ، بَعْضُهُمْ يُشِيرُ بِقَتْلِهِ ، وبَعْضُهُمْ يَأْتِي إِلَّا إِزَاحَتَهُ عَنِ النَّظَرِ كُلِّهِ ، حتَّى صار يبعض الطريق .
 ٢. وانحلَّ عن عُمومِهِ بهلاك اليهوديِّ ، على ما نذكره بعد هذا .

(١) أصل : « لذلك » .

الفصل الرابع

إمارة باديس بن حبّوس

(٢) من موت ابن نَعْرَالَة إلى نهايتها

٢٦ — مؤامرة الوزير اليهودي ابن نَعْرَالَة

ثورة صنهاجة عليه وقتله

وإنّ الخنزيرَ — لعنه الله — لما رأى طغيان النساء ، وكلّ فرقة منهنّ
تريد ولاية من تربيته من أبناء السلطان ، ورأى تغير مولاة* عليه وإيمان ١٢١
الناية في مطالبته والازدياد في جاهه ، لم يجد في الأرض مهزباً ، ولا
وجد إلى التخلص سبيلاً ، وشاور في ذلك مشيخته من ذوي الرأي ؛ فقال
بعضهم : « انج بنفسك ، وقدم جُلّ مالك إلى أيّ البلاد أحببت ،
تستوطنها غنياً أمناً » فقال : « ذلك ممكّنٌ لولا أنّ الرئيس الأجلّ ، إن
أرسل فيّ إلى صاحب تلك الجهة ، يقول : « ذهب وزيرى بأموالى : إمّا أن
تصرفه علىّ ، وإمّا أن أفاتنك ! » أترى أنه يبيع الرئيس عني ؟ هذا
١٠ ما لا يجوز إلّا أن أصيرّ إليه من البلاد بحيث تقع الفتنة بينهما ، ونأمن
على نفسى عند الذى نصير إليه ولا يمكنه إسلامى . وأنا قد وضعتُ في

يده بلادًا ومجدًا كبيرًا ! » فأتق رأيتهم على مخاطبة ابن صمادح ، وأنه الأول لجيرته وقربه من كل أمر يحتاج إليه فيه .

وأخبرني رسول ابن صمادح ابن أرقم ، وكان قد تخيروه للرسالة ^(١) حينئذ ، قال : حضرت يومًا مع المظفر — رحمه الله — وقد خرج إلى بعض متنزّهاته والناية معه ، واليهودي وراءه ، حتى بصر الناية بحكيم كان للوزير ، يهودي ؛ فأمر ياهاته وإرجاله عن دابته بحضرة الرئيس ، وتوقّع في ذلك ، وأبلغ في شتم اليهودي ؛ فاستعظم اليهودي ذلك وقال لابن أرقم : « حسبك هذه الإهانة ، ولا صبر عليها ! فإن كنتم تستطيعون لي على شيء ، وإلا فلا بد من الترامى على غيركم ! » فقال له ابن أرقم : « أنت جديرٌ بالتثبت في هذا الأمر ! وأنى ضرورة دفعتك إلينا وببديك الرعايا ، وإليك تُجبي الأموال ؟ والسلطان لم يغيّر عليك شيئًا أكثر من هزات هذا المطالب ! فاحتل بأن تُصايرَ الأمور إلى أن يموت الشيخ ، لاسيما أنه قد أسنّ ؛ وتلقى يدك في حفيده المعزّ ، وتبقى حالك معه حسب ما كانت مع جدّه ؛ وهو أقرب إلى السلامة ! » فقال له اليهودي : « كنتُ أفعلُ ذلك لولا أن المعزّ صغيرُ

السنّ * ، وله أمّهات وطبقات جمّة من النساء والهاشية . فكيف نرجو منهم ٢١ (ب) الفلاح ؟ والحال إذ ذاك تكون على أشدّ لاختلاف أهوائهم . وقد صحّ عندي أن الصبي يحقد على ما قاله الناس من سقّ أبيه . وقد أدّرت هذه الوجوه ؛ فلم يتّجه لي منها أمثل من الترامى على المعتصم ! » فقال ابن أرقم : « دخلت على المظفر ، وألقيت إليه من الكلام رُموزًا ، وقلت له : « أيدك الله ! تيقظ ! فإنك لم تظعن في السنّ ، ولا بلغت فيه مبلغًا يولد عليك النغلة

عن دَوْلَتِكَ ! » رجاء مئى أن يَسْتَفْهِمَتْنى عن الكلام وأَقْصَّ عليه بَعْضَهُ .
 فلما اليهودىَّ وقال له : « انهضْ إلى ابن أَرْقَمَ وقلْ له : « لَأىُّ وجهٍ
 قال لى الآن : تَبَقَّظْ ! » واستَفْهِمَهُ عن ذلك ! » فجاءنى اليهودىُّ وأخبرنى
 بالفضيَّة . فدهشتُ لها ومِتُّ ، ولم أجِدْ جواباً . فاتَّهَمَنِ الخنزيرُ ، وخاطب
 ٥ بأمرى المعتصم وأشار عليه أن يُعِدَّنِى عن الرسالة ويوجَّه فيها من يثقه ؛ فسفر
 فيها رَضِيْعَهُ وأمرَه بنسج الأمر معه ، وكيف الحيلةُ فى نصير الدولة إليه ،
 وغرناطة معدن الجيش ، وفيها من صِنهاجة من لا يجوز هذا الأمر عليهم ؟ وقال
 له : « لا تُدْخِلْ نَفْسَكَ وَلِلْعَتَمِمْ فيما لا يَمُوتُ وَتَفْتَضِحُ فيه مع المظفر ،
 وهو صاحب الأموال والقدرة على الفتنة ! وتخرى معه ، وتكون سبيك إلى
 ١٠ هلاك نفسك والفساد عليه ! » قرأى الخنزير من رأيه أن يُخْرِجَ من البلاد
 كلَّ من يتوقَّع قيامه .

وتخيَّرَ من كبار صِنهاجة وغيرهم من العبيد ، الذين يخشى معرفتهم ،
 أقواماً ، وأشار على السلطان بإرسالهم إلى المعاقِلِ الأهمَّةِ ، وصَكَّكَ لهم بها ،
 وقال لهم فى سرِّ الأمر : « أنتم إخوانى ، وقد أُخْلِيتُم معى ، ورأيتُمونى !
 ١٥ وأرى من دولة هذا السلطان ما ينبغى لكم إنكاره بأن يقدم عليكم من
 ليس منكم ولا شأنه شأنكم ، وتبقى ولايته عاراً عليكم وشناراً ما بقى الدهرُ ؛
 وقد * نصحت السلطان فى أمره ؛ فلم يقبل مئى ، ولا يُقدِر على مُضادَّته ؛ ٢٢)
 والآن أتوقَّع على هذه البلاد الشريفة والمعاقِلِ الفارهة أن يليها من قِبَلِ الناية
 مَنْ يشقى به الجميعُ ، ولا تقدر معهم على إمساك النولة ، وتكون لهم الصولة
 ٢٠ علينا ، ثم لا مَهْرَبَ إلَّا إلى يديه ، فإذا أَمْسَكْنَا معاقِلَنَا وكان بنو عمِّكم
 بالحضرة ، يتجسَّروا على تبديدكم ، وكان أمره بعد ذلك هيناً ، متى أراد التغيير ،

قتلناه ، ومتى ما سخط السلطانُ على أحدنا وأمر بتنفيه على يديه ، لَجَأَ إلى مَعْقِلِ صاحبه .»

فقبل القومُ قَوْلَه ، مع شَرِهِم إلى ولاية البلاد ، وبادروا إلى ذلك .
فأخرج يحيى بن يفران إلى مدينة المنكَب ، ومُسْكَن بن حَبُوس المَفْرَأَ إلى جَبَّان ، وَمَنْ سِوَاهُم إلى غيرها من القواعد . وزَيَّن للسلطان أن ذلك من وجه النظر له ، وأنه لا يحى القواعد إِلَّا كبار الرجال ، وأن للعزولين قد صَحَّ عنده غفلتهم وتضييعهم ، إذ كان لا يسمع من أحد إلا قوله في هذه المشايه ، لِثِقَتِهِ به .

وكتب [اليهوديُّ] إلى ابن صُمَادِح يُخبره بخروج القوم الغوغاء من المدينة ، وأنه لم يَبْقَ فيها إلا من لا يُوبَه له ، ويحصدهم سَتِيقُهُ إذا دَخَلَهَا ، وأنه مَتَّهِيٌّ لِفَتْحِ أبوابها متى جسر وطرقها ؛ وضيَعَ النَّظَرَ في سائر الحصون غير القواعد ، وأهْمَلَ ما يَرْتَقِيُونَ به من الرجال والعُدَد على وجه الغفلة ، حتى خَلَّتْ .

والمُظَفَّر ، في هذا كُلِّه ، لا خَبَرَ عنده إِلَّا الإقبال على الشرب والدَّعة .
فلما خَلَّتِ العاقِل ، وصَحَّ عند أهلها ، بإهْلَاهِم واحتجابِ السلطان عنهم ، أنه قد مات لا حَالَةَ ، تصايَحَتْ بعضُها لبعض ، وخَلَّتْ بأقطارها ؛ وافتَرَصَهَا رجالُ ابن صُمَادِح ، وصاروا فيها حتى لم يَبْقَ منها إِلَّا حِصْنُ قَبْرِيَّة ، على مقربة من غرناطة في طريق وادي آش .

وأرسل اليهوديُّ على المقام لابن صُمَادِح ، يلحُّ* عليه في الإقبال إلى ٢٢(ب)

٢٠ المدينة ، وأن لا مانعَ يمنعه . فالتوى عن ذلك ابن صُمَادِح ، وجزع من الجسر على مثل غرناطة ، إلى أن اتَّسع اتَّخَرَقُ وتمادى التفاق ؛ وصار

اليهودي مُتَنَقِّلًا من داره إلى القَصْبَةِ حِذْرًا من العامة ، حتى يتمَّ ما أُمِّلَ ؛
فأتكر ذلك الناسُ ، مع بُذْيَانِهِ لِحِصْنِ الحُمْرَاءِ عَلَى أَنَّهُ ، إِذَا دَخَلَ ابْنُ
صُحَايْحِ الْبَلَدِ ، صَارَ هُوَ بِأَهْلِهِ إِلَيْهَا ، إِلَى أَنْ تَتَوَطَّدَ الْحَالُ . فَأَنْتِ الْعَامَّةُ
وَالْخَاصَّةُ لِمَكْرِ الْيَهُودِ وَمَا اشْتَهَرُوا بِهِ مِنْ تَغْيِيرِ الْأَحْوَالِ ، وَرَأَوْا مِنَ الرُّتَبِ
خِلَافَ مَا عَهْدُهُ .

وَالَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ مِنْ هَلَاكِهِمْ فِي يَوْمِ السَّبْتِ لِعَشْرِ خَلَوْنٍ مِنْ صَفَرٍ
[مِنْ سَنَةِ ٤٥٩] ، اسْتَعْمَلَ الْيَهُودِيَّ الشَّرَابِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ مَعَ أَقْوَامٍ مِنْ
عَبِيدِ الْمُظَفَّرِ ، كَانُوا قَدْ عَاقَدُوهُ وَاتَّفَقُوا مَعَهُ ، وَبَعْضُهُمْ فِي السَّرِّ يَشْنَأُهُ ؛
فَأَعْلَمَهُمْ بِأَمْرِ ابْنِ صُحَايْحِ ، وَأَنَّهُ وَارِدٌ عَلَيْهِمْ وَمَسْوُوعٌ لَهُمْ مِنَ الْقُرَى فَلَانَةَ
وَقُلَانَةَ مِنْ فَخْصِ غِرْنَاطَةِ ؛ فَاتَّذَبَّ إِلَيْهِ أَحَدُهُمْ مِمَّنْ كَانَ يَكْمُنُ بِغَضِّهِ ،
وَقَالَ لَهُ : « قَدْ عَلِمْنَا هَذَا ! فَأَخْبِرْنَا عَنْ تَسْوِيكَ هَذِهِ الْإِنْزَالَاتِ ،
أَهْوَى مَوْلَانَا حَيٌّ أَوْ مَيِّتٌ ؟ » فَرَدَّ عَلَيْهِ بَعْضُ حَاشِيَةِ الْيَهُودِيِّ ، وَوَجَّهَهُ عَلَى
قَوْلِهِ ؛ فَأَنْفَ ذَلِكَ الْعَبْدُ وَخَرَجَ فَارًّا عَلَى وَجْهِ [وَهُوَ] سَكْرَانٌ ، يَصِيحُ بِالنَّاسِ
وَيَقُولُ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ سَمِعَ بِالْمُظَفَّرِ قَدْ غَدَرَهُ الْيَهُودِيُّ ! وَهَذَا ابْنُ صُحَايْحِ
دَاخِلٌ فِي الْبَلَدَةِ ! » فَتَسَامَعَ لَذَلِكَ النَّاسُ أَجْمَعُ خَاصَّتُهُمْ وَعَامَّتُهُمْ ، وَأَتَوْا
عَازِمِينَ عَلَى قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَتَحَيَّلَ عَلَى الْمُظَفَّرِ حَتَّى أَخْرَجَهُ إِلَيْهِمْ ، وَقَالَ :
« هَذَا سُلْطَانُكُمْ حَيٌّ ! » وَرَامَ الرَّئِيسُ تَسْكِينَهُمْ ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ ؛ وَاتَّسَعَ الْخَرْقُ
عَلَى الرَّاقِعِ . وَهَرَبَ الْيَهُودِيُّ بِنَفْسِهِ إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ ، وَاتَّبَعَتْهُ الْعَامَّةُ حَتَّى
ظَفَرُوا بِهِ وَقَتَلُوهُ . وَأَحَالُوا السِّيفَ عَلَى كُلِّ يَهُودِيٍّ بِالْبَلَدَةِ ، وَحَصَلُوا عَلَى
عِظَائِهِمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ .

وَاسْتَأْسَدَتْ إِذْ ذَاكَ صِيْنَهَاجَةٌ ، وَطَفَرُوا بِمَا صَنَعُوهُ عَلَى الرَّئِيسِ ، مَعَ الْفِتْنَةِ

المُطَفَّر* عليه من كل قطر . وكانوا هم الوزراء ومُدَبِّرِي^(١) الدولة ؛ ٢٣ (١)
والمُطَفَّر من هذا كله تحت خوفٍ وذلٍّ ، قد حقد عليهم ما صنعوه
بوزيره ، من غير أن يَعْلَمَ بشيء من دواخله ، ولا صدق قولهم عليه ،
وسائر أمره معهم بالداراة والصبر ، إلى أن تفتحت له البلاد ، ورجعت
طاعته إليه بما نَحْنُ نذكره^(٢) بعد هذا إن شاء الله . ٥

ولما مضى مُسَكِّن إلى جَيَّان ، على ما قدّمنا ذِكره ، أَلْقَى في طريقه
عَمْنًا ما كَسَن ، يحمله الصَّقْلُ ؛ فاستنقذه ، ومشى به إلى جَيَّان ، وقال :
« لا فائدة أكبر من هذا : ابن الرئيس يكون معي حُجَّةً على ما أريده
من مُلْكِ جَيَّان أو غيرها ؟ وسينقاد إليه الناس ، ونحصل على عظامهم ! »
١٠ كالتي كان . فَوَلَّى جَيَّان باسمه ، وصار حاكمها مع بني عمه . وحصل
إذ ذاك من أموال اليهود فيها على ما لا يتحصّل . وبقي نائراً على أفضل حال .

٢٧ — الحركة الموقفة التي قام بها باديس لانتزاع وادي آش

من أيدي ابن صُمَاح

وإنَّ المُطَفَّر ، لما رأى ما نزل به من كَلْبِ العدو وطَمَعِ الناس فيه ،
١٥ وما حلَّ به من كلِّ وَجْهٍ ، جمع الناس وقال لهم : « ما تَرَوْنَ في أمرِ
وادي آش ، وتصيرها إلى ابن صُمَاح ، واستحوذِهِ على أنظارنا ؟ »
فأجابه قَواده وجملةُ رجاله أن : « لا دواء لهذا ، إلّا أن تبذل الأموال ،
وتترك الدِّعة ، وتُباشِر الأمر بنفسك ! » فقال لهم : « مثلي ومثلُ ابن
صُمَاح كمثلِ القُبعة التي كان يلبسها عشُّ إوزة ؛ فأعجبها بيضها ، فقالت :

(١) أصل : « مدبرين » . (٢) أصل : « ذاكره » .

« لأحضنّ هذا البيض ، يكون خيراً من متاعى ! » فلما رامت ذلك ، هَجَزَتْ وقصُرَتْ جَنَاحَها عن التحضين ؛ فلما رجعت إلى متاعها ، وَجَدَتْها قد فسَدَتْ . وكذلك ابن صَادِح : تعدّى على بلدى ، وسيخرج عنه وعن كثير مما كان قديماً بيده ! « قَوَّيْتُ نفوسُ الناس ، وادَّرَع الحَزْمُ والعَزْمُ ؛ وتَأَهَّبَ للمسير ، واجتمعت إليه الأجناد ، [وفرَّق] فيهم العطايا . ونازَلَ وادى آش حتى حاصَرها .

وكان في أوّل الفتنه ، للذى * رأى من قيام رعيّته وخشى خلاف ٢٣ (ر) الجميع ، قد وجّه لابن ذى النون ، صَاحِبِ طَلَيْطَلَة ، يملّه بما دهمه من الأمر ، ويسأله صِلَة يده به ، وأتته ما انصرف إليه من البلاد أعطاه منها ما أُحِبَّ واختار ؛ فسارَعَ ابن ذى النون إلى ذلك ، ولحق به ، وهو على وادى آش قد حاصَرها وقَرَّبَ مَرَأُها ؛ واجتمع معه إلى أَجَلِ هيئة وأتمَّ رتبة . وفي قَصَبَة وادى آش ذلك الوقت وزراء صاحبِ المَريّة وأكابرُ رجاله . فاشتدَّ عليها الحربُ ، وكثُرَ الإنفاقُ ، حتى إنّه انتهت النفقة عليها ، على ما رأيته مكتوباً بخط يد جدّى — رحمه الله — ستّة بيوت من اللال دَرَاهِمَ ثُلُثِيَّةً ، البيتُ منها ألفُ دينارٍ ثُلُثِيَّةً . وصار ذلك مثلاً في الناس لصبره وكثرة إنفاقه .

فلما رأى مَنْ بالقَصَبَة من أكابر أهل المَريّة ما دهمهم ، وأتته لا مَلْجَأَ لهم إلا الحرب أو السَّيف ، ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً ، تَحَيَّلُوا وأرسلوا إلى ابن ذى النون ، وهُمُّ على الملكة ، يعلونه بما هم فيه وقطعَ رجالهم عن إمداد صاحبهم ، ويسألونه أن يتوسَّطَ أمرهم مع المُظفَّر ، ويأخذَ لهم التَّقْوَى ، ويخرجُهم على سلامة ؛ ووعدوه على ذلك ، إن هو استنقذهم ، أن يُصَيِّرُوا

العرية ملكه . وكان ابن ذى النون من الطمع في غاية لم يفتد إليها ملك ؛ فطمع في قولم ذلك ، وترامى على جدنا ، ورغب إليه ؛ فأسمعته ، حتى خرجوا وأخلوا له القصة . وثقفها بحجة رجاله .

واستنجز ابن ذى النون وعده ، وقال : « إن الذى أريد من هذه البلاد بسطة . » فلم يكن بُدَّ للمظفر من إنجاز وعده ، وأمر بإخلاؤها له . وتفتحت للحاجب بلاد كثيرة أربت على التى انصرفت إليه .

وأرسل إليه ابن صمدح بعد ذلك ، يسأله العفو والإغضاء على ما كان منه ، وأنه لا يتعرض من ذلك شيء لولا اليهودي ، وخوفاً ، إن * أهل (٢٤) (١) البلد ، أن يتعدى عليه من يخشى داخلته . وترامى على جدنا وأتامه بنفسه ليجتمع معه على ذلك ، ويجدد عقداً . ففعل وقبل اعتذاره . ويحكى أنه ، عند اجتماعه به ، كان أول ما خاطبه به : ﴿ يا أبانا ! استغفر لنا ذنوبنا ! إنا كنا خاطئين ! ﴾ (١) فأجابه المظفر على البديهة : ﴿ لا تثريب عليكم اليوم ! يغفر الله لكم ﴾ (٢) .

٢٨ — الحركة الموفقة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة

من يد ابن عبّاد

١٥

ولما صار إلى المظفر جميع بلاده ، وتوطدت له الدولة ، وكان قبل أخذِهِ لوادى آش قد أخذ مالقة ، وقدمها قبل شغله كله ؛ وكان قائدُ عسكره إليها تلك السفرة يحيى بن يفران ؛ وكان الرجل من أكابر تلك الكاتبة

(١) سورة يوسف : ٩٧ .

(٢) سورة يوسف : ٩٢ .

وكان مُطاعاً في قومه ، قد شقى جدُّنا به طول مُدَّة الفتنة . ولما استأَسَدَ صِنْهاجَة ، على ما قدَّمنا ذكره بعد قتل اليهوديِّ ، تَرَأسَ فيهم يَحْيى المذكور ، ونال من الرئيس كثيراً في ماله وعرضه ؛ ففقد ذلك عليه ؛ وكان عازماً على أنه ، إذا انصرف من فتح مَالَقَة ، أن ينظر في خلمه ، ويشور عليه مع بني عمِّه . وكان الخبر قد طرأ إلى جدِّنا . فقضى الله تعالى أن مات يَحْيى المذكور في تلك السفرة مقتولاً في الواقعة . فقال عند ذلك المظفرُّ : « أَتَقْنَا في يوم واحد فرحتان : أوْلُهُما موتُ يَحْيى ، والأُخرى فَتَحُ مَالَقَة ! » ثمَّ نهض على اللقَام إلى وادي آس ؛ ففعل عليها ما وصَفْنَاهُ . وكان ابن عَبَّاد قد دخل مدينة مَالَقَة المذكورة قبل هذا الفتح ، وامتنعت له القَصَبَة لِما كان فيها من كفاة المَغَارِبَة ، وقائدها ذلك الوقت تَحْلُوفُ ابن مَلُول ، شيخٌ كبيرٌ من ثِقَاتِهِ ؛ وانتظروا قوَّةَ الرئيس صَبْرًا منهم ، وكثرةَ بَقِيَّا ، وأَنفَة من كشفِ لحرمة الذين كانوا بالقَصَبَة المذكورة ، إلى أن ورد العسكرُ . وخرج إلى مُلاقاتهم من فيها من عسكر ابن عَبَّاد ؛ فَمُنِحُوا عليهم الظفر ، ودخلوها عَنوةً .

- ١٥ وكان حصول ابن عَبَّاد عليها لِدَاخِلَةٍ* أهلها ومَتِيلِهِمْ إليه ، اختياراً له (٢٤) بـ علينا ، على إحسان المظفرِّ — رحمه الله — إليهم ، وأنَّه وجدَّهم على أَسْوَأِ حالَةٍ ؛ فأصلح من أحوالهم كثيراً ، وحل قُتَّاهَا ومُتَرِّئِهَا على المطايا ، وأنزلهم على أفضل المراتب ، ما كان مشهوراً عنه في الأقطار ، إذ كانوا قَبْلُ في حال قِلَّةٍ وعلى غير رتبة . ثمَّ كافأوه بما فعلوا . وبعد
- ٢٠ ظفروه بهم ، عفا عن ذلك كُلِّهِ ، وزاد في مَرَاتِبِهِمْ . ولقد اخْتُطِبَ لابن عَبَّاد مُدَّةً كونه فيها ؛ وحُكِيَ أَنَّهُ قِيلَ في الخطبة : « اليومَ أَكْمَلْتُ

لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ۖ
فلم تقطِ السياسة مُعاقبةً أَحَدٍ مِنْهُمْ ، إِذْ كَانُوا فِيهِ سَوَاءً ، وَلَا يَصْحُحُ إِمْسَاكُ
بِلَدَةٍ إِلَّا بِأَهْلِهَا .

قَرَّرَ مُلْكُ جَدِّنا قَرَارَهُ ، وَجَبَرَ الْأَمْوَالَ ، وَزَادَتْ الْحَبَايَا .

٢٩ - الكشف عن أمر فنيانة وفنتها

ولما انصرف من فنيانة^(١) ، غزوته تلك الوادي آشيّة^(٢) ، دعا بقائديه [الناية
وعبد الله بن القروى^٣] ، وكانا على العسكر مُدَّةَ فِتْنَةٍ وادي آش ؛ وامتنح
على أموالهم أين أُتِفِقَتْ : أكانت في واجب أم زيفت^٤ ، لِمَا استعظم من
النفقة ؛ وجمع القائدين والكتبة ، وكشف على ذلك غاية الكشف .
وكان الناية من أهل التجربة والفكرة في العاقبة ، قد عمل هذا الحساب ،
وأخرج منه نفسه : فمضى وردت أموال من غرناطة للقطاء ، يتحرى عنها ،
ولا يقبض منها شيئاً ، ويقول للذي يأتي بها : « احملها إلى خباء الشيخ
عبد الله بن القروى^٥ ؛ فهو أعلم بما يصنع ، وهو أسن وأدرب^٦ ! » فاحتج
الناية بهذا الفعل عند المظفر ، وأتى على ذلك بالبُرْهَان ، وتبرأ منها .
وغضب الحاجب على عبد الله ساعته ، وأمر بنفيه .

وكان أكثر الجند يشنأ الناية على ما وصفتناه ، ويؤثر عبد الله لثربته^(٧)
معه ؛ فشق ذلك عليهم ، وأدركهم من الأتقة أن خرجوا كلهم حرمةً
في عبد الله ، وأخلوا* عليه المحلة . وزال عنهم أكابرُ صنهاجة أجمع ؛ ٢٥ (١)

(١) أصل : « فتيانه » ، وهو تصحيف .

(٢) أصل : « الوادشية » .

(٣) أصل : « لثربيته » .

فلم يصبح الحاجب بِفَتْنِيَانَةٍ مِنْهُمْ مَعَهُ أَحَدٌ ؛ وَرَجَوْا أَنْ يَكُونَ يَرْغَبُ إِلَيْهِمْ ، وَيَفْزَعُونَهُ بِتِلْكَ الْفَعْلَةِ . فَأَتَى إِلَيْهِ النَّايَةُ بِرَعْدٍ فَرَقًا ، وَأَخْبَرَهُ بِالْقِصَّةِ .
 قَالَ الْمُظْفَرُ فِي نَفْسِهِ : « لَا خَيْرَ لِي فِي رَدِّ هَؤُلَاءِ ! فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَزِيدُهُمْ طَغْيَانًا ، وَتَجَرُّهُمْ الْعَادَةَ ، مَتَى أَحْبَبُوا الْخِلَافَ ، عَلَى أَنْ يَمْتَلُوا هَذِهِ الطَّرِيقَةَ .
 ٥ وَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى إِسْأَلِهِمْ ، وَفِي مُضِيِّهِمُ الْغَنِيمَةُ وَالرَّاحَةُ ! » فَسَكَتَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلَ عَلَى أَهْوَائِهِمْ ؛ فَصَارُوا فَرَقًا وَأَشْتَاتًا ، مِنْهُمْ مَنْ مَضَى إِلَى جَيَّانَ يَرِيدُ مُسْكِنًا ابْنَ عَمِّهِمْ ، وَمِنْهُمْ مَنْ انْقَطَعَ إِلَى شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ إِلَى غِرْنَاطَةَ عَلَى خِفَاءٍ ، يُرَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَلَّةِ .
 وَأَقْلَعَ الْمُظْفَرُ عَنْ فِتْنِيَانَةٍ وَأَتَى غِرْنَاطَةَ ، لَمْ يَنْقُصْهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ،
 ١٠ وَلَا عَدَمُ جُنْدًا . وَاسْتَوَزَرَ النَّايَةَ ، وَبَقِيَ عَلَى الدَّعَةِ وَالتَّمَكُّينِ دَهْرًا طَوِيلًا .

٣٠ — اسْتِيلَاءُ بَادِيَسَ عَلَى مَدِينَةِ جَيَّانَ

وَلَمَّا تِمَكَّنَ مَاكْسَنُ مِنْ جَيَّانَ ، وَثَارَ مَعَهُ مُسْكِنٌ مَعَ بَنِي عَمِّهِ ، أَقْلَقَ ذَلِكَ جَدَّنًا ؛ وَخَافَ النَّايَةَ عَلَى نَفْسِهِ مِنْهُمْ ، وَجَزِعَ مِنْ أَنْ يَتَّفِقَ مَنْ هُنَاكَ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ وَسَائِرِ الْبَرَبَرِ الَّذِينَ بِغِرْنَاطَةَ ، وَيَقْتُلُوهُ ، وَيَسْعُوا فِي وِلَايَةِ مَاكْسَنَ . وَلَمْ يَرَّ الْمُظْفَرُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — لِمَفَاتِنَتِهِ وَجْهًا ، وَإِنْ مُسَايَرَتَهُ وَمُدَارَاتِهِ أَوْلَى ، وَإِنْ فِي فِتْنَتِهِ مِنَ الْعَارِ وَسُوءِ الْقَالَةِ أَنْ يُقَالَ : « رَجَعَ الْمُظْفَرُ يُكَابِدُ فِتْنَةَ ابْنِهِ ، وَإِنْ أَصِيَاهُ أَمْرٌ عَجَزٌ ! » فَتَرَكَهُ عَلَى حَالِهِ ، وَرَأَى أَنَّ السَّعْيَ عَلَيْهِ بِالْمُدَاخَلَةِ أَوْلَى . وَالنَّسَايَةُ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يَجِدُّ وَيَجْتَهِدُ ، خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَبْذُلُ الْأَمْوَالَ لِلتَّغَارِبَةِ ، وَيُرْسِلُ مِنْهُمْ إِلَى قَصَبَةِ جَيَّانَ مُتَخَيِّسِينَ مَنْ يُدَاخِلُهُمْ .
 ٢٠

وكان مُسَكِّنٌ قد أَخْلَعَ عَمَّا مَأْكُتَن ، واستبدَّ بالرأى ، وجمع الأموال
 دونه ؛ وصار له مَأْكُتَنُ بِمَنْزِلَةِ* البازي الذي يُصَيِّدُ به ، ومَأْكُتَنُ لا يقدر ٢٥ (ب)
 على أكثر من الصبر ، إذ لا فِتَّةَ غيرهم ، وقع بتلك الحال لاستنفاذه له
 من الموت ، ورأى إقرارَ روحه في جسده غنيمةً ، فَضَلَّ عن طلب ما سوى
 ذلك . فلم يَزَلْ أبداً يُدْخِلُ عليه بالأموال ، حتَّى استمال جميع مَغَارِبَةِ
 القَصَبَةِ . وكان ، مُدَّةَ كونه بِجَيَّان ، يُخَاطِبُهُ أَقْوَامٌ من صِنْهَاجَةٍ في حُبَّتِهِ ،
 ويقولون بذلك في الحَافِلِ والمَجَالِسِ سرّاً وجهراً ، ويروْنَ ولايته خيراً من
 تولية العبيد عليهم واليهود ومن أشَبَّهُهم ؛ قد سئِمُوا من ذلك ، وأُشْرِبُوا
 الْمُظْفَرُ من الشَّنَّانِ والبَغْضَاءِ ما لو استطاعوا ، لَخَلَعُوهُ . لكنَّ السَّعَادَةَ والمُدَّةَ
 ١٠ لم يقطع عليها قاطِعٌ ! والرئيس من هذا كُلِّهِ تحت أمرٍ عظيم ، والناية
 متوقَّعةٌ للقتل مساءً وصباحاً ، تكثرُ عليه الأراجيف مع الساعات ، إلى أن
 نجت تلك المُدَاخَلَةُ : فقام المَغَارِبَةُ بالقَصَبَةِ على مَأْكُتَن ، وخرج منها
 فاراً بنفسه ، هو وجميع من معه ؛ وهرب مُسَكِّنٌ ، لا يلوى على شيء ،
 يطلبون النجاة بِمَحْشَاةِ أَنفُسِهِمْ ؛ ووقع فيهم البهتُ ، إذ لم يدروا من حيث
 ١٥ أتوا لَمَّا سمعوا النداء بالليل : « لَا طَاعَةَ إِلَّا لِلْمُظْفَرِ ! » وعَجَّلَ الحَاجِبُ
 بِتَغَافِ جَيَّان ، واستراح من تلك الفِتَّةِ .

وقد حُكِيَ عن المُظْفَرِ — رحمه الله — أَنَّهُ لَمَّا تَهَيَّأَتْ له هذه
 السَّعَادَةُ ، رأى النَايَةَ مهموماً . فسأله^(١) في ذلك ؛ فقال : « اهْتَمَمْتُ
 بِخُلَاصِ هذه الشَّرْذِمَةِ بِأَرْوَاحِهِمْ . ولَسْنَا نَأْمَنُ شَرَّهُمْ فِي الْبِلَادِ ! » وَمِنْ
 ٢٠ تَوَرَّحِيٍّ لَا يُنَلْبَسُ هَرَّارِكَيْسُ ! » واسمُ وَلَدِكَ كَبِيرٌ ! » فَأَجَابَهُ الْمُظْفَرُ أَنَّ

(١) أصل : « فقال له في ذلك » .

قال : « الذى حلّ بهم أشدّ من القتل ، لخلاصهم ^(١) عن أوطانهم وكشفهم فى انقلاصهم بأهاليهم إلى من يتولّى خِدْمَتَهُمْ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُنْزِلُهُمْ . وللموت دونَ هذا راحةٌ ! »

فقصد ما كَسَنَ إلى طَلَيْطَلَة ، وصار بها عند ابن ذى النُّون * مُكْرَمًا ،
٥ على حال الجُنْدِيَّة . وتقلّب مُسَكِّنٌ فى البلاد ، يخدم الجُنْدِيَّة . وصاروا أباديدَ .

٣١ — استيلاء الناية على بَيَّاسَة

وزاد جاءُ الناية بمرناطة ، وأخملَ صِنْهاجَة ، وأظهر لهم البغض لثقافتهم
كان بزعمه على اليهودى وعلى الحاجب فى ابنه ؛ واستخصَّ بنى بَرَزَال
وأحسن إليهم ، وقربهم من نفسه ، وهم كانوا أولياءه ^(٢) وأنصاره ، وبثَّ
١٠ فيهم العطايا . وأخذ السلطانُ إلى الراحة .

ثمَّ إنّه ، لما فُوِّضَ له الأمر ، رأى أن يجعل لنفسه ذِكْرًا وثناءً يؤثّر
عنه ، فى غزو البلاد ومداخلة بعضها . فانتدب إلى مدينة بَيَّاسَة ،
وقال للمُظَفَّر : « إنَّ مُدَاخَلَة بعض أهلها عندى ا » وكانت إذ ذاك لولّد
مُجَاهِد . فقال له الحاجب : « لا تتعرّض إليها ، ونَحْنُ فى دَعَا ! وكأنى
١٥ والله أرى تُنفق عليها الأموال ، وتُهْلِك الرجال ، ولا تُحصِّل على فائدٍ ! »
فألحَّ عليه وزين له الأمر ، حتى أجابه إلى ما سأل ، وأمره بالمسير ، وهَيَّأَ
معه الجيش ، وأعطاه الأموال . فَرَامَ من بَيَّاسَة أمرًا عظيمًا : كلُّ ذلك
يتعذّر من أمرها ما لا يُرَجَى به أخذها ، حتى سُمِّ السلطان النفقة ومنع
منه للال .

(٢) أصل : « أوليائه » .

(١) أصل : « خلاصهم » .

- وكان في المجلس ممن يُطالبه بذلك رجلٌ كاتبٌ للمظفر يُعرف بابن أضحى ، ويقول للحاجب : « لم تقيم بيّاسة وعشرة أمثالها ببعض هذه النفقات التي كُنتَ عنها في غنى ! » وكلُّ ذلك يتّصل بالناية ؛ فيُخرج المغاير ، ويغنم الأغنام ، ويوجّهُ بها إلى مولاه ليَجْبُرَ منها بعض نفقاته ؛ فكان ابن أضحى يبيعها بيخسٍ من الثمن ، ويحضر المال بين يديه ، ويقول له : « أين هذا بما أنفقت ؟ » فيخرج أخلاق المظفر عليه ؛ فيصبر عليها الناية ؛ واستسلف طعاماً كثيراً من شيوخ جيان . وكان بانياً على أنّه ، إن لم يقدر فيها على شيء ، أن يكون ذلك طريقه فاراً ، لا ينصرف إلى غرناطة ، إلى أن استفتحها بكثرة المؤاظبة والملازمة ، وكانت عليه الصولة على مطالبه
- ١٠ بذلك . ودخل* المدينة في عزّة ورفعة وإكرام من السلطان جسيم ، مُهَدِّدًا ٢٦ (ب) لمن طالبه ، ومُسْتَطِيلًا بذلك مُعَلِّناً .
- وقدم إلى المظفر يقول له : « لا أدخل البلد حتى تأمر بنفى ابن أضحى أو أنصرف من مكاني هذا ! » فرأى الحاجب أن ننفي ابن أضحى أولي من فساد عسكره . فأمر بنفيه ، بعد تغريمه وإهانتِهِ . وخرج من ذلك الوقت ساعياً على الدولة ومُطالباً لها إلى زمان ولايتنا ، حتى أنظرنا الله به ، على ما يأتي ذكره بعد هذا .

٣٢ — مؤامرة ضدّ الناية ومقتله

- وإنّ وزراء الدولة وكثرة عبيدها ، لما بصروا بما فعل الناية ، والزيادة في أمره وجاهه ، وأنّه هو الحاكمُ دون السلطان ، حتى قالوا إنّهُ طامعٌ بالرياسة والقيام مع بنى يرزّال ، وشنع ذلك عليه ، أدركتهم منه أنفة
- ٢٠

عظيمة وحسدٌ شنيعٌ . فاتفق رأيهم أجمع ، أعني ولاية البلاد : منهم وَلَدُ القَاضِي ، صَاحِبُ بَاغِهِ وابنُ بَعِيش ، صَاحِبُ قَبْرَةٍ ، وَوَاصِلٌ ، صَاحِبُ وادي آش ، والقاضي ابنُ الحَسَنِ الثَّبَاهِي بِمَالَقِهِ ، أَنَّهُ مَتَى قَدِمَ إِحْدَى هَذِهِ الْجِهَاتِ ، قُتِلَ فِيهَا ، وَأُرْسِلَ فِي مَا كُنَّ — وَقَدَّم — أَرَادَ وَاللَّهِ أَمْ لَمْ يُرِدْ .

ثُمَّ إِنَّ النِّفَرِ الْمَذْكُورِ عَمِلُوا رَأْيَهُمْ ، وَفَكَّرُوا فِي الْعَاقِبَةِ ، وَرَأَوْا أَنْ يَقْتُلَهُ وَاصِلٌ الْعِلْجُ بِوَادِي آش ؛ [فَيَكُونُ ذَلِكَ] أَسْتَرَّ لِقَتْلِهِ وَأَبْعَدَ لِلظَّنِّ بِهِمْ : فَإِنْ عَاقَبَ عَاقِبَ غُلَامَتِهِ وَتَبَرَّأُوا مِنْ ذَلِكَ . فَوُعِدَ وَاصِلٌ الْمَذْكُورُ عَلَى ذَلِكَ بِالْوِزَارَةِ مَكَانَهُ ، وَضَمِنُوا لَهُ تَوْطِيدَهُمْ لِلأَمْرِ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، حَتَّى تَهَيَّأَ ذَلِكَ فِي دِمَاعِ الْعِلْجِ ، وَاسْتَعَدَّ لِقَتْلِهِ ، إِلَى أَنْ حَدَثَ بِوَادِي آشُ أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مُبْدًىً لِلسُّلْطَانِ أَنْ يَرْسِلَ وَزِيرَهُ فِيهِ ، مِنْ تَحْصِيلِ أَمْوَالٍ وَالْكَشْفِ عَلَى أَحْوَالٍ . فَهَضَّ فِي أَمْحَسَ وَقَتْرٍ وَأَشْرَقَ قَدَرٌ . وَكَانَ وَاصِلٌ هَذَا الْمَذْكُورُ مِنْ أَكْبَرِ صَنَائِعِ النِّيَاةِ ، وَمِمَّنْ اطَّيَّبَ بِإِحْسَانِهِ ، وَشَرَّفَهُ عِنْدَ السُّلْطَانِ ، وَرَفَعَهُ مِنَ الْحَضِيضِ . فَقَشَا الأَمْرُ عِنْدَ النَّاسِ قَبْلَ ذَلِكَ أَنَّ وَاصِلًا عَازِمٌ عَلَى قَتْلِ النِّيَاةِ .

وَحَكَى لِي إِنْسَانٌ مِنَ الْبَرْزَرِ ، قَالَ : « نَصَحْتُهُ بِذَلِكَ وَحَذَّرْتُهُ أَنْ لَا يَنْهَضَ إِلَيْهِ ، وَأَنْ مِثْلَهُ لَا يَنْزِلُ فِي دَارِهِ ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ : « تَرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا الرَّيْبَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَتَرُدُّوْهَا عَلَى أَصْدِقِ النَّاسِ إِلَى ١ » فَلَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى وَادِي آش ، وَنَزَلَ فِي مَنْزِلِ وَاصِلٍ ، أَظْهَرَ لَهُ إِكْرَامًا وَتَبَجُّلًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ قَبْلُ ، حَتَّى اطمأنَّ ، وَانصَرَفَ عَنْهُ أَعْوَانُهُ . وَلَمَّا دَخَلَ اللَّيْلَ فِي جَنَّةٍ ، أَتَاهُ ٢٠ وَاصِلٌ بِرَمْحِهِ ، وَهُوَ سَكْرَانٌ ؛ فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً أَنْفَذَتْ بِهَا ، حَتَّى أَثَرَتْ الضَّرْبَةُ فِي الْخَائِطِ ؛ وَقَطَعَ رَأْسَهُ وَطَوَّفَهُ صَبِيحَةُ اللَّيْلِ [بِأَرْقَةِ مَدِيَةِ وَادِي آش

- وَمُنَادٍ ينادى [: « هذا جزاء من طلب ما لا يعنيه ! »
- فورد الخبر فجأةً بغرناطة ، وبُهِتَ له الناس ؛ ولم يدْرِ أحدٌ من حيث أتى ، ففهم من يقول : « السلطان دسَّ إليه ، إذ لا يمكن لتلك العليج أن يتعدَّى ! » وبلغ ذلك من السلطان مبلغاً عظيماً ، وعلم أن هذا من اتفاق عايه ؛ ودخل منه في بحر طامس ، حتى أسهر ليله وامتنع من لذته . وأظهر للناس تجلُّداً ، وهدَّده الجند ، وأرسل إلى واصل بالأمان ، يأمره بالقدوم عليه ، ويشكره فيما فعل ، سياسةً منه وتوطيداً إلى أن يستبرىَّ كيفية الحال ، وينظر لها على مهل . فزاد بذلك العليج حاقةً ، وقال مُعلنًا : « لم أَدْخِلْ يدي في هذه القضية وحدي ، حتى يساعدني عليها من لا يُنال بهم عن أحدٍ ! »
- ١٠ وأتى مُشترطاً للوزارة . وكَلَّمَ وَلَدُ القاضي المظفر في أمره وقال له : « إنَّ هذا العبد ، وإن جنى عليك في قتل وزيرك ، فإنما فعل حُبًّا منه فيك ورغبةً في قُرْبك ؛ وهو أحقُّ من ذاك إذ هو تربيتك ! » وجعل [أهل] الدولة يمتنون به ويسألون العفو له . فأحسَّ السلطانُ ذلك في نفسه ، وأيقنَ أنَّ هذه النّصبة لم تكن إلّا عن اتفاقٍ عليه ، وحسب نفسه مخلوعاً لا محالة . فإنه ، ساعة
- ١٥ ما قُتِلَ النّاية ، أُرْسِلَ عن ما كُنَّ إلى طُلَيْطَلَة ، ووُجِّهَ* إليه بخاتم النّاية ٢٧ (ب)
- كَيَّ يتحقَّق قتله ، وقيل له : « ليس بغرناطة عليك مختلفٌ ولا من يصدُّك ! » إلّا أنه لم يتجاسر حتى يرى إلى ما تؤوّل الأحوال . فكظم الحاجب هذا في نفسه ، واحترق له قلبه ؛ ودارى جميعهم ، وصوّب فعلَ واصلٍ ، وقال :
- « هذه نارٌ موقدةٌ ليس ينتقذني منها إلّا إطفاءُها والنظر لها على سعةٍ ! »
- ٢٠ وأمرَ بتقديم واصلٍ على الخليل .

٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ما كَسَنَ ورجوعه إلى الحضرة

وَاتَّفَقَ رَأْيُ الْجَمِيعِ ، مع بعض أهل قصره من النساء ، أن يُدْخَلَ عليه
ابْنُهُ ، وَتُخْلَعَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . فلما رأى الْمُظْفَرَ اتِّفَاقَهُمْ عَلَيْهِ ،
وَأَحْسَنَ بِهِنَّ الْمَصَائِبِ ، وَلَمْ يَزَلْ لِنَفْسِهِ مع من يَسْتَرِجِ ، أَرْسَلَ فِي أَبِي الرِّبِيعِ
النَّصْرَانِيَّ ، وَكَانَ فِيهَا مَضَى كَاتِبَ حَشَمٍ ، قد عرف خدمة اليهوديِّ وَتَصَرَّفَ
مَعَهُ ؛ فَأَرْسَلَ عَنْهُ سِرًّا ؛ وَأَتَتْ كُتُبُهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَرَاغَ عَنْهَا بِحُطٍّ يَدُهُ .
فَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الشَّرِّ وَخِيَالِ الدَّوْلَةِ . فَلَمَّا أَحْسَنَ بِهَذَا وَلَدُ الْقَاضِي
صَاحِبُ بَاغُهُ ، شَافَهُ الْمُظْفَرَ فِي الْأَمْرِ وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتَ تَعَزُّمُ عَلَى
أَبِي الرِّبِيعِ ، فَنَحْنُ لَا نَبْقَى مَعَكَ ، وَلَا يَأْتِي أَحَدٌ حَوْلَايِكَ ! » فَأَجَابَهُ :
« أَلَا أُنَبِّئُ اللَّهَ مِنْكُمْ أَحَدًا ! » وَضَمَّ الْحَزْمَ فِي هَذَا ، لَا سِيَّامَا أَنَّهُ قَدْ عَلِمَ
أَن يَبِيدَ مَدِينَةَ لَا يَمْلِكُ مِنْهَا مَعَهُ شَيْئًا ؛ فَعَمِلَتْ فِي نَفْسِ صَاحِبِ بَاغِهِ وَأَهْلِ
الدَّوْلَةِ ، وَتَغَيَّرَتِ الْأَنْفُسُ ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ . وَاتَّفَقَ مع صَاحِبِ قَبْرَةِ ،
وَكَانَ صَدِيقَهُ قَدِيمًا ، إِلَى أَنْ وَرَدَ أَبُو الرِّبِيعِ .

فَاسْتَرَا حَ إِلَيْهِ الْمُظْفَرَ عَلَى الْقَامِ ، وَأَعْلَمَهُ بِمَا حَلَّ بِهِ . وَأَتَاهُ الْمَذْكُورُ مِنْ
دَانِيَّةَ ، إِذْ كَانَ بِهَا مِنْ وَقْتِ قَتْلِ الْيَهُودِيِّ . فَقَالَ لَهُ أَبُو الرِّبِيعِ : « قَدْ أُيْقِنْتُ
أَنَّهُمْ أَرْسَلُوا عَنْ ابْنِكَ ، وَلَا مُخْتَلَفَ عَلَيْهِ . وَلَا قُدْرَةَ بِكَ عَلَى مُكَابَرَةِ الْعَامَّةِ
وَالْخَاصَّةِ ! فَالرَّأْيُ فِي ذَلِكَ وَالْحِيلَةُ أَنْ تَتَلَفَّى الْأَمْرَ ، وَتَوَجَّهَ فِي ابْنِكَ ، وَتَكْتُبَ
إِلَيْهِ بِحُطٍّ يَدُكَ بِالْعَفْوِ عَنْهُ وَإِثَارِكَ لَهُ عَلَى كُلِّ وَالٍ لَمْ يَصُحَّحْ لَكَ ، وَأَنَّكَ
مَقْدُمُهُ * لَوْلَايَتِكَ وَمَوْرِثُهُ مُلْكُكَ . فَإِنَّكَ ، إِنْ فَعَلْتَ ، هَدَّيْتُ قُلُوبَ هَذَا الْعَالَمِ ٢٨)
وَتَقَمَّيْتُ مَسَرَّتَهُمْ ^(١) . فَإِذَا وَصَلَ وَلَدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، كُنْتَ فِي أَمْرِهِ بِالْخِيَارِ ،

(١) أصل : « سارم » .

وتخذمت قصته على سعة : فكابدته ، وهو معك ، خيرٌ من مكابدة شره مع بعده ! ولست تأمن مكره حيث ما توجه ! »

فرضى المظفر ذلك من قوله ، وأرسل على المقام عنه قصباً كبيراً من قصبائه يؤمنه ويوطئه ، وييسره بمذهب أبيه واستخلافه له ، وأنه ليس في الدولة من بنيه من يرجى لهذا الأمر سواه ، وكتب إلى ابن ذى النون يرغب في تسريحه إليه . فسر بذلك جميع الناس ، وانصرفت نفوسهم عما كانت عليه ، وطفئ العالم في محبة ما كسن ، ورجوا الخير معه ، إلى أن ورد في أنحنس طالع وأنكد جد .

فأنسه أبوه ، وبذل له الأموال ، وجعل يوصيه بوصايا لم تنفعه ، أراد بذلك ضره وانصراف نفوس الناس عنه . فأول ما أمره به بالشدة والقساوة ، وبقض إليه صنهاجة ، وقال له : « أنت تعلم ما شقيت أنا بهم بعد حبوس ! فصل عليهم ليهابوك ، وليس في الدولة غيرك إلا بنى أخيك : فهم أطفال صغار ! » وكان ما كسن من السفه وعجز الرأي وقلة الفطنة بحيث لم يخف على أحد . فزاد على ذلك أضعافاً مضاعفة . ووافق سوء طبعه مقالة أبيه : فتحكم الشر فيه ، ولم يقدم شيئاً على شتم الناس والاستهزاء بهم ؛ ومن العجب أنه كان أبغض العالم فيمن أحبه وسعى فيه ؛ فجعل يبلغ من أعراضهم وتكليفهم ما لا يطيقون وما انصرفت نفوس العالم فيه إلى البغضة ، وتبين لهم من قلة عقله ؛ وأجمع * الكل على ألا خير فيه يرتجى .

٢٨ (ب)

وكانت بنت عمه أم الملو طامعة بزواجه ؛ وكانت مطاعة في قومها : قد استمالت أكثر نساء الجند ؛ فأول ما ابتدأ بتهجينها وشتمها ، وأنها فيما يزعم لا تصلح له . فزاد ذلك في نحسه والسنى بكل وجه عليه . وكانت كريمة

المُظَفَّرُ الساعية في خبره بعد سعيها في قتل أمّه ، قد أغارت من أن يكون ما كَسَنَ يزوج بنت عمّه ، حِذْرًا منها أن تجعل منها حاشيةً وتمنع حرمتّه . وانتهى من ذلك واصلٌ وامرأته ؛ فقال^(١) لها : « أَيْ فائدة لك في زواج أمّ العُلُو؟ لكنّ الأولى بِكِ أن تعطيه صبيّةً من تربيتك ، تكونين^(٢) من أجلها حاكمّةً على داره ! » ففعلت ذلك وأخرجتها إليه بأموال ، وصوّرت عند السلطان أنها تُوفّيت ، لئلا يطلبها في قصره ، باسمٍ أخرى ماتت عندها .

وشقّ على بنت عمّه ذلك كلّهُ ، ورجعت تسعى عليه مع نساء البربر ، وتدخل بين امرأة واصل المذكور ، وبين كريمة الحاجب ، وتقول لها : « إذا أردتِ الانفراد بما كَسَنَ ، فما حمل امرأة العليج على السكنى معه ؟ » فمِنعت الدخول إلى داره ؛ فأفت لذلك . وكان مع ذلك زوجها واصلٌ يؤثّر عليها صبيّة كانت لها ، ويؤذيها من أجلها . فاجتمع على المرأة الغيرة والأنفّة لما طُرِدَت عن دار ما كَسَنَ ؛ فلم تلبث أن مضت إلى أبي الربيع النصراني : وقالت له : « أنا أمة المُظَفَّر : فليَنظُر من نفسه ! فإنّ الاتّفاق عليه على وجه كذا وكذا ! » ويَنتِ جميع ما راموا من غدره . فأبى أبو الربيع إلى الحاجب مسروراً ، وقال له : « أنظر كيف تبتدى سعادتك في تشيت هؤلاء القوم ! أخبرني امرأة واصل بكذا وكذا ! ألم أقل لك^(٣) ؟ »

(١) أصل « فقالوا » . (٢) أصل : « تكون » .

(٣) إلى هنا انتهى ما هو موجود في نسخة « مذكرات عبد الله » الوحيدة من تاريخ دولة باديس

ابن حبوس جد المؤلف .

الفصل الخامس

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس مؤلف هذا الكتاب

(١) مشاكل الأندلس الخارجية وحال الجزيرة

عند ابتداء إمارة عبد الله .

٣٤ — رفض مطالب الفُونش السادس واشتراكه

مع ابن عمار

- [..... وأما] * أَلْفُونشُ ، لَمَّا تَبَيَّنَ هَذِهِ الْفِتَنَ ، عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ (١) ٢٩ (١)
- من أكبر سعادته وأعظم فُرْصِهِ في طَلَبِ الْأَمْوَالِ . فَأَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولَهُ :
- أَوَّلَ مُدَاخَلَةٍ نَشَأَتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ ؛ فَأَتَى بَاطِرُ شَوْلَشِ يَطْلُبُ مِنَّا ضَرِيئَتَهُ .
- فَأَبَيْنَا عَلَيْهِ ، وَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى أَنْ لَا نَفْعَلَ ، وَأَنَّ ضَرَرَ أَلْفُونشُ لَا يُخْشَى
- وغيرنا أَمَانًا ، نَعْنِي بِذَلِكَ ابْنَ ذِي الثَّوْنِ . وَلَمْ نَقِسْ أَنَّ أَحَدًا يُعَاقِدُهُ
- عَلَى مُسْلِمٍ . فَانصَرَفَ عَنَّا دُونَ عَمَلٍ .
- وإنَّ ابْنَ عَمَّارٍ انْتَهَزَ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ؛ وَكَانَ مُنْتَظِرًا لَهُ بِيَاغُهُ ، مُرْتَقِبًا
- لِمَا يَصْنَعُ مَعَنَا . فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَتِمَّ لَهُ عَمَلٌ ، أَلْقَى يَدَهُ فِيهِ عَلَى الْقَامِ
- وَقَالَ لَهُ : « إِنْ كُنْتُمْ ^(١) مُنْتَقِمِينَ عَشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (وَهِيَ الَّتِي سَأَلَ عَنْ
- ضَرِيئَتِهِ) ، فَتَحْنُ نَعْطِيكُمْ خَمْسِينَ أَلْفًا ، عَلَى أَنْ تُعَاقِدَكُمْ عَلَى غَرْنَاطَةِ :

(١) أصل : « إِنْ كَانَ مِنْكُمْ » .

تعمطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من الأموال ١ « فعاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة مَعْقِلًا يَضِيقُ عليها حتى تلقى يدعا . وكان ابن أضحى ، للذكور قبل هذا — هو المخرج على يدى الناية — قد انحاش إليهم ، يدلُّ بهم على عَوَرات البلدة ، ويريهـم أشدَّ ما يكون عليها من المَوَاضِعِ إن بُنِيَ ، ويجعل فيه ندباً للضرب والتضييق . فأراهم حِصْنَ بَلِيلُش .

وأكرى ابنُ عمار من عسكر أَلْقُونُش ما قوى به على البُنيان بأعداد من الأموال جسيمة ، يسوفهم فيها تارات ، ويَعِدُّهم ويُخَادِعُهُم ، حتى تمَّ البُنيان . وجعل المَعْتَمِدُ يُحَاوِلُ ذلك بنفسه ، ويبرز أبدأ على مقربة من غرناطة مدَّة كَوْنِهِ ، طمعاً فى أن يَقُومَ معه أهلُ البلدة . فلما تمَّ بُنيانُهُ ، قواه بالندب ، واتَّخَذَ فيه جميع الأوقات ، وأمرهم بالتضييق . وكانت الحالُ شديدةً ، ونَسِيَ به أمرُ القلعة .

وعند انصراف المَعْتَمِدِ عنه وعساكر الرُّوم ، عَيَّنَا عسكراً كثيراً ، ونَهَضْنَا إليه ؛ فلم نقدر فيه على شيء . واقطع رجاء الناس من دولتنا ، لاجتماع المطالبين عليها مع الروم . ونَدِمْنَا على التفریط أَوَّلًا فى مُعَاقَدَتِهِ حَسَبَ ما سأل . وكان من أحسن شيء* على السلاطين أَخْذُ مَعْقِلٍ بالسيف ؛ ٢٩ (ب) فَإِنَّهُ ، متى اعترض ، لم يَسْتَطِيعْ على دخوله لمنعته وما عُدَّ فيه ، ولا على إحصاره ، حتى ينفد ما فيه لقوَّة تأنيهِ ، فيَقْلِعُ عنه إلا من كان أقوى . ولم نَكُنْ نَحْنُ إِلَّا مُتَكَافِئِينَ فى ذلك : متى ما أُعْطِيَ أَحَدُنَا لِعسكِ ٢٠ مَالاً ، وأراد الآخرُ نَقْضَهُ ، أَرْبَى عليه وأراحَهُ منه .

فكانت بَلِيلُش قد أفسدت ، وضِيقٌ على فَحْصِ غرناطة ؛ ولم يَكْفِ

ما حلَّ من أجلها حتى جعلنا القونش أن نُغرم ما فاتهُ مِنّا ، تباعةً
وتدنيياً لرَفَضنا إِيَّاهُ ، واستدفاعاً لِمَا يُتَقى من تَمَادِيهِ على الطَّلَب . وابنُ
ذى النون فى هذا يتوسَّط له بالأمر ، ويسعى فى تصيير المال إليه ، يرضيه
بذلك وينتظرُ فسادَ مَمْلَكَتنا ، فيفتَرِصُها هو أو يأخذُ منها حصَّته .
٥ فكان — على ما قدَّمنا ذِكره — عدواً فى الباطن ، صديقاً فى الظاهر .
وهو مع ذلك لا يزال يُدْخِلُ قُرْطُبةً ، ويسعى جَهْدَه فيها ، إلى أن قدَّرَ
اللهُ ، وافترَصها غُدراً بِمُدَاخَلَة من بعض أهلها مَن لا خَطَرَ له . واستشهدَ
فيها ابنُه عَبَّاد [بن المُعْتَمِد] وقائده ابنُ مَرْتِين .
فلما انقضت بَقُرْطُبة هذه الدائرة ، وسمع بالخبر أهلُ بَيْلِيش ، أخلَوْها
١٠ على اللقاص ؛ ودَخَلها رِجَالُنا ، وصارت فى مِلْكنا مُشَيَّدَةً مَبْنِيَّةً . فنظرنا منها
بالذى نصنع بقَصَبَة غرناطة . وتروَّح نَحْنُها من حيث لم يُحْتَسَب .

٣٥ — المهادنة بين عبد الله وابن صُمَادِح صاحب العَرِيَّة

وكان قائده مدينة بَسْطَة ابنُ مَلْحان ، رَجُلٌ معجبٌ ، قد شَرِهَتْ
نفسه إلى رُتَب الملوكة . وكان المظفر — رحمه الله — قد فَوَّض إليه أمرَ
١٥ البلدة عِيَوْضاً من أبيه . فلما صارت لنا الدولة ، وكثر فيها آراء الوُزَرَاء ،
جعل كلُّ واحد منهم يطلبه بمال ، ويسأله مُتَاحَفَات : فن لم يعطِ ،
طالبه وأذاه ، مع صغر سُنَّا ؛ فلم يَجِدْ سبيلاً إلى الدِّفاع عن نفسه ،
ولا شكوى لمن يذُبُّ عنه ويحميه . فترامى على ابن صُمَادِح وقبه ؛
وصارت البلدةُ إليه ؛ وعَلِمَ أَنَّهُ لا يُفَاتِن طولَ مدَّة الفِتنة مع ابن عَبَّاد .
٢٠ ثمَّ إِنَّهُ غدرَ* حِصْنَ شَيْلِش ؛ ونحن ، فى ذلك كلِّه ، لا نفتر عن مُخازاته ٣٠ (١)

بالإضرار ببلده . وصار إلينا مع حصن شنت أقلج من معاقله ما وقعت
المعاوضة به من شيلش . وصالحناه مهادنة وانجراراً للحال ، حتى فرى
ما نصنع مع ابن عباد .

٣٦ — مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة

واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه .

٥

وبقى ابن عمّار مرتين بما جعل على نفسه للنصراني من كراء بليش
في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يُقَطِّعُها له ، وبعده بها . وأدخل سلطانه
من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله يخلد إلى راحة لكي
يحتاج إليه في تلك الفتنة لا يقر عن إدخال ضرر على المسلمين . ومضى
١٠ ما كان المعتمد يسعى في تهدين الأمر ، وزوم معه الصلح ، أو تنشأ
مهادنة ، لا ينأى في نقضها وإشعال نار الفتنة .

فعاد ثانية إلى النصراني ألفونش ، وزين له أمر غرناطة ، وصوّرنا
عنده في صورة من لا يقدر على شيء من أجل الضعف وسن الصبا ،
وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير إليه بأسرها ، على أن يعاقده ،
١٥ إذ تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله ما بقي من أموالنا . وألقي
يده في ألفونش ، عازماً عليه في الإقبال إليها ، وأعطى على ذلك أموالاً
جسيمة ، ووعد به خمسين ألف منقال إذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على
ما يجده ، لمساعدته على السير .

فأدرك الرومي من ذلك طمع كبير ، وقال : « هذه نصبة لست
٢٠ أخلو فيها من فائدة ، وإن لم تحصل البلدة ! وأى فائدة لي في إعطاء

بلدة من واحدٍ لآخرٍ إِلَّا تَقْوِيَّتُهُ عَلَى نَفْسِي ؟ وَكَلَّمَا أَكْثَرَ الثَّوَارُ ، وَوَقَعَ
 بَيْنَهُمُ التَّنَافُسُ ، كَانَ لِي أَفْعَدُ ! » فَأَتَى عَلَى نَيْتِهِ أَخَذَ مَالِ الْفَرِيقَيْنِ ،
 يَكْسِرُ رُؤُوسَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ . وَلَا كَانَ أَيْضًا فِي أَمَلِهِ أَنْ يَأْخُذَ الْبِلَادَ
 لِنَفْسِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَمِلَ فِي ذَلِكَ حَسَابًا أَنْ قَالَ : « إِنَّا مِنْ غَيْرِ الْعِلَّةِ ؛ وَكُلُّ
 ٥ النَّاسِ يَشْتَأِي ؛ فَبِأَيِّ وَجْهِ أَطْمَعُ فِي أَخْذِهَا ؟ إِنْ كَانَ مِنْ بَابِ الطَّاعَةِ ،
 فَأَمْرٌ لَا يُمْكِنُ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ وَجْهِ الْقِتَالِ ، فَيَهْلِكُ فِيهَا رِجَالِي * وَتَذْهَبُ ٣٠ (ب)
 أَمْوَالِي ، وَتَكُونُ الْخَسَارَةُ عَلَى أَكْثَرِ مِمَّا نَرْجُوهُ إِنْ صَارَتْ إِلَيَّ .
 وَلَوْ صَارَتْ ، لَمْ تَتَمَسَّكْ إِلَّا بِأَهْلِهَا ؛ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُونَ ! وَلَا مِنَ الْمُتَمَكِّنِ
 أَنْ تَسْتَدْبِيحَ أَهْلَهَا وَتُعَمِّرَهَا بِأَهْلِ مِلَّتِي ! وَلَكِنْ الرَّأْيَ ، كُلَّ الرَّأْيِ ،
 ١٠ تَهْدِيدُ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَأَخْذُ أَمْوَالِهِمْ أَبَدًا ، حَتَّى تَرَقَّ وَتَضَعُ ؛ ثُمَّ
 هِيَ تَلْقَى بَيْدَهَا إِذَا ضَعُفَتْ ، وَتَأْتِي عَفْوًا ، كَالَّذِي جَرَى بَطْلَانُهَا إِنَّمَا
 كَانَ مِنْ قَرَرِ أَهْلِهَا وَتَشَتُّهِمْ ، مَعَ انْدِبَارِ سُلْطَانِهَا ، وَصَارَتْ إِلَى بِلَا
 مَشَقَّةٍ ! »

وَكُنَّا نَحْنُ نَعْلَمُ هَذَا مِنْ مَذْهَبِهِ ، عَلَى مَا كَانَ يُخْبِرُ بِهِ وَزَرَائِدُهُ . وَلَقَدْ
 ١٥ قَالَ ذَلِكَ شِشْلَانْدُ فِي حَالِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ، وَشَافَهُنَا بِذَلِكَ ، وَقَالَ : « إِنَّمَا
 كَانَتْ الْأَنْدَلُسُ لِلرُّومِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ، حَتَّى غَلِبَهُمُ الْعَرَبُ ، وَالْحَقُّوهُمْ
 بِأَنْحَسِ الْبِقَاعِ : جَلِيْقِيَّةٌ ؛ فَهُمْ الْآنَ عِنْدَ التَّمَكُّنِ ، طَامِعِينَ بِأَخْذِ ظُلُمَاتِهِمْ !
 فَلَا يَصْبَحُ ذَلِكَ إِلَّا بِضَعْفِ الْحَالِ وَالْمُطَاوَلَةِ ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ مَالٌ
 وَلَا رِجَالٌ ، أَخَذْنَاهَا بِلَا تَكَلُّفٍ ! »

٢٠ فَكَانَ الْجَمِيعُ يُسَايِرُ الْأُمُورَ ، وَيُدَافِعُ الْأَيَّامَ ، وَيَقُولُ : « مِنْ هُنَا
 إِلَى أَنْ تَمَّ الْأَمْوَالُ وَتَهْلِكَ الرِّعَايَا بِرَحْمَتِهِمْ ، يَأْتِي اللَّهُ بِالْفَرَجِ وَيَنْصُرُ الْمُسْلِمِينَ ! »

فورد علينا من إقبال الفؤش مع ابن عمار هؤل عظيم ، وصح
 عندنا أنه لم يأت إلا طالباً لمكنا : قد استوثق من الفؤش على ماقدنا
 ذكره . ثم أرسل إلينا ينذر بإقباله ، ويأمرنا بالخروج إليه ، يرى أنه
 يذهب إلى تجديد العهد والاجتماع بنا ، على ما يفعله مع السلاطين . فلم نشك
 أن ذلك للتقبض علينا وإنجاز ما عاقد عليهم . فاجتمع علينا أهل الرأي
 والمشورة ، وقالوا : « ما الذى تذهب إليه ؟ هذا عدو قد جاء لطالبك ،
 ولا قدرة بك على مناواته ! وسواء عليك خرجت أم بقيت ! فإن أنت
 بقيت ، حلت بك الداهية العظمى ، ووقعت المفسدة ، وأصاب مطالبك
 سيلاً إلى العمل ؛ وتكون هذه أشد من الأولى ، وقت رفضنا بطره سولس
 ١٠ وألقى ابن عمار يده* فيه حتى بنى علينا يليلش . والآن لم يتروح مخفقنا ٣١(١)
 حتى نعود إلى ما هو أدهى وأمر ؛ فلو رأت الرعايا بعض خلاف من هذا
 الجيش ، لم تبق ولا تذر لشعة ما قد دهموا به قبل ، وكان الرجاء ينقطع ،
 ويتلف الكل حتى تؤخذ هنا باليد على غير صلح ، فلا يربق فينا
 إلا ولا ذمة ! فالخرج إليه أيسر لأمرين : فإن كانت سلامة ، شكرت
 ١٥ رأيك ، وثبت ملكك ؛ وإن كانت الأخرى ، كان خروجك عن
 أمان ، وصرت حيزاً فى العاقبة ! فاعزم على لقائهِ^(١) ، وقل له قولاً
 لئنا ؛ والله أن يُنفذ قضاءه .

فاستعدنا لذلك جهداً ، وأجمعنا حوالينا من تثق به من رجالنا ،
 وأخذنا أهبة الحال ، ولقيناه على مقربة من المدينة ، وبالننا بالضرورة فى
 ٢٠ إكرامه ؛ فأعرض علينا وجهاً بسيطاً وخلقاً حسناً ، ووعدنا أنه يُجابهى

(١) أصل : « لقاء » .

عنا كما يُجاي عن بلده .

ثمّ وقعت المعاملة ، ومشت الرثمل منّا إليه ومنه إلينا ، يُبيّن ما عُوقِدَ عليه وأنّه سيقَ سَوْقًا ، ويقول : « إني قد تشبّث في الأمر ، ولم نُعجّل حتى نسمع ما عندكم . فإن جاملتموني ورأيتم لقصدى وجهًا ، انصرفتُ عنكم على خير ، وإلاّ ، فما أنا مع من عاقَدَنِي ! » وطلب خمسين ألف مثقال .

فشكّونا إليه قلة البلاد ، وأنّ ذلك لا يقدرُ عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفتَرِصُنا به ابن عباد ؛ فإنه ، لو أخذَ غرناطة ، قوى عُنصره ، « ولم ينطع إليك . فخذ ما تقدر إليه ، واترك رَمَقًا لا نستأصل من أجله ! وما تركت ، تجده عندنا متى ما طلبت ! » قبل العذرَ بعد جهدٍ عظيم ، وقاطعناه لقصدَه بخمسة وعشرين ألفًا ، نصفِ العدد ؛ ثمّ أعدَدنا له من

الفرش والثياب والآنية كثيرًا ، استدفاعًا لشره ؛ وجَمَعنا ذلك كله في خِباء كبير ، ودعوّناه إليه . ولما رأى الثياب استحقَرها ؛ ووقع الاتفاقُ معه على زيادة خمسة آلاف مثقالٍ لِنتمّ بها ثلاثون ألفًا ؛ فأكلناها له لئلاّ ينفسد الأَكثَرُ عن * الأهل . فشكر على ذلك كلّهُ ، وطابت عليه نفسه . ١١ (ب)

١٥ ورجع إلى ابن عمار يقول له : « كذبت لي في قولك إنّ غرناطة في ضَعْفٍ ، وإنّ صاحبها من صغر سنّه لا يعقل ! ورأيتُ من رتبها وأحوالها ما خالف قولك ! »

فرجع ابن عمار يسأله أن يعقدَ بيننا عقدًا يُوقِفَ عنده ، واسمّاه على أخذِ إسْطَبّة من عندنا ؛ وكانت مَثقَلًا عظيمًا مما يليّ جهاتِ إشبيلية ، قد كان أخذَه قائدنا كِتابُ في الفتنه . وسألناه نَحْنُ خَبرَ القلعة ؛ فوقع الاتفاقُ على أن تكون قلعة أسطيلير عِوَضًا من إسْطَبّة .

وكانت قاشترة ومارتش المتعَلِّين اللذين على جَيَّان . ومن أجلهما انقطع
صاحبها عَمَّا [ما كَسَن] ولم تكن لجَيَّان معنى إلا بهما . فترامى ابن عمار
في أمرهما على الفونش ، ووَعَدَهُ على مارتش بأموالٍ كأنَّه يشتريها منه .
فَعَزَمَ علينا فيها للطمع في اللال ، ووَعَدَنَا نَحْنُ على قاشترة بالمَطْمَر ، وكان
أيضاً حِصْناً قد اشترك نَظَرُهُ مع نَظَرِنا بِيَدِ ابن ذى النُّون ؛ فَضَمَّنَ خَبْرَهُ
أنَّه يعطيه لنا عِوَضاً منها ؛ فدافعنا الأثر جُهدَنَا : فلم نقدر على أكثر فعلِ
القوى مع الضعيف ،

ثمَّ إِنَّهُ عَقِدَ الْعَقْدَ بَيْنَ يَدَيْهِ على ذلك ، وأن لا يتعدَّى مِنَّا أَحَدٌ على
صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كلَّ عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة
آلافٍ مِثْقَالٍ في العام ، وطِيبَ لنا الكلام بأن قال : « طمع ابن عمار
أن نقدر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك أن يشيع في الدنيا أن مِثْلِي كبيراً في
الروم يقصدك ، وأنت كبير في جنسك ، ثمَّ نقدر بك ا فابقِ على أمان !
لا أَكَلَّفُكَ إِلَّا الضريبة ، مُتَوَجِّهٌ إِلَى بها في كلَّ عام دون مَطَلٍ ؛ وإن
تَأَخَّرْتَ بها ، أتاك رسولٌ عنها وتزامك عليه نفقات ؛ فَبَادِرْ بها ! »
فَقَبِلْنَا قَوْلَهُ ، ورأينا إعطاء عشرة آلاف في العام ندفع بها مَضَرَّتَهُ خيراً
من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، إذ لم تكن بنا قدرة على مُلَاقَاتِهِ وَمُسْكَاتِهِ ،
ولا وَجَدْنَا من سلاطين الأندلس عَوْنًا عليه إلا من يسوقه إلينا لهلاكنا .
فَبَقِيَتِ الأمور على مُصَالِحَةٍ ومُهادنة* ورفاهية ، لا يُسْمَعُ فيها بَفِتْنَةٍ . ٣٢ (١)

٣٧ — استيلاء الفونش السادس على طليطلة

٢٠ ومَّا هَيَّأَهُ اللهُ أَنْ قَعَدْنَا وسائط السَّوْءِ بعد ذلك بقَدِ ابن عمار ،
وشغله في مُرْسِيَةٍ ، وبزوالِ سِمَاجَةِ عَنَّا وأشياءٍ . وتوفَّى قبل ذلك ابنُ

ذى النون عند بلوغه آماله بقرطبة ، وكانت الأندلس قد ارتجبت له ، وخافه الرؤساء ؛ فلم يلبث بها يسيراً حتى مات : وكذلك الأشياء إذا تمت . وكان أهل العلم يخبرون بذلك أنه إذا حصل على قرطبة ، فقد تمت أيامه وإذا تم شيء ، دنا نقصه .

٥ ثم خلع من بعده حفيده ، وقام عليه أهل بلده ، ولجأ إلى ألفونس ؛ فصرفه إليها على قهري وغلبة ، إلى أن جعل عليه أموالاً جسيمة ، أشدها ما جعل على نفسه في شراء حصن من ألفونس على مقربة من طليطلة بمائة وخمسين ألف مثقال طيبة وخمسمائة مدي من طعام ضيافة لكل ليلة مدة مقامه عليه : أخذها من أهل بلده حتى ضعفوا . ولازمها ألفونس حتى صارت إليه . ١٠ وعوض صاحبها ببكنسية ؛ ولم يعترض له مالا ولا أهلاً غير الذهب والفضة . وكان حفيد ابن ذى النون ، في أقل ولايته ، لم يقدم شيئاً على الصدر بوزير جدّه [ابن] الحديدى لسعاية البغاة أعدائه ؛ وسوّلت له نفسه أن قتله لا يصح إلا على يدي قوم قد سجنهم جدّه على بصيرة ؛ فأطلقهم وسلّطهم عليه ؛ ولما تمكنوا منه ، كان كذبهم عليه أشد ، وصاروا طالين للتأر ١٥ وكانوا أقوى الأسباب في فساد ملكه ، وهم بنو اللوارنكى ، وبنو معيث ، ومن انحاش إليهم . وكان قديراً على قتله دونهم ؛ لكن العجز وضعف رأى عمياً عليه وجه الصواب .

٣٨ — استيلاء ابن هود على دانية . بعض أخبار بني هود

وحصل أيضاً ابن هود على مدينة دانية بغفلة صاحبها عن الرجال وجبه ٢٠ في الأموال ، مع مداخلات أوتى بها من قبل وزيره ابن الرئولة ، الخارج

عنه إلى سَرَقُطَّة ؛ فحصل عليه مع ابن هود حتى أتاه على غفلة ، ودخل
للمدينة بلا مشقة ، وحصل منها على عظام من الأموال بوفرها . وكان* ٣٢ (ب)
عنده وَلَدٌ مُجَاهِدٌ صَاحِبٌ دَائِيَّةٍ مَكْرَمًا حتى مات .

وَإِنَّ ابْنَ هُودٍ ، لَمَّا حَصَلَ عَلَى دَائِيَّةٍ ، انْقَسَدَ طَبْعُهُ ، وَأَدْرَكَتْهُ الرِّغْبَةُ
ه في البلاد ، وزال عما كان عليه من جهاد الروم ، وطَمِعَ فِي بَلَنْسِيَّةٍ عِنْدَ
ذَلِكَ ، وَأَعْطَى عَلَيْهَا أَمْوَالًا جَسِيمَةً لِأَلْفُونْشٍ ؛ وَالْفُونْشُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، عَلَى مَا قَدَّمَ مِنْهَا
ذَكَرَهُ ، يَأْخُذُ الْأَمْوَالَ ، وَلَا يَحْقُقُ لِأَحَدٍ أَنْ يُهَاوِدَّهُ عَلَى أَخْذِ بَلَدٍ . فَتَوَقَّى
ابْنُ هُودٍ فِي إِثْرِ أَخْذِهِ لِدَائِيَّةٍ وَبُلُوغِهِ آمَالِهِ مِنْهَا . وَقَدْ كَانَ ابْنُ الْخَلِيطِ
الْمُنَجِّمُ ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ ؛ وَلَقَدْ قَرَأْتُهُ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْقَضِيَ ، حَتَّى
رَأَيْتُهُ عَيْنًا . ١٠

وَكَانَتْ قَضِيَّتُهُ فِي دَائِيَّةٍ كَقَضِيَّةِ ابْنِ ذِي النُّونِ بِقَرْطُبَةٍ : فَإِنَّ ابْنَ
هُودٍ اهْتَزَتْ لَهُ الْأُنْدُلُسُ عِنْدَ حَصُولِهِ عَلَى دَائِيَّةٍ ؛ وَجَزَعَ جَمِيعُ الرُّؤَسَاءِ
لِأَخْذِهِ لَهَا دُونَ قِتَالٍ وَلَا زَمَانٍ ، وَأَعَدَّ كُلُّ أَحَدٍ عُدَّتَهُ مُتَاهَبًا لَشَرِّهِ ، إِلَى
أَنْ أَرَاهُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَقَبَضَهُ عَلَى فِتْنَةٍ وَاقْتِبَالَ أَمَلٍ .

ثُمَّ قَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْمُؤْتَمِنُ ؛ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ . وَشَعَرَ
١٥ الْمُؤْتَمِنُ لابن الرُّيُولُهِ وَزِيرِ أَبِيهِ بِأَعْمَالِ فَاسِدَةٍ مَعَ أَلْفُونْشٍ ، لِيَتَخَذَهُ لِهَ خِدْمَةٍ
ابْنُ عَمَّارٍ ، فَيَرَأْسَ لِنَاكَ عِنْدَهُ عَلَى أَهْلِ زَمَانِهِ خِذْلَانًا وَطَغْيَانًا ؛ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ .
وَتَوَقَّى الْمُؤْتَمِنُ ، وَوَرِثَهُ الْمُسْتَعِينُ حَقِيدُهُ هَذَا الْوَالِي الْآنَ .

وَكَانَ الْمُؤْتَمِنُ رَجُلًا عَالِمًا ، قَدْ طَالَعَ الْكُتُبَ ، مَعَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ
٢٠ الْآثَارِ ؛ فَرَأَى مَوْتَهُ قَرِيبًا . فَكَانَ لَا يَسُرُّهُ بِالْمَمْلَكَةِ ، وَيَزْهَدُ فِي كَثِيرٍ مِنْ
الدُّنْيَا . وَلَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ مَنْ حَضَرَ تَجَلُّسَهُ مِنْ أَعْلَامِ جُنْدِهِ أَنَّهُ كَانَ

يُريهم ذخائره التي لم يجمع مثلها عند ملك ؛ فَيَهْتَنُونَهُ عَلَيْهَا ؛ فيقول لهم :
« ما أصنعُ بها ، والمدةُ يسيرةٌ ، ولا أدخلُ منها قبري إلا بكفنٍ ! »
فكان يكدر قوله ذلك عليهم ، حتى مات .

وكان مُنْذِرُ أخوه بدانية ، إلا أن أباهُ الشيخ لم يُمكنه من مالٍ ،
حذراً منه أن يخالف على أخيه لحدته وشدة بأسه . فلما توفى المُقْتَدِرُ ،
اضطربت الفتنَةُ بينهما . وكان مُنْذِرُ منهما* يتَضَعُضَعُ له ويتكافى به ، ٣٣ (١)
لِمَا كان من إحسانه للأجناد ومواساته لهم ، إلى أن توفى بعد أخيه ؛
وقام ابنٌ له صغيرٌ بعده ، يُدَبِّرُ مُلْكَهُ وزيَرُهُ .

٣٩ — ثورة ابن عمار على المُعْتَمِدِ بِمُرْسِيَةِ

إلى أن أخرجه منها ابنُ رَشِيق .

١٠

أعماله بعد ذلك ومهلكه الشنيع

وصار ابن عمار في حَيْزِ الخِلاف على المُعْتَمِدِ ؛ وجَعَلَهُ يَطْلُبُ مُرْسِيَةَ ،
واعترأ عليها مشقات ونفقات أموال . وجَرَى من أسرِ ابن المُعْتَمِدِ عليها
ما قد شهر . وطال مكثه على مُرْسِيَةِ ، يُحزَّبُ عليها الأحزاب وينفق
الأموال ، يُرى سلطانه أن السَّعْيَ له ؛ وهو في الباطن يجدُّ لنفسه ،
لَكِنِّي يَتَّخِذُهَا مَعْقِلًا يَرَأْسُ فِيهِ ، كالذي صَنَعَ . ولقد كان يقول أهلُ
العِلْمِ بالآثار والتأثير : « إنَّ مُلْكَ بنى عباد يتناهى حتى يبلغوا إلى تدمير ،
ومن ثمَّ يَتَمُّ هلاكهم . وكان الناسُ إذ ذاك يتوقعون عليه الفساد عند محاولة
ابن عمار لأمرها ؛ فلم يكن إلا بعده مجين ، عند بلوغ الكتاب أجله .

وصار ابن عمار بِمُرْسِيَةِ بأقبح طريقة من الاستخفاف بالناس ، واستعمال ٢٠

للعاصي ، والإيمان على الآخر ، حتى أبغضه أهلها . وكان للمعتد طاعة في معصية ؛ واشتهر بأخذ عريضه وهيجوه بما قد تَزَّهَهُ اللهُ عنه ، فقل الأوغاد والأرذال .

- وقدم إلى مُرْسِيَّة ابن رَشِيْق ؛ فكان يطويها وينشرها ؛ وشَبَكَ عليه ٥ المعاقِل بقرابته ، واتَّخَذَ لنفسه صنائع مُدَّة غفلة ابن عَمَّار عنه وإقباله على راحته ، إلى أن خرج عن مرسية ، يُريد لنفسه في رسالة النصراني لِيُخْدَم أمرَ الأنظار التي تُجاوِره في الشرق ، وعسى يَضَعُها في يَدَيْهِ ، مِثْلَ شَتِّ مَرِيَّة ، ويستعى في إصلاح ما أَفْسَدَ عليه ابن رَشِيْق ؛ فإنه لم يَجِدْ إليه سِيلاً لِكَلْبِهِ عليه . ولَمَّا نهض إلى أَلْفُونُش ، فأَوَّلُ ما سَعَى في تَصْغِيرِ طَلِيطَلَة إليه بِمُداخَلَة أهلها ، لِيَكُونُوا حاكِمين أَنفُسَهُمْ ، وَيُوَدُّوا الجزية ١٠ للنصراني دونَ رئيس . وأتى طَلِيطَلَة ، وابنُ ذِي الثَّوْنِ فيها بِاسْمِ * الرسالة ، ٣٣ (ب) ووافقَ على ذلك ، وَخَلَّ أَلْفُونُش عليها ، في حين صَرَفَ حَاجِبِهَا إليها بِدَ خَلَعَ أهلها له ، لِيَقْبَلَ له بوعده ، ثُمَّ يَمُكِّسُ عليه القِصَّة ، فيقتل . فشرَ لَنَلك ، وغلبَ حفيدُ ابن ذِي النونِ القِئَّةَ القائمةَ عليه . فقرَّ منهم ١٥ مَنْ خَلَصَ إلى أَلْفُونُش ؛ وفرَّ ابنُ عَمَّار .

- ولَمَّا لم تَمَّ له خدمة أَلْفُونُش في ذلك ، نهضَ إلى صاحبِ سَرَقُطَة ، وتَخَدَّم له خَبَرَ شَقُورَة (وبها ظُفِرَ به ، ووُجِّهَ به إلى المَعْتِد) . فلما ثبتَ أَنَّهُ استقرَّ عند ابن هود ، عَدَرَهُ فيها — أعنى مُرْسِيَّة — ابنُ رَشِيْق ، مع استمالته لأهل البلدة ؛ واستحسنوا ولايته . ولم تكن لابن عَمَّار ٢٠ بعد ذلك رجعةٌ إلى مُرْسِيَّة ، وصارَ خادِماً عند ابن هود صاحبِ سَرَقُطَة . ولَمَّا احتلَّ بذلك القطر ، أَضْرَمَهُ ناراً ، وأَهاجَ فيه فِتْنَةً ؛ وصارَ سفيراً

لِلإِفْرَنْجِ . وَأَثَرُهُ ابْنُ هُودَ ، وَقَرَّبَهُ ، رَجَاءَ مِنْهُ أَنْ يَنَالَ عَلَى يَدَيْهِ مَا نَالِ الْمُعْتَمِدُ ، لِذَلِكَ قَامَ لَهُ عِنْدَهُ مِنَ الطَّارُوسِ بِسَعَادَةِ صَاحِبِهِ ، لَا بِأَعْمَالِهِ . وَكَانَتْ الْعِدَاوَةُ الْوَاقِعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُعْتَمِدِ عَلَى يَدَيِ الرَّشِيدِ ابْنِهِ ؛ فَإِنَّهُ ، بِفُسُوقِهِ ، كَانَ يَتَكَبَّرُ عَلَى أَوْلَادِهِ ، وَيَضِيقُ عَلَيْهِمْ ، وَيُسِيءُ الصَّنِيعَةَ ٥ مع من يجب عليه إكرامه من قرابة سلطانه ؛ والمُعْتَمِدُ ، فِي هَذَا كَلَّهِ ، يَصْبِرُ لَهُ ، وَلَئِنَّهُ كَانَ قَدْ اسْتَمَالَ النَّصَارَى ، وَانْدَخَلَ مَعَهُمْ بِحِيلَةٍ : فَتَقَى مَا دُمَ أَمْرٌ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَجَهَهُ إِلَيْهِمْ ؛ فَيَنْجَلِي مِنْ أَمْرِهِمْ مَا يَضِيقُ الصَّدْرُ بِهِ ؛ وَكُلُّ ذَلِكَ بِأَمْوَالِ رَئِيسِهِ وَسَعَادَةِ أَيَّامِهِ ، وَهُوَ بِجَهْلِهِ يَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِسَبَبِهِ ، وَيَرُدُّ الْحَسَّ كُلَّهُ إِلَى نَفْسِهِ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْمَعَانِي مِمَّا أَحْنَقَ عَلَيْهِ الْمُعْتَمِدُ ، حَتَّى عَقَّبَ عَلَيْهِ بِمَا كَانَ جَدِيرًا بِهِ ، وَأَمَّا كَنَّهُُ اللَّهُ مِنْهُ ، وَجَازَاهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهُ مُبْدًى ، وَلَا رَأَى لغيره أَهْلًا . وَكَانَتْ شَقُورَةٌ قَدْ أَخْلَاهَا الْمُعْتَمِدُ ، وَبَنَى صَاحِبُهَا — عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ سِرَاجِ الدَّوْلَةِ — أَنْ يَضَعَهَا فِي يَدَيْهِ ؛ فَلَمَّا صَارَ* ابْنُ عِمَارٍ إِلَى سَرَ قُسْطَةَ ، نَهَضَ إِلَى الْعَبْدِ الْمَذْكُورِ ، ٣٤ (١) عَسَاةَ يَرْجِعُ إِلَى طَاعَةِ ابْنِ هُودَ ؛ فَتَقَفَّهُ وَأَرْسَلَ بِهِ إِلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ قَتَلَهُ شَرًّا قَتْلًا . ١٥

وإنَّ ابْنَ رَشِيقٍ بَعْدَ ذَلِكَ سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْخِلَافَ عَلَى الْمُعْتَمِدِ ، وَاحْتَجَّ بِأَنْ قَالَ : « لَمْ يُقَدِّمْنِي إِلَى مُرْسِيَّةٍ ! » وَزَعَمَ أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اخْتَارُوهُ ، وَأَنَّ مُقَدِّمَهُ إِنَّمَا كَانَ ابْنُ عِمَارٍ مَتَى ذَهَبَ عَنْهَا . وَسَنَدُّ كُرٍّ مِنْ أَمْرِهِ بَعْدَ هَذَا ، عِنْدَ ذِكْرِ أَحْوَالِ الْمُرَابِطِينَ — أَعَزَّاهُ اللَّهُ — وَقَصْدِهِمْ إِلَى لَيْسَ ، مَا انْقَضَى مِنْ خَبَرِهِ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَشْهُورٌ . ٢٠

٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب إشبيلية

لَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَليمٌ سرُّ الأمرِ كالذي نَصِفُهُ نَحْنُ . والدليلُ على ما قَدَّمناه ذِكْرَهُ من ارتباطِ الْمُعْتَمِدِ إلى الْخَيْرِ وإِشارِهِ للصلحِ بزوال هذا الفاسِقِ ابنِ عَمَّارٍ عن دولته ، لم يُرَ بعده فِتْنَةٌ فيما بَيْنَنا وبَيْنَهُ ؛ وَحَقَّقَ معنا في كُلِّ أمرٍ ، كالذي قَصَلْنَا نَحْنُ معه . وَجَدَدْنَا العَقْدَ على ما ارتضيناهُ من مُعَاوَضَاتٍ ، سِوَى ما كان قَدِيمًا بيده ، مما خرجَ عَنَّا في أيامِ المُظَفَّرِ ، وَأَخَذَتِ الفِتْنَةُ عليه حَقَّها ، ولم يوجَدَ في طَلَبِ ذلكِ خَيْرٌ ، ولا إلى غيرِ المُصَالِحَةِ سَبِيلٌ ،

١٠ قَرَّرَتِ الأحوالُ قَرَارَها ، وَتَهَيَّي كُلُّ واحدٍ مِنَّا بِمُلْكِهِ إِلَّا ما كان من سَيْفِ بَرٍّائِي يَعْتَرِضُ بِلادَنَا من الرُّومِ ؛ فَكان الرُّزْءُ فيه واحداً والمشاركة سواءً ؛ وَإِنْ كُنَّا لا نَقْدِرُ على ذلكِ بالإمدادِ بَعْضُنا لِبَعْضٍ لضعفِ الحالِ ، فَكُنَّا تَشَارِكُ بِالْمُدَاخَلَةِ وإِعمالِ الرأى والتَّحْذِيرِ من أمرٍ عسى أن يكون خفي عن الآخرِ وما أشبه ذلك .

٢١ - المؤلف يتحدث عن منهجه في كتابة مُذَكِّراته

١٥ وإذا أَتَيْنَا على ذِكْرِ جُمْلَةٍ من أحوالِ الأندلسِ الحادِثَةِ فيها ، المشهورِ خَبَرُها حسبما استفاض ، وَتَرَكْنَا وَصَفَ الاختلافاتِ ، إِذْ يوجَدُ الحقُّ في طرفٍ واحدٍ ، ولم يكن منها ما طَوَّلَعَ بِالشَّاهِدَةِ ولا بِالْمَعَايِنَةِ أَكْثَرَ من إِشَاعَةِ خَبَرٍ ، ذَكَّرْنَا منه ما يَنْقَاسُ في العقلِ ، وَحَذَفْنَا منه الإكْثَارَ وَالشَّكَّاتِ . وإِنَّهُ ، متى أَتَيْنَا على ذِكْرِ خَبَرٍ حَدَثَ في دَوْلَتنا بما حَاوَلْنَاهُ

أو شاهدناه* أَطْنَبْنَا فِي وَصْفِهِ ، وَقَتَلْنَاهُ عِلْمًا إِلَى آخِرِهِ ، وَأَخْبَرْنَا بِسَرِّهِ ٣٤ (ب)
 عَنْ جَهْرِهِ ، وَبَارَقَ الْأَسْبَابَ فِيهِ . وَالْإِطْنَابُ فِيمَا يَحَاوِلُ الْإِنْسَانُ أَبْلَغُ
 وَأَنْعَتُ مَنْ وَصَفَ لِلشَّاهِدَةِ لغير مَا يُخَصُّهُ ، كَمَا أَنَّ وَصْفَ الْمَشَاهِدَةِ ، وَإِنْ
 كَانَ لَا نَعْنِيهِ ، أَبْلَغُ مِنْ ذِكْرِ الْمُسْتَفَاضِ الَّذِي لَمْ يُوقَفْ عَلَى حَقِيقَتِهِ ؛ فَإِنَّمَا
 يُذَكَّرُ مِنْهُ مَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، ثُمَّ يَجْتَزِي وَاضِعُهُ عَلَى أَنْ يَضَعَ فِيهِ مِنْ عَقْلِهِ
 ٥ دُونَ الْأَغْلَبِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَامَةِ ؛ فَيَصِيرُ مُكْذَّبًا .

ولهذا مَا اخْتَصَرْنَا مِنَ الْكَائِنَاتِ لِلشَّهَوَةِ بِالْأَنْدَلُسِ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ
 عَنْهَا ، وَاقْتَصَرْنَا عَلَى الْإِطْنَابِ فِيمَا يَخْصُنَا مِنْهَا ، مِمَّا حَاوَلْنَاهُ أَوْ رَأَيْنَاهُ عَيْنَانَا .
 وَالْحَقِيقَةُ مِنَ الْخَبَرِ عَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا يَرُومُ الْإِنْسَانُ مِنْ صِفَةٍ فِي مَنْظُومٍ
 ١٠ أَوْ مَثْنُورٍ ، كَالْمَدْحِ أَوْ الْقَامِ ؛ فَإِنَّهُ ، إِذَا وَجَدَ إِلَى الْقَالَ سَبِيلًا ، أَطْنَبَ
 وَأَبْلَغَ ، وَإِنْ كَانَتْ بَعْضُ زِيَادَةٍ ، فَإِنَّهَا لَا تَمُكِّنُ إِلَّا فِي الْأَغْلَبِ وَالْأَكْثَرِ ،
 وَيَكُونُ فِي ذِكْرِ الْأُمُورِ مَصْدَقًا لِمَعْرِفَةِ النَّاسِ بِهِ ؛ وَلَئِنْ كَتَبْنَا لَمْ يَكُنْ
 مَبِينًا إِلَّا عَلَى وَصْفِ مَمْلَكَتِنَا خَاصَّةً ، « وَالْحَدِيثُ ذَوْشُجُون » ؛ فَلَا بُدَّ
 مِنْ ذِكْرِ جُمْلَةٍ مِنْ غَيْرِهَا عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَصْفِهِ أَوْ ضَرْبِ مَثَلٍ بِهِ ،
 ١٥ تَزِينًا لِلْكَلَامِ وَإِقَامَةً لِلْبُرْهَانِ وَدَوْرَانًا عَلَى الْحَقِيقَةِ .

الفصل السادس

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٢) مشاكل غرناطة الداخلية إلى قدوم المرابطين

٤٢ — عزل الوزير سِماجة

ثمَّ إجلالُه واستقلال عبد الله في الأمر

وإنه ، لما تهَدَّنت لنا الأحوال وقرَّ مُلْكنا قَرَّارَه بِمُصَالَحَةِ الْمُعْتَدِ ،
وَمُعَاقَدَةِ الرُّومِ عَلَى الْمُهَادَنَةِ ، وَتَوَطُّيْنِ النَّفْسِ عَلَى مَا نَعْطِيهِ ^(١) فِي الْعَامِ ،
انصرف نَظَرُنَا إِلَى إِصْلَاحِ أَمْرِ بِلَادِنَا ، وَالْفَتْشِ عَلَى رَعِيَّتِنَا ، وَالكَشْفِ
عَلَى الْعَمَالِ إِنْ كَانُوا عَادِلِينَ أَوْ ظَالِمِينَ . وَلَمَّا شَعَرَ بِذَلِكَ خَدَمَتُنَا وَمَنْ كَانَ
لَهُ مَذْهَبٌ فِي نَصِيحَتِنَا ، اتدب جميعهم إِلَى الإِعْلَامِ بِمَا عِنْدَهُ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى
مَا خَفِيَ عَنَّا زَمَانَ تِلْكَ الْفِتْنَةِ ؛ فَكُنَّا لَا نَقْبِلُ مِنْ أَحَدِهِمْ عَلَى الْآخِرِ إِلَّا بَعْدَ
رُويَةٍ وَهَجُومٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، حَذَرًا أَنْ يَكُونَ مَقَالُ أَحَدِهِمْ حَسَدًا لِلْآخِرِ
أَوْ طَلَبًا لَا يُتَّقَى اللَّهُ فِيهِ .

وكان سِماجة ، وزيرُ دَوْلَتِنَا الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، قد شعر بذلك وأحسَّ
مِنَّا ؛ فَاعْتَمَلَ لِلْأَمْرِ* وَعَمِلَ فِي نَفْسِهِ ، وَشَكَاهُ إِلَى إِخْوَانِهِ ؛ وَكَانَ فِيمَا قَالَ (١) ٣٥
لَهُمْ : « إِنَّمَا كُنَّا نَطْمَعُ بِالتَّحْكُمِ عَلَى هَذَا الرَّئِيسِ وَالتَّمَكُّنِ مِنْ دَوْلَتِهِ مَدَّةً

(١) أصل : « نطوط » .

- أَيَّامَ صَبُوتِهِ ، يَعْنِي صَغَرَ سَنَّهُ . وَأَمَّا الْآنَ ، فَلَسْنَا نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى رَدِّهِ
 عَنْ دَوْلَتِهِ ، لَا يَفْتَنُ تَحْمِينًا ، وَلَا بِصَغَرِ سَنِّ نَجِدُ بِهِ السَّبِيلَ إِلَى صَرْفِهِ عِنْدَ
 الْعَامَّةِ وَتَسْفِيهِ رَأْيِهِ ، لَا سِيَّامًا إِذْ كَانَ رَأْيُهُ النَّظَرُ مِنْ دَوْلَتِهِ وَالْبَحْثُ عَنْهَا .
 فَقِيلَ لَهُ : « لَسْتَ ^(١) نَجِدُ سَبِيلًا إِلَى أَكْثَرِ مِنَ الْمُدَارَاةِ لَهُ ، وَالْإِيتْيَانِ لِمَرْغُوبِهِ ،
 وَقَلَّةِ الْخِلَافِ عَلَيْهِ لَثَلَا يَتِمَكَّنْ عَدُوُّكَ مِنْكَ ، وَيَشْتَفِيَ حَاسِدُكَ عَلَيْكَ . فَهُوَ ،
 إِذَا وَجَدَ مِنْكَ الَّذِي يَرْغَبُ ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ يُبْعِلَ النَّظَرَ وَالْخِدْمَةَ وَيُفَوِّضَ
 الْأَمْرَ إِلَيْكَ ! ثُمَّ أَنْتَ بِالْخِيَارِ عِنْدَ غَفْلَتِهِ وَإِقْبَالِهِ عَلَى رَاحَتِهِ ! وَعَلَيْكَ
 بِإِشْغَالِهِ بِالنِّسَاءِ ، وَعَجَّلْ لَهُ ابْتِيَاعَ الرِّقِيقِ ! وَلَسْنَا نَأْمَنُ أَنْ يَكُونَ يَشْنُوكَ مِنْ
 تَحْجِيرِكَ هَذِهِ الشَّهَوَاتِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ نَظُنُّ بِهِ مَا يُظَنُّ بِمَنْ كَانَ فِي سَنِّهِ »
 ١٠ فَعَمِلَ ذَلِكَ . وَكَانَتْ هَذِهِ الْفَتْرَةُ الَّتِي دَبَّرَهَا مِنْ سَعَادَتِنَا وَتَمَكُّنِنَا مِنْ
 آمَالِنَا فِي الَّذِي ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنَ الْإِسْتِبْدَادِ بِمُلْكِنَا ؛ فَإِنَّهُ شَبَّكَ عَلَيْنَا الْعَاقِلَ
 بِبَنِي عَمِّهِ ، وَأَشَدَّهَا عَلَيْنَا مَدِينَةُ الْمُنْكَبِّ . فَجَلَّ يَطْلُقُ لَنَا الْعِنَانُ فِي كُلِّ
 مَا نُرِيدُهُ ، وَاشْتَرَى الرِّقِيقَ ، وَجَعَلَنَا نَخْرُجُ إِلَى الزَّهَاةِ فِي الْبِلَادِ ، يُرَى
 بِذَلِكَ الْإِنْصَافِ وَالنَّائِي ، إِذْ كَانَ الرَّجُلُ مَتَلَبِّيًا ، خَافًا مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ،
 ١٥ مَعَ أَنَّهُ كَانَ خَافًا مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ كُتُبِ اسْتَعْمَلَهَا عَلَى أَلْسِنَتِنَا
 أَقْوَامٌ مِنْ أَعْدَائِهِ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْ صِهْنَجَةِ يَأْمُرُونَ فِيهِ بِقَتْلِهِ ، وَتَحْنُ بَرَاءَ
 مِنْهَا ؛ فَظَفَرُوا بِالْكَتُبِ ، وَأَنْزَلُوا بِنَا التَّهْمَةَ ، وَأَمَرَ بِقَتْلِ أَوْلَئِكَ الْمُسَمِّينَ فِي
 الْكَتُبِ ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ اتَّهَمُوا مِنْ كِرَائِمِ بَادِيسَ — رَحِمَهُ اللَّهُ .
 وَكَانَتْ تِلْكَ الْمَعَانِي مَقَدِّمَاتُ تَغَاوُلِهِ لِعَزَلَتِهِ . فَلَمَّا كَانَتْ وَجْهَتُنَا إِلَى
 ٢٠ وَادِي آشَ عَنْ اخْتِيَارِهِ ، وَقَدْ كُنْتُ عَلْتُ مُعْتَقَدَهُ فِي ذَلِكَ كَلَّهُ بِالْقِيَاسِ

(١) أصل : « ليس » .

والمميز مع بعض الأخبار ، قلتُ في نفسي : « هذا رجلٌ قد اعتاد الأمرَ * ٣٥ (ب) والنهي ، ورأى من يَقْظَتْنَا للدولة ما لم يكن يُريده ؛ وليس فعله هذا بهواه ؛ وكلُّ شيء يضطرُّ فيه الإنسان ، فإليه لا يؤمن خلافه ، والرجة عنه ، والاستحالة فيه عند الأمن من مكروهه ! فنكون أبداً نكابد منه ما لا يوافق ! وإن فاتتني هذه المرة ، أكن كمن نُبِّه على أمرٍ وحذر من نفسه ، ثم أوبق نفسه إلى المضرات . وإن أغضينا هذه المرة وعاد إلى ما كان ، ثم نرى منه خلافاً ، لم ندر عليه شيء ، إذ يكون نظره لنفسه أجود من هذا النظر ، فإن هذا الأمر متناً جاءه فجأة لم يحسبه ولا ظن به ؛ والفرصُ تمرُّ مرَّ السحاب ! فادمنا^(١) نتحن بالخيار عليه ، لا نتربص حتى يكون هو بالخيار علينا ! » ١٠

فأراد إشاعة عزَلتِه بالحضرة عند إمكان السفر ؛ فلم نَرَ لَكَ وَجْهاً إلّا ونحن خارجون عنها ، ليكون أشنع في الناس وأقطع لياُس الرعايا ، مع أني ، إذا حركتُ هذا بالحضرة ، دخلتُه الصناعة ، وكتم عن الناس ، وشغبت امرأته من الدار . فلما وصلنا وادى آش ، جعلتُ من يدوس إلى الرعية أن ترفع بمظالمها ؛ وكان عاملها ابنُ أبي جوش ، صنيعة سِماجة للذكور ؛ فأمرتُ عند شكواها بثقافه . فأنكر الناس ذلك ، وهان عليهم أمره . وجمعتُ الرعايا والوزراء ، وحددتُ لهم حداً يَقِفون عنده ألاَّ يجعلوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ واسِطةً ؛ وأمرته هو بالانزام ما يخصه لنفسه ، وأن لا وزير لدولتي إلّا نفسي ؛ وحددت لكلِّ خادم ما تكون طريقته أن لا يتعدى سِواها . فسرَّ بذلك جميع الوزراء ، إذ تساوت أقدامهم ، وانكشف حجابي لهم ، لكي تكون حوائجهم إلى ٢٠

(١) أصل : « ما دام » .

دون مَنْ هو مِثْلهم أو دونهم . واعتبط الرعايا بعزلة الظلّة عنهم . وعزلتُ كلَّ من يُتهم بخيانة ، وقدمتُ عمّالاً إلى الجهات ، أريد تجديد الدولة . وعزلتُ بنى عمّه من الحصون ؛ ولقد كان فريقٌ منهم ، لما سمعوا بذلك ، يفرّون منها ويتركونها حتّى يوجّه إلى جندّها عن قائدٍ . ولم نلقَ في ذلك * كلّه مشقّة . ولم يبقَ إلّا ابن عمّه له ، صاحب المنكب ؛ ٣٦ (١) فجزع ، إن تركه ، أن يوجد إليه السيل بسببه ؛ فأخبرني بالأمر ، وسألني إرسال قائدي إليه ، فعزل . وسأل زأوى زوال أخيه بلبّار عن وادي آش . فكان ذلك كلّه على أتمكّن سعادة وأجود تقدير ، للذي شاء الله من تمام أيام وزارته .

١٠ ثمّ أمنتّه في نفسه ، وأبقيتُ عليه جميع أمواله إلّا الذهب والفضّة ، وسوّغته إنزالاً ينعاش فيه ، وأمرته بلزوم مجلسي وأنه مكرّمٌ طول حياتي . فقبل الرجلُ ذلك كلّه ، وأطاعنا في كلّ أمر أردناه دون خلاف ولا إظهار لمعصية ؛ فإنّه كان جزوعاً ، قليل الجرأة على العظام ، ولأنّه لم يجد فتنةً تعينه . ولحقّ بذلك أمنتّه في نفسه ، ومضى عليه دهرٌ طويلٌ على لزوم المجلس دون خدمة ، فلم يتركه . ١٥

وخاف منه مَنْ سعى في أمره من أهل الدولة ، وتوقعوا منه العودة ؛ فلم يزالوا يُعرون به ، وينقلون عنه من قبيح القول ، ويخافون من مغبة أمره ، ما لم ترّ معه وجهاً لإمساكه في البلدة ، احتياطاً على أنفسنا ؛ وربّما كدحت بعضُ تلك الأفاويل ، فهلك من أجلها . ولا استطعنا حينئذٍ ٢٠ على مُعاقبته لما ارتكب في صدر الدولة من قتل أولئك النساء ومن جرى مجراهنّ ، لشركته في ذلك مع سواه من شيوخ تلك الكاتّة ؛ فيسوه ظنّ

الجميع ، وتفسد من سببه الأحوال ؛ فلا يقوم فسادُ المملكة وسوء عاقبة الأمر بما يلزم من إقامة الحدِّ . فرأينا من الصواب أن يرتحل عنا دون تغيير ولا إبلاغ في عقوبة ، استماله لأنفس الناس ، وبَسْطًا لأموالهم . فخرج بجميع أثاثه وخدمه ودوابه وجميع ثيابه وفرشه ، مشيًا إلى المريّة . فكان المَعْتَصِمُ يُكرمه من أجلنا ، ولا يَأْسُ أن نصرّفه إلى منزلته ، فيقدّم ذلك الإكرامُ عنه . وخرّجت امرأته بجُلِّي كثيرٍ من الجواهر ، حاشى ما خفى عنا من المال ؛ * وإنما صار إلينا ما أعطيناه بأيدينا من الذهب والفضة أوّل ٣٣٦ (ب) ولايتنا ، وقت فتح بيت المال ؛ ولم تتحقّق ما اكتسب منها مدّة خدمته لنا ، ولا بحثنا عن ذلك .

١٠ ٤٣ — النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المريّة .
تعاقب أحداثه وحله

ثمّ قُمْنَا من بعده في أمور البلاد والرايا بأحسن قيام وأتمّة ، وجعلنا الأمناء على البحث والتعقب ورفع المظالم إلينا . ودام الأمرُ على ذلك دهرًا طويلًا .

١٥ وإمّنه ، في إثر مَضَى سِمَاجَة للذكور إلى المريّة ، بَلَفْنَا أَنَّهُ حَقَر الدولة لابن صُمَادِح وطمّعه فيها ، لِمَا كان يَرَى من طمع الرجل الذي قد شهر به — رحمه الله — ؛ فَإِنَّهُ كان كثيرَ الطمع ، قليلَ الجسر ، ضعيفَ المنة . فعمل قَوْلُهُ في نفسه ، ورجّا أن ينالَ على يَدَيْهِ فُرْصَةً بِمُداخَلَةٍ أو إدلالٍ على مَوْضِعٍ فائِدَةٍ ، كالذي تَهَيَّأَ له مع اليهودي .

٢٠ ووافقَ ذلك أن وقعتْ بين قائِدي النّظر ما بين فَنِيَانَةٍ والمُنْثَوْرِي

مُشَاجَرَةٌ عَلَى الْجِهَاتِ ؛ وَلَمْ يَتَيْمًا حِيَازَةً ذَلِكَ النَّظَرُ إِلَّا بِبُنَيَّانِ الْمُتَنَوِّرِي
 المذكور . وَقَدْ كُنْتُ ، عِنْدَ وَجْهِي إِلَى قِنْيَانَةَ ، أَرْسَلْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا يُعَلِّمُهُ
 بِوَرُودِي عَلَيْهِ ، وَسَأَلْتُهُ تِلْكَ الْقُرَى لِلصَّاقِبَةِ لَهَا وَإِنَّهَا أَوْلَى بِذَلِكَ الْمَعْقِلِ
 لِقُرْبِهَا ، وَتَطَارَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَكَارِمَةِ بِهَا ؛ فَكَانَ مِنْ جَوَابِهِ لِلرَّسُولِ :
 ٥ « هَيْهَاتَ ! لَيْسَتْ ^(١) تَمْلِكُ الْأَقْطَارُ إِلَّا بِالْبُنَيَّانِ وَالسَّيْفِ ! » فَلَمَّا عَلَتْ مُهِمُّ
 ذَلِكَ الْحِصْنِ عَلَى الْعَرِيَّةِ ، وَبَلَغَنِي مَا كَانَ مِنْ تَطْمِيعِ سِمَاجَةٍ ، وَتَذَكَّرْتُ
 مُرَاجَعَتَهُ عَنِ الْقُرَى ، أَغْضَبْنَا ذَلِكَ وَلَمْ نُؤَخَّرْ أَنْ عَاجَلْنَا بِبُنَيَّانِ ذَلِكَ الْمَعْقِلِ .
 فَقَامَ عَلَى الْمَقَامِ بِالْجِدِّ وَالْقُوَّةِ ، وَجَعَلْنَا فِيهِ حُمَاةَ الرِّجَالِ ؛ وَضَاقَتِ الْعَرِيَّةُ
 مِنْ أَجْلِهِ ؛ وَاحْتِيجَ إِلَى بُنَيَّانٍ مَعَاوِلَ غَيْرِهَا ، تَوْفَعًا أَنْ نَسْبِقَ إِلَيْهَا ،
 ١٠ فَيَكُونُ عِوَضًا عَنِ الْمُتَنَوِّرِي . فَقَامَ بُنَيَّانُهَا عَلَى سَاقٍ ، وَصَارَتْ كُلُّهَا حَرْزًا
 لِلجِهَاتِ الَّتِي لَنَا ، وَأَقْفَالًا عَلَيْهَا ، وَضَرَرًا عَلَى جِهَاتِ الْعَرِيَّةِ . فَعِيلَ بِالْأَمْرِ ،
 وَضَاقَ بِهِ ذُرْعًا ؛ وَكَانَ لَا يُوجِّهُ * عَسْكَرًا إِلَى مَوْضِعٍ إِلَّا هُزِمَ ؛ وَأَسْرَنَا ٣٧ (١)

كَبَارَ رِجَالِهِ عَلَى طَرْلَبِش .

وَكَانَ عِدَّةُ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ سَبْعَةُ حَصُونٍ . وَكُنْتُ مَعَ هَذَا أَمْرٍ ^(٢) أَهْلَهَا
 ١٥ بِالرَّقَى وَحَرْزِ جِهَاتِهَا إِلَّا يَتَطَرَّقُ إِلَيْنَا طَالِبُ شَرٍّ . وَإِنِّي إِنَّمَا بَنَيْتُهَا صَوْلَةً
 وَتَهْيِيبًا ، حَتَّى نُصَالِحَ الرَّجُلَ عَلَى مَا يَنْقَعُ بِمَوَاقِفَتِنَا ، وَيَعْرِفَ أَقْدَارَنَا .
 وَإِنَّهُ ، لَمَّا ظَهَرَ مِنْ كَلْبِ الرُّومِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ مَا ظَهَرَ ، وَرَأَيْتُ نَفْسِي
 ظَافِرَةً مَتَى رُمْتُ مَعَ ابْنِ صَمَادِحٍ فِتْنَةً ، وَتَيَّيَّنَ لِي ضَعْفُهُ عَنِ الْمُنَازَرَةِ ،
 صَرَفْتُ نَفْسِي عَنِ التَّمَادِي وَالْإِلْحَاحِ ، وَقُلْتُ : « أَنَا فِي مِثْلِ هَذَا مُدْرِكٌ ! »
 ٢٠ لَا يَفُوتُ مِنَ الْأَمْرِ مَتَى أَرَدْنَا هُ شَيْءًا . وَحَسَبْنَا مَا قَدْ ظَهَرَ إِلَيْنَا ؛ فَلَا يَبْقَاءُ

(١) أصل : « ليس » . (٢) أصل : « نأمر » .

أُولَى ، وإصلاحُ الأمر مع الجار — وجارٌ ضعيفٌ يُبْقَى عليه — خَيْرٌ من تَهْيِئَتِنَا لِقَوِيٍّ لَا يُرَامُ ! ولقد كان المظفرُ على بصيرةٍ من إتيائه لدولته وإبقائه عليه ؛ ولنا فيه أسوةٌ وقدوة ! »

فصَالَحْتُ الرَّجُلَ ، وَأَمَرْتُ بِهِدْمَ تِلْكَ الْحِصُونِ ؛ وَنُشِرَتِ لِلرَّيَّةِ مِنْ كَفَنِ . وَتَمَكَّنَ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَدَنَا ، وَصَارَ أَصْدَقَ النَّاسِ لَنَا :
وَلَا خَيْرَ فِي حِلْمِهِ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ بَوَادِرُ تَحْمِي صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا
فَلَمْ نَزَلْ مُتَعَاقِدَيْنِ مُتَشَارِكَيْنِ فِي الْحَلْوِ وَالْمُرِّ إِلَى انْصِرَامِ الْأَجَلِ ،

٤٤ — توجيهه عسكر ضدَّ تميم بن مُلَقِّين صاحب مألقة
وأخى المؤلف ، ونصره إِيَّاهُ

- ١٠ نَمَّ لَمْ نَلْبَثْ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَنَا مِنْ أَخِينَا تَمِيمٍ فُحْمَةٌ لَمْ نَحْتَسِبْهَا
بَعْدَ أَنْ رَأَى ظَهْرَنَا ، وَصُلَحْنَا مَعَ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ ، وَمَا صَنَعْنَاهُ بِجَهَاتِ
الرَّيَّةِ ، لَمْ يَفِرْقَ بَيْنَ هَذِهِ الْحَالَةِ وَالْحَالَةِ الْأُولَى ، لِفَرَارَةِ الصَّبَا وَقَتِ اصْطِكَكَ
الْفَتَنِ وَالشَّغْلِ الشَّاغل . فَحَسِبَ الزَّمَانَ كُلَّهُ وَاحِدًا . وَلَمَّا سَكَبَتْ عَنْهُ قَبْلُ ،
لِهَذِهِ الْعِلَّةِ عَلَى مَا قَدْ مَنَّا ذَكَرَهُ مِنْ بَدْءِ أَمْرِهِ ، تَمَادَى عَلَى تِلْكَ الْأَفْعَالِ . فَأَرْسَلَ
١٥ قَطَائِمَهُ إِلَى حَرْبِ الْمُتَنَكِّبِ وَشَاطِطٍ ، وَخَوِيلَةٍ فِي إِثْرِهَا لِلضَّرْبِ عَلَى النَّظَرِ
لِلصَّاقِبِ لَهَا . وَأَتَانِي أَهْلُ تِلْكَ الْجَهَاتِ شَاكِينَ بِالْأَمْرِ ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي :
« هَذَا إِنْسَانٌ لَمْ يُبَصِّرْهُ الدَّهْرُ ، وَلَا حَكَمَتُهُ التَّجَارِبُ : وَمَتَى تَرَكَنَاهُ * عَلَى ٣٧ (ب)
هَذَا ذَاتِبًا ، وَلَمْ نُوَدِّدْهُ عَلَيْهَا ، تَمَادَى شَرُّهُ ، وَحَسِبَ أَنَّ ذَلِكَ لِهَيْئَتِهِ ؛ فَازْدَادَ ،
وَلَا تَنْفَعُ فِيهِ مَوْعِظَةٌ وَلَا قِيلٌ ! » فَلَمْ نَجِدْ بُدًّا مِنْ تَأْدِيبِهِ وَزَجْرِهِ ، فَإِنَّ الشَّيْءَ تَحْقَرَهُ
٢٠ وَقَدْ بَنَى ! وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْإِغْضَاءُ لِمَعَانٍ تَوَقَّعْتُ ، وَانْتَظَرْتُ بِهِ لِحَسَنِ الْعُودَةِ

وروية البصيرة . فإذا قد يئسنا من هذا وأميّا ما يُشغلنا عنه ، فتركه على هذه الضلالة من العجز والخرق ! »

ووافق ذلك الزمان اشتغال المعتد بأمر الفونش ؛ فإنه نازل إشبيلية لتباعات تسبب بها ؛ وضاعت الحال من أجله . فاتفق الأمر وتهيات الأسباب على حين غفلة وانتهاز فرصة . فنهضنا بأنفسنا إلى ذلك القطر ؛ فوالله ! ما سمع بنا أهل حصونه ، ولم تتدارك بالخروج صبيحة ذلك اليوم ، حتى ورد علينا عن حصن القصر بجهة صالحه أنه صار في ملكنا وطاعتنا رعيته ؛ وهو حصن أول من يطوع وآخر من يعصى لدوى الغلبة والظهور ؛ فاستبشرنا بذلك ، وصيرنا إلى الحمة ، نروم منها أمر ذلك النّظر . فأعلّمت بصخرة دؤيس (ولا معنى لريته إلا بها ، وهي موسطة البلد) ، وقد اجتمع فيها جلّ عساكر مالقة مع قواد صاحبها ؛ فلو انتزعت تلك الشوكة ، كان أمر غيرها يسيراً هيناً . فاستعددنا لقتالها ، وضاربناهم في أول النزوع عليها . فجزع من فيها من الجند ، وأرسلوا إلينا تلك الليلة يطلبون الأمان ، ويخرجون بخيلهم سالفين في مهجهم . فأجبتهم إلى ذلك ، عسى أن نكون نستميل غيرها بهذه الأيادي ؛ وأخلوا الصخرة ، وصار فيها جندنا .

وانتقلنا عنهم إلى حصن كان صاحب مالقة قد بناه لقطع الطريق بيننا وبينه أول قيامه ، على ما رسمناه ؛ فلم يكن إلا ساعة قدومنا عليه وتخاذل من فيه ، ودخل قسراً ، وهو حصن أشنير . ثم نهضنا إلى مريّة بلش ؛ فألقت يدها . وأردت التمدى إلى بزيانة .

٢٠ وكان كيباب* بن تميم صاحب أرجدونة ، قائدنا ، قد استغلك ٣٨ (١) في تلك الجهة ، وزعم أنه لا يتعرّل إلينا . فلما رأى ظهورنا في هذه المعاقيل ،

خاف أن يَصْقَوْا الجَوْ وَيَصْرِفَ البَالُ إِلَيْهِ ، فرام أن لَا نَصِلَ إِلَى بَزِيَّانَةَ
وحذّر من ذلك . وكان وراءنا حِصْنٌ مُنْتِ مَاسٍ ، رأيتُ أنه لَا تَمَكَّنَ
لَنَا مُنَازَلَةً مَالَقَةً إِلَّا بِالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ فَإِنَّهُ يَمْنَعُ الْمِرَّةَ إِلَى التَّحَلَّاتِ . فانصَرَفْنَا
مِنْ بَزِيَّانَةَ نريدُ مُنْتِ مَاسٍ الْمَذْكُورَةَ ، وأظهرْنَا لَكَبَّابٍ الْأَخْذَ بِرَأْيِهِ ؛
فسرَّ بذلك . ٥

ولما نهضتُ إِلَى مُنْتِ مَاسٍ ، رأيتُ مَعْقِلًا عَظِيمًا ، قد اجتمعت بِهِ جَمِيعُ
الرَّعَالِ ؛ فَعَرَضْنَا عَلَيْهِمُ الطَّاعَةَ ؛ فَأَبَوْا ، خِيفَةً مِنْهُمْ أَنْ نَكُونَ غَدًا نُهَالِحُ
أَخَانًا وَيُعَاقِبُهُمْ ؛ فَأَمَّنَّا مِنْ ذَلِكَ . واجتمع فِيهِ كُلُّ فَاسِقٍ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ ،
وَأَعْرَضْنَا عَلَيْهِمُ الْحَرْبَ بِأَنْفُسِنَا ، وَتَرَكْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، وَرَتَبْنَا عَلَيْهِمُ الرُّتَبَ
وَانصَرَفْنَا إِلَى غَرْنَاطَةَ . وَفِي انصَرَفِنَا ، طَاعَتْ لَنَا غَيْرُهَا مِنَ الْمَعَاقِلِ ، مِثْلُ
أَيْرُشَ وَصَخْرَةَ حَيِّيبَ . وَكُنَّا فِي أَوَّلِ وَجْهَتِنَا قَدْ أَخَذْنَا رُيَيْنَةَ بِالسِّيفِ
قَسْرًا ؛ وَطَاعَتْ لَنَا جُطْرُونُ ؛ وَهَمَّا قَصَبْنَا مَالَقَةً . وَطَارَتْ فِي تِلْكَ الْمَدَّةِ عَنْ
يَدِهِ عَشْرُونَ مَعْقِلًا . وَانصَرَفْنَا إِلَى مُنْتِ مَاسٍ ثَانِيَةً ؛ وَيُتَسَوُّوا مِنْ تَرْكِهِمْ ،
وَطَاعَ أَهْلُهَا ؛ وَتَقَبَّلْنَا ؛ وَهَدَمْنَا مِنَ الْحِصُونِ مَا نَسْتَعْنِي عَنْ إِمْسَاكِهِ
بِغَيْرِهِ ؛ وَأَمَّنْتُ الْجِيَهَةَ وَبَحَثْتُ عَنْ فَوَائِدِهَا ، وَصَارَ ذَلِكَ مُقَيَّدًا ؛ وَأَوْسَقْنَا
أَهْلَهَا خَيْرًا . ١٥

ولما رَأَى أَخُونَا مَا دَهَمَهُ مِنَ الْأَمْرِ ، وَقِيَامَ رَعِيَّتِهِ عَلَيْهِ ، خَافَ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ ، مَعَ تَبَرُّزِنَا نَحْنُ عَنْ مَالَقَةٍ فِي حِينِ أَخْذِ مُنْتِ مَاسٍ . وَاشْتَغَلَ
بَعْضُ النَّاسِ بِقِتَالِ انْحَاذُوا إِلَيْهِ دُونَ مَوْضِعِنَا ، وَتَبِعَهُمْ أَكْثَرُ عَسَاكِرِنَا ،
فَاتَهَزَّ أَهْلُ مَالَقَةِ الْفُرْصَةِ ، لَمَّا رَأَوْهُ مِنْ قَلَّةٍ مَنْ فِي الْمَوْكِبِ مَعَنَا ، وَخَرَجُوا
عَلَى بَابِ فُنْتَنَالَةَ ، وَحَلَوْا عَلَى * الْعَسْكَرِ حَمَلَةً اخْتَلَطَ فِيهَا الْقَرِيقَانِ . وَلَمَّا رَأَيْتُ ٣٨ (ب)

يُفرار مَنْ معنا واختلاطهم بِجُنْدِ مَالِقةَ ، أَمْسَكْنَا على العلامات ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ
الطَّيْلِ بعد تَوَلَّيْهِ ، حتى اجتمع إلينا بعضُ الناسُ لَمَّا رَأَوْا ثُبُوتَ العلامات .
ثُمَّ كَانَتْ لَنَا عَلَيْهِمُ الكَرْةُ ، بعدَ أَنْ أُسِرَ بعضُ رجالنا ؛ فَأَتَقَذَّوْهُمْ ، وهَزَمُوا
عَسْكَرَ مَالِقةَ ؛ وَكَانَ بِهَا مِنْ جُنْدِ الْبَرَبَرِ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ فَارِسٍ أَنْجَادَ ، إِلَّا أَنَّ
الْحَزْمَ دَاخَلَهُمْ ، وَنَزَعَ إلينا أَكْثَرَهُمْ . ٥

وَلَمَّا رَأَى بعضُ مَنْ معنا تلكَ الهَزَّةَ ، أَشَارَ عَلَيْنَا بِالْانْصِرَافِ ، وَخَوْفَنَا مِنْ
تَقْوِيَةِ ابْنِ عَبَّادٍ أَنْ تَدْخُلَهَا مَا لَا يُمَكِّنُ ؛ قُلْتُ : « إِنَّ الْانْصِرَافَ على
هَذِهِ الْحَالَةِ مَجْرُؤٌ ! وَسَيُشِيعُ فِي الْجِيَةِ كُلِّهَا أَنَّ رَجَوَعَنَا لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَنْ هَزِيمَةٍ !
فَالْأَوَّلَى أَنْ نَكْشُرَ يَوْمَيْنِ نُفَرِّزُ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي اتَّخَذْتُمْ فِيهِ
الْخَيْلُ ، نُرِيهِمْ : إِنْ كَانَتْ بِكُمْ قُدْرَةٌ ، فَعَاوِدُوا مَا فَعَلْتُمْ ! » وَتَقَفْتُ الْعَسْكَرَ
لثَلَاثَ يَطِيشٍ مِنْهُ أَحَدٌ . فَكَانَ ذَلِكَ . وَأَقْلَعْنَا بِعِزَّةٍ حَتَّى وَصَلْنَا نَظَرْنَا على
أَتَمِّ مَا يُمَكِّنُ . وَلَوْ رَفَعْنَا أَوَّلَ تِلْكَ الْوَهْلَةِ ، خَلَّتْ جَمِيعُ الْمَعَاوِلِ الَّتِي طَاعَتْ
لَنَا ، وَكَأَنَّنا مَا صَنَعْنَا شَيْئًا .

فَبَيَّيْتُ الْحَالَ ضَيْقَةً على مَالِقةَ . وَأَرْسَلْتُ إلينا أَخونا ، يَسْتَعِظُ وَيَسْأَلُ
الْعَفْوَ وَإِقَالَةَ الْعَثَرَةِ . فَدَبَّرْنَا أَمْرَهُ فِي أَنْفُسِنَا ، وَعَمَلْنَا فِيهِ رَأْيًا سَدِيدًا ،
وَعَلِمْنَا مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَرَصِ وَالشَّرِّ وَالْخَدَّةِ ، وَأَنَّ صَرْفَ الْمَعَاوِلِ إلَيْهِ
تَقْوِيَةٌ لَشَرِّهِ ، وَأَنَّهُ ، إِنْ عَاوَدَ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ ، لَمْ يَقْدِرْ لَهُ على شَيْءٍ ،
وَلَا تَطْوِيعَ بَعْدَهَا رَعِيَّتُهُ إِنْ أَرَدْنَا هَمَّ بَعْدُ ، لَمَّا يَرَوْنَ مِنْ إِسْلَامِنَا لَمْ
إِلَيْهِ ، وَخَافُوا أَنْ يُعَاقِبَهُمْ ، مَعَ مَا كَانُوا يَنْقِمُونَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ الطَّرِيقَةِ
مَعَهُمْ ، يُعْلِنُونَ بِذَلِكَ ؛ وَأَخَذُوا مِنَّا مِيثَاقًا غَلِيظًا أَلَّا نُسَلِّمَهُمْ إلَيْهِ ، وَعَاهَدْنَا هَمَّ
على ذَلِكَ بِأَيِّمَانٍ مَغْلَظَةٍ . وَظَهَرَ مِنْ أَقْوِيلِهِمْ أَنَّهُمْ ، مَتَى رُدُّوا إلَيْهِ ، لَمْ

يُجِيبُوا* ، وأدخلوا الداخلة ، وصيروها إلى رئيس غَيْرَنَا . فَخِفْنَا مِنْ هَذِهِ ٣٩ (١) الوجوه ما يجب أن يتوقع .

ثُمَّ لَمْ تَرَ وَجْهًا فِي الْإِلْحَاحِ عَلَيْهِ ؛ فَرُبَّمَا أُخْرِقَ ، وَصِيرَهَا إِلَى سِوَانَا ، كَالَّذِي صَنَعَ مَا كُنَّا نَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ؛ فَتَكُونُ مُصِيبَةً لِلْبَلَدِ ، وَعَارًا عَظِيمًا ، ٥
مِنْ تَوَلِيحِ أَخِينَا وَشَقِيقِنَا إِلَى غَيْرِنَا ، وَتَقْرِيبِهِ فِي الْبِلَادِ ، وَأُمَّهُ فِي قَيْدِ الْحَيَاةِ ؛ وَلَوْ لَمْ تَكُنْ ، فَأَبْقَيْنَا عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَذْبَنَاهُ^(١) بِمَا كَفَى ، وَوَسَعْنَا عَلَيْهِ فِي النَّظَرِ مِمَّا لَمْ تَبْقَ فِيهِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ، وَكَانَ مُهِمًّا عَلَيْهِ ؛ وَأَخْلَيْنَا لَهُ رُبَيْدَةً وَجُطْرُونَ ؛ فَإِنَّ رَعِيَّتَهَا نَصَارَى ، وَهُمْ بَيْنَ النَّظَرَيْنِ ، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى نِفَاقٍ مَعَ أَحَدٍ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قُرَى يَتَسَّعُ فِيهَا لِمُرَاقَبَتِهِ . وَبَقِيَتْ يَدُهُ حُصُونُ الْغَرْبِيَّةِ ١٠
مِثْلَ قَرْطَمَةَ ، وَمِيشَشَ ، وَحَارِشَ ؛ وَأَعْطَيْنَاهُ قَامَرَةَ ، بَلَدَ الزَّرْعِ ، لِيَتَسَّعَ فِيهَا لِلْحَرْثِ . وَحَرَمْنَاهُ غَيْرَهَا ، الَّتِي يَتَوَقَّعُ مِنْ أَهْلِهَا وَمِنْهُ : إِنْ اسْتَأْذَنَ بِهَا ، لَمْ يَوْثِقْ شَرُّهُ .

وَبَقِيَتْ حَالُهُ فِي أَفْضَلِ الْأَحْوَالِ ، مَارَضِيَتْ بِهِ الْوَالِدَةُ وَحَدَّهُ جَمِيعُ النَّاسِ ، صَلَوةً لِلرَّحْمِ ، وَعَفْوًا عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ ، وَتَأْدِيبًا لِمَا يَخْشَى عَاقِبَتَهُ . وَقَرَّ ١٥
حَالُهُ قَرَارَهُ ، وَنَفْسُهُ فِي هَذَا عَلَيْنَا حَاقِدَةٌ ، تَبْلُغُنَا عَنْهُ أَقَاوِيلَ سَيِّئَةٍ ؛ وَنَحْنُ لَا نَمُوجُ عَلَيْهَا وَنَقُولُ : « إِضْرَارُهُ بِالْقَوْلِ خَيْرٌ مِنْ إِضْرَارِهِ بِالْفِعْلِ ، لَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ الْمَعَاقِلَ ! وَعَلِمْنَا أَنَّهُ فِي عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ طَائِلَةٌ مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي تَرَكَ جَدُّهُ بِمَالَقَةٍ ، لَمْ يَمُوجْ قَطُّ إِلَى نَفَقَةٍ دِرْهَمٍ مِنْهَا ، وَلَا نَالَتْ فِتْنَةٌ ، وَلَا بَلَغَ مَكْرُوهٌ ؛ وَكُنَّا نَحْنُ أَمَامَهُ نُقَاتِلُ عَنْهُ الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ ، وَنُعْطِي عَنْهُ الْجِزْيَةَ ، وَهُوَ فِي دَعَاةٍ ؛ فَإِذَا كَانَ يَدُهُ فَوْقَ مَا يَكْفِيهِ لِقَلَّةِ تَمَوُّنِهِ وَاحْتِيَاجِهِ ٢٠

(١) أصل : « وديناه » .

إلى نفسه في التَّوْنُ^(١) والنِّفَقَات ؛ فَإِنَّ هَذَا كَثِيرٌ ، وَهُوَ تَحْتَ نِعَمِ جَمَّةٍ !
 فَطَابَتْ أَنْفُسُنَا عَلَى ذَلِكَ . وَكَفَّ هُوَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا كَانَ يَرْتَكِبُ مِنَ الْقَتْلِ
 وَالظُّلْمِ ، حَتَّى أَنَّهُ لَا يَرِدُنِي مِنْ عِنْدِهِ رَسُولٌ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ جُنْدِهِ * ٣٩ (ب)
 إِلَّا وَيَوْصِي أَنْ نَشُدَّ يَدِي عَلَيْهِ ، وَيَقُولُ لِي : « بِتَأْدِيرِكَ لَهْ فَلَحْنَا وَكَفَّ
 عَنَّا ، وَإِنَّهُ ، مَتَى يَأْمَنُ مِنْكَ أَمْرًا ، طَعَى عَلَيْنَا ، وَشَقِينَا بِهِ . وَمَا فِي الدُّنْيَا
 أَشْعَرُ مِنْكَ فِي إِمْسَاكِ تِلْكَ الْمَعَاوِلِ عَنْهُ ؛ فَإِنَّكَ كُنْتَ بَعْدَ هَذَا لَا تَلْجِمُهُ
 أَبَدًا ! » فَخَرَجَتْ الْأُمُورُ خَيْرَ خُرُوجٍ ، وَأَمَّنَّا جِهَتَهُ بِسِتْرِهِ فِي مَكَانِهِ ، وَلَمْ
 نَفْجِعْ فِيهِ أُمَّه .

٤٥ — ذِكْرُ ثَوْرَةِ كِبَّابِ بْنِ تَمِيمٍ وَثَوْرَةِ بَنِي تَائِقُوتَ

وَنَهَايَتُهُمَا

١٠

وَإِنَّ كِبَّابَ بْنَ تَمِيمٍ ، قَائِدُنَا بِأَرْجُذُونَةَ وَأَنْتَقِيرَةَ ، لَمَّا رَأَى ظَهْرَنَا
 عَلَى مَالِقَةَ ، أَكْبَرَهُ ذَلِكَ وَشَقَّ عَلَيْهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْأَمْرَ مَنْجِزٌ إِلَيْهِ ، إِذْ
 كَانَ قَدْ أَضْمَرَ نِفَاقًا وَطَاعَةً فِي مَعْصِيَةٍ ، لَمَّا تَأَسَّسَ لَهُ هُنَاكَ فِي حِينِ الْعَتَةِ
 مِنْ ضَمِّ الْأَطِيعَةِ ، وَالِاسْتِحْوَاذِ عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بِقَطْعِهِ السُّبُلِ ، وَاتِّقَاعِ
 ١٥ أَهْلِ الشَّرِّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ . وَكَانَ أَمْرُهُ مِنْ ذُنُوبٍ سِمَاجَةٍ عِنْدَنَا ،
 الَّتِي سَوَّغَهُ الْبَلَدُ ، وَجَعَلَهُ مِلْكًا فِي يَدِهِ وَيَدِي بَنِي عَمِّهِ ، حَتَّى شَقِيَ بِهِ .
 وَلَمَّا تَمَّ صَلُحُنَا مَعَ الْمُعْتَمِدِ بْنِ عَبَّادٍ ، خَالَفْنَا فِيهِ ، وَجَعَلُ يُفْسِدُ وَبِنَقْضِ
 مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْرُءُ عَنِ الضَّرْبِ . فَجَعَلْتُ أَقْدِمُ إِلَيْهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ
 الْمَرَّةِ ، وَأَنْذَرُهُ عَاقِبَةَ اتِّبَاعِ هَوَاهُ ، وَأَقُولُ لَهُ : « إِنَّ لِلْمُصَالِحَةِ وَقْتًا يَنْبَغِي

(١) أَصْل : « التَّوْنُ » .

للتَّره حِفْظُهَا ؛ فَإِذَا أَفْسَدَتْهَا ، فَأَنْتَ مِنَ الْمُطَالِبِينَ لِي ا » فلا يَزْدَجِرُ مع هذا كُلُّهُ ، ولا يَنْفَعُ فِيهِ وَغْظٌ ، لِإِهْجَابِهِ وَتَحَامُّقِهِ . وَكَانَتْ كُتُبُ الْمُعْتَمِدِ أَبْدَأُ تَرَدُّ بِالشَّكْوَى مِنْهُ ؛ فَأَضْمَرَ لَنَا مِنْ كَفِّهِ غَائِلَةً . وَكَانَتْ مِنْ سَعَادَتِنَا أَنَّهُ لَمْ يَجْمَلِ الْمُعَامَلَةَ مع أَحَدِ الْقَرِيقَيْنِ .

- ٥ فلما طال الشَّكْوَى بِهِ ، قُلْتُ لِرَسُولِ الْمُعْتَمِدِ : « لَا اسْتَطِيعُ عَلَى عَزْلِ كِبَابٍ إِلَّا بِالْمُجَاهَدَةِ فِي مُقَاسَدَتِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَوْثَقْنَا مِنْكُمْ أَنْ يَتَرَأَى عَلَيْكُمْ وَلَا تَقْبَلُوهُ ، فَتَحْنُ ضَامِنُونَ لَمَزَلَتِهِ ا » فَارْتَبَطَ مَعِيَ عَلَى أَنْ لَا تُقْبَلَ لَهُ رَجْعَةٌ وَلَا يُتَقَالَ لَهُ عَثْرَةٌ . فَأَلْحَحْتُ عَلَى كِبَابٍ فِي أَنْ يَنْزِلَ عَنِ الْمُعْقِلَيْنِ ، نِقَّةً مَنًى بِمَا رَبَطْتُهُ مع الْمُعْتَمِدِ ، فزاد طَغْيَانَهُ ، وَخَاطَبَ عَلَى الْقَامِ إِلَى ابْنِ عَبَّادٍ ، * يَرْغَبُ فِي تَصْيِيرِ الْحَصُونِ إِلَيْهِ . فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُعْتَمِدِ بِكِتَابِهِ ،
- ١٠ وَحَضَّنِي عَلَى شِدَّةِ الْيَدِ عَلَيْهِ وَالرَّاحَةِ مِنْهُ ؛ ففعلتُ ذَلِكَ . وَهَذَا يَمَّا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنْ إِنْصَافِ الْمُعْتَمِدِ لَنَا وَقَلَّةِ خِلَافِهِ عَلَيْنَا مُذْ فَارَقَ ابْنَ عَمَّارٍ ، كَالَّذِي أَجَلْنَا نَحْنُ مَعَهُ فِي أَمْرِ بَيْيَاسَةَ ، وَقَدْ تَفَاقَ أَهْلُهَا وَأَرْسَلْتُ كِتَابَهُمْ إِلَيْهِ . وَإِنْ كِبَابًا قَبْلَ ذَلِكَ ، لَمَّا رَأَى صَنِيعَنَا بِمَالِقَةَ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ ، نَظَرَ
- ١٥ — فِي زَعْمِهِ — لِنَفْسِهِ وَقَالَ : « هَذَا مَا صَنَعَ بِأَخِيهِ ا وَطَاعَتْ لَهُ الرِّعَايَا ا فَكَيْفَ بَيْنَ هُوَ عَبْدٌ مِنْ عِبِيدِهِ ؟ » وَأَحْسَنَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ابْنُ تَاقُوتٍ ، صَاحِبُ مَدِينَتِنَا ؛ وَكَانَ امْرَأً سَوْءً ، كَثِيرَ الطَّغْيَانِ ، بَعِيداً مِنَ الْخَيْرِ ، مُؤَثِّراً لِلشَّرِّ ، وَكَانَ لَهُ أَخٌ بِحَصْنِ جَرِيْشَةَ ، قَدْ سَوَّغَهُ أَيْضاً سِمَاجَةً إِفْلِيمَ نَيْمِش كُلَّهُ ، وَطَالَ مَكْنُهُ فِي الْحَصْنِ سَبْعَةَ أَعوَامٍ ؛ فَسَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ ، مِثْلَ مَا أَضْمَرَ
- ٢٠ كِبَابٍ مِنَ النِّفَاقِ ؛ فَتَعَاقَدَا جَمِيعاً وَتَحَالَفَا أَنْ لَا يَنْزِلَ أَحَدُهُمَا إِلَّا بِعِزَّةِ الْآخَرِ .

فشعرتُ للأمر ؛ فأولُ ما ابتدأتُ به النَّظَرَ في أمر ابن تافنوت ، إذ كان أهمَّ علينا من أجل مدينتنا التي كانت بيده ، وجريشة بيد أخيه . ورأيتُ معاقدةَ المعتدِّ عليه آكدَ ، إذ علمتُ من حنقه على كباب أنه لا يقبل له معذرة . فعاملتني على ذلك أيضاً بأحسن مُعاملة ، وتسرح بمسكركه قوَّة إن احتيج إليه لحرب جريشة ، وشارك غاية المشاركة في التوسط بيننا وبينه ؛ وأرسل إليه رسوله ، يقول له : « إن كنت جَزَعْتَ من رئيسك ، فاترك حصنه ! وأضمن لك عنه الحال الصالحة والأمان والإحسان ، وإن كنت لا تثق بهذا كله ، فانزل إلىَّ بعد أن أعطيك عهدَ الله وميثاقه ألا أسلمك إليه أبداً ! » فما كان جوابه إلا إن قال : ٥ « وما تصنعون بالحِصن ؟ » قال : « أُصيرُه إلى صاحبه ! » فأبى وقال : ١٠ « إنَّما أريد أن أجعل التعقيل بيد من يُذيقه الشرَّ ويتولى فتنته ! »

فأتاني ابنُ* الأصبحيُّ رسولُ المعتدِّ ، التوسط لخبيره ؛ فقال لي : ٤٠ (ب) « اعزِّمْ على مُنازلة الرجل ! فليس فيه إلى الخير طريقٌ ؛ وهو متأهبٌ للشرِّ ، لا يقنعه إلا الإصرارُ بك ! » وكان في هذا كله يقطع السبيلُ ، ويُخيف الناسَ ، ويقتل أهل الرِّفق ، ويُطْلِع أموالهم إلى الحِصن ، ما كان أشهرَ في الناس من الشمس ، حتى لا يتجرأ أحدٌ أن يجتاز بشيء من تلك الجهات .

فاستخرتُ اللهَ على منازلته ، ومكثتُ عليه ستَّة أشهر ، لا نُبالى عما تنفق عليه من الأموال ، إلى أن رقتْ حاله ؛ وأنا في هذا كله أقدمُّ إليه وأبلى العذرَ عنده ، وأخوه في ثقافي . وأمرتُ أخاه بأن : « اكتبْ إليه أني متى أخذته على غيرِ عهدٍ ، برَّختُ بقتله ؛ وإن كان نزل على الأمان قبل ٢٠ (٧)

أخذه ، ولو بساعة ، لم يتوقع مئتي شيئاً ١ « فوالله ! ما تردُّ عليه هذه الكتب إلا ويزداد طغياناً وشماتاً وحماسة ، حتى يسرَّ الله أخذه ، ودخل الحِصْنَ ، وكفى الله شرَّهم ، وطهرهم من البلاد ، وأراح منهم العباد .

وشاورتُ كبارَ البلدة وقهلاءها في خبرهم ؛ فخيروني في الذي حضَّ الله عليه من قوله تعالى^(١) : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا ﴾ الآية . فرأيتهم مستوجبين للصلب ، وأنه أذهى وأمرُّ من أن يُنفوا من الأرض . فإن شرَّهم لا يؤمن . وكثيراً ما كان للمسلمون مُرتقبين لما حلَّ بهم ! ووالله ! ما صرفتُ وجهي لأحدٍ خاصةً وعامةً من أهلِ بلادى إلا ووصف لي من أفعالهم القبيحة ما وترواها جميع الناس . ولقد كان يومُ قتلهم للناس عيداً كبيراً من سرورهم وابتهاجهم بالراحة من شرِّهم .

وإنَّ كُتَّابَ بنِ تَمِيمٍ المذكور ، لما رأى ما صنَّعَ بيني تأقنوت ، زاده ذلك حماسةً واستيحاءاً ، وخطبَ المُقْتَمِدَ على ما قدَّمنا ذكره . فأرسلنا إليه نُعرض عليه التخلِّي عن المُتَقَلِّين ؛ فأبى ذلك ، وأعدَّ ، واستعدَّ بألَّةِ الحرب ، وضمَّ الحُرَّاسَةَ وأخاف السُّبُلَ ، وقطع* الطُّرُقَ وأتى بما هو ١٥ مشهور من شرِّه . فاستخَرْتُ اللهَ على مُنازلته ، وأمرتُ بضمِّ الأجناد واجتماع الأنداب لقتاله ؛ فكان ذلك على أتمِّ ما يمكن . ولما أحسنَ من نفسه بالضعف ، وأنه لا ملجأَ له ولا مَهْرَبَ إلى أحدٍ بقلةِ إقبال السلاطين عليه ، تَرَامَى علينا ، وسألَ العفوَ ، خوفاً أن يحملَ به ما حلَّ بيني تأقنوت ٢٠ إذ لم يقبلوا الأمان قبل الغلبة ؛ فأعطيتُه من العفو ما سألَ ، ليكون ذلك

قدوة لمن سألَ مِنَّا العَفْوَ بعدَ الإِسَاءَةِ ، فلا يَتِيَّأسُ منَ فعلِها ، إنَ دفعنا إلى مثلِها بعدَها ؛ وكانت الأولى عِظَةً وشُغْفَةً لمنَ نَفَرَ ، ولم يقبل الأمان ، وتمادى على الطغيان .

وَكُنَّا لَا نُقَدِّمُ شَيْئًا وَلَا نُؤَخِّرُهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَّا بَعْدَ رُؤْيَا وَفِكْرٍ
 ٥ فِي الْعَاقِبَةِ ، وَنَدْعُ مُشَوَّرَةَ النَّاسِ ؛ فَإِنَّا بَلَوْنَا مِنْهُمْ قَلَّةَ التَّحْقِيقِ ، وَالنُّطْقِ
 عَلَى الْهَوَى : فَإِنَّمَا مَقْتُونٌ بِأَمْرِ يُزَيِّنُهُ وَيَحْمِلُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا كَارِهٌ تَخْيِيرٌ أَوْ
 مُطَالِبٌ لِأَحَدٍ ، فَيَجْعَلُنَا نَحِيرُ عَنْ مَا لَا يَطَابِقُ هَوَاهُ ، وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ
 أَهْوَاءَهُمْ ، لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ^(١) . فَلَمَّا بَلَوْنَا مِنَ النَّاسِ هَذِهِ
 الشَّمَائِلَ ، وَأَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَحِبُّ أَنْ تَجْرِيَ الْأَحْكَامُ عَلَى اخْتِيَارِهِ ، رَجَعْنَا
 ١٠ إِلَى إِثَارِ اخْتِيَارِنَا ، إِذْ كَانَ نَظَرُنَا لَأَنْفُسِنَا أُرْشَدَ مِنْ نَظَرِ غَيْرِنَا ؛ « وَمَا حَكَ
 ظَهْرَكَ مِثْلُ ظُفْرِكَ » ^(٢) .

وَكُنَّا مَعَ هَذَا نَصْنَعُ إِلَى قَوْلِ النَّاسِ بِالْأُذُنِ ، لَا بِالْعَقْلِ ؛ فَتَقِيسُ عَلَيْهِ
 وَنُخْتَبِرُ مُرَادَهُ ، وَلَا نُزَيِّرُهُ اخْتِلَافَ ، فَتُوحِشُهُ ، غَيْرَ أَنِّي أَوْسِعُ لَهُمْ صَدْرِي
 وَيَسَعُ جَهْلَهُمْ حِلْمِي ، وَأَقْضِي بَعْدَ ذَلِكَ مَا أُرِيدُ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ عَلَى أَمْرٍ
 ١٥ مُجْبُورًا وَلَا مُقَهَّورًا ، إِلَّا مَا قَهَرْتَنِي عَلَيْهِ السِّيَاسَةُ ، وَمَا تُحْمَدُ لَهُ الْعَاقِبَةُ ، كَمَنْ
 يَتَجَرَّعُ الدَّوَاءَ لِإِبْرَاءِ الدَّاءِ ، وَلَمْ أَكُنْ أَغْتَبِنِ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِّ مِنْ جَهَالَةٍ وَلَا
 غَفْلَةٍ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَسَاحَةً وَتَنَافُلًا لِأَمْرٍ يُرَادُ ، أَوْ مُتَبَاعَةً لِلْقَوْلِ فِي
 حِينِهِ تَلَطُّفًا وَقَلَّةَ خِلَافٍ عَلَى قَائِلِهِ ؛ ثُمَّ أَصْرَفَهُ تَارَاتُ * فَالْجَاهِلُ عِنْدَنَا مَنْ ٤١ (ب)
 إِذَا أَشَارَ بِرَأْيٍ ، ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ صُنِعَ ضِدُّهُ ، أَنْ يَعاوِدَ الْقَوْلَ فِيهِ : فَإِنْ كَانَ

(١) سورة المؤمنون : ٧١ .

(٢) راجع « مجمع الأمثال » للبديائي (ط القاهرة ، ١٣١٠) ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

فَطِنًا ، من العَيِّ التكرار ؛ وإن كان لم يعلم ، فالتذكيرُ به غفلةٌ .
استنْقاصٌ لمُخدومه ؛ اللَّهُمَّ إِنَّهُ لم يسمع منه الأولى ، فتجربى عن الأخرى
خِلَافَ الرئيسِ عليه الأمرَ قد ظهر له ، وخفر عن القاتل ، ولم يُبرِدْ
عليه ؛ فيكون في رأيه البركة والخير للفريقين ؛ وهو يلوم على ما لا يد
ويتبادى جهالةً ، وينطق هذراً ، وتنحرف نيته على غير معنى ؛
ظالماً لنفسه .

فَأَوَدَعْنَا كِتَابًا حِلْمًا ، وَأَمْنًا ، وبقي في جملة الجند تحت إم
وإحمال ، غَيْرَ أَنِّي لم أَسْتَعْمِلْهُ بعدها في مَقِيلٍ ، ولا مَكْنُتُهُ من
إذ « لا يلدغ مؤمنٌ من جُحْرِ مَرَّتَيْنِ ^(١) » .

(١) راجع « مجمع الأمثال » للميداني ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

فصل السابع

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٣) قدوم المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة

حصن لييط

٤٦ — مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس

٥ وَبَقِيَتْ أحوالنا على أَفْضَل ما يُمْكِن ، وَبَلَّغْنَا مِنْ آمالنا غايَتها ، إلى أن حَدَثَ أَمْرُ المُرَابِطِينَ - أَعَزَّهُمُ اللهُ - . وَكُنَّا رَأِينا كَلَبَ النَصْرانيِّ على الجَزيرةِ وَأَخَذَهُ لَطْلِيظَةً ، وَقَلَّةَ رَفَقِهِ ، بَعْدَ ما كان يَقَعُ مَنَّا بِالْجَزيرةِ وَصار يَرومُ أَخَذَ القَواعِدِ ، وَأَنَّ أَخَذَهُ لَطْلِيظَةً لِلضَعْفِ لِلتَّوَالِي عَلَيْها عَامًا بَعْدَ عَامٍ ؛ وَكَذلكَ كانَ مِنْ شَأْنِهِ في أَخْذِ البِلادِ ، إِذْ كانَ مَذْهَبُهُ أَلَّا يُنْازَلَ مَعْقِلًا ، وَلَا يُفَسِدَ أَجْنادَهُ على مَدِينَةٍ ، لِبُعْدِ مَرَامِها وَمَنْ فيها مِنْ مَخالِفِي مِلَّتِهِ ، وَإِنَّمَا كانَ يَأْخُذُ مِنْها الجَزيرةَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، وَيَعْنِفُ عَلَيْها بِما شاءَ مِنْ أَصْنافِ التَّعَدِّيِّ ، إلى أنْ تَضَعُفَ وتَلْقَى يَديها كَما فَعَلَتْ .

فَوَقَعَ مِنْ ذلكَ في الأَنْدَلُسِ رَجَّةٌ عَظِيمَةٌ ، وَأَشْرَبَ أَهْمَا خَوْفًا وَقَطَعَ رِجاءَ مِنْ اسْتِيطانِها . وَجَرَتْ بَينَ المُعْتَمِدِ وَالْفُؤُوشِ مُخالَفاتٌ كَثِيرَةٌ ، وَسأَلَهُ

أن يتخلى له معاقل كان للوتُ عنده أولى من إعطائها. فوجست نفسه منه بالجملة ،
 ورام كسره بطوائف المُرابطين ، وضربَ بعضهم ببعضٍ للقدَر الذي شاء الله :
 إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأكثرُ ما ينجي عليه اجتِهادهُ
 * وقد كان أخونا صاحبُ مألقة ، للفتنة التي كانت بيننا وبينه ، قد ٤٧ (١)
 ٥ داخلهم قبلُ يستغيثُ بهم ، ويرجو الانتقامَ مِنّا بهم ، وأن يُذكرُ كُوهَ
 ما فاتهُ من مملكة جدّه ؛ وظنَّ أنّه ، عند ظهورهم ، يقسم الأموال بيني
 وبينته . وكان هذا الخِلافُ كُلُّهُ من سعادة أمير المسلمين ، ورأى من تَشَتُّبِنا
 أنّه لا مشقة تكون عليه في أخذِ بعضنا ببعضٍ متى شاء ، فلم يُجِبهُ الأميرُ
 إلى شيء ، ولا كان وقته ، وهو يُلحُ عليه بقلة الدربة .

١٠ ٤٧ — إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال

المرابطين الجزيرة الخضراء

وقد كان رُسُلُ المُعتمد قبل هذا قد وردت عليه ، نُعلمه أن يتأهبَ
 للجهاد ، وتعدّه بإخلاء الجزيرة الخضراء ، وأنه لا يصلُ إلى سبتة إلا ويضعُها
 في يديه . فلما وصل متأهباً لذلك ، بمن احتفل به من جيشه ، قدّم رُسُلُه إلى
 ١٥ المُعتمد ، منهم عبدُ الملك القاضي . وابنُ الأُحسن ؛ فأمنسكهم بإشبيلية مُدّةً
 طويلةً ؛ وأميرُ المسلمين في ذلك مُتعلّقٌ لورودهم ؛ فأرسل معهم من شيوخ
 إشبيلية من يقول له : « ترَبَّصْ من سبتة مُدّةً من ثلاثين يوماً ، إلى أن
 نُحلي لك الجزيرة . » فأجابهم إلى هذا ، وسألوهُ خطّاً يده وبالترُّبص .
 فأشعرَ الأميرُ بذلك ، وقيل له : « لم يجعلك ابنُ عباد في هذا الالتواء إلا
 ٢٠ لأنّه يُريد أن يرسل إلى ألفونس يُعلمه بقدومك ؛ ولعله يتأتّى له منه ما يرغب ،

ويهدده بك ، ويسأله أن يُعاقده على أن يهبه الجزية أعواماً . فإن فعل ، استجاش عسكره على الجزيرة ، ومنعك الجواز ، فأَسْبَقَهُ إليها ! وإن كان النصراني لا يتأذى له ، أَرْسَلَ إليك في الجواز !

ولما انفصل الرُّسُلُ عنه بنية التَّربُّص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً ،
 ٥ جَهَّزَ عسكراً مُقَدِّماً من نحو خمسمائة فارس ، وأرسلهم في أثرهم ؛ فلم تَصِلْ
 الرُّسُلُ إلى الجزيرة آخر النهار إلَّا والعسكر في أثرهم قد عَدَوْا ونزلوا بدار
 الصَّنَاعَةِ . فالتفت القومُ إلى خَيْلٍ قد ضربتْ تَحَلَّتْهَا ، لم يُذَرَ متى أُقْبِلَتْ ؛
 ولم يُصَبِّحْ لهم إلَّا وطائفةٌ أُخْرِجِي بعدها ، يزيدون ويتراذفون ، * حتى انكَلَّ (ب) ٤٢
 العسكر كُلُّهُ على الجزيرة مع داوود بن عائشة ، وأُحْدَقُوا حَوَالِيهَا بِمِجْرَسُونِهَا .
 ١٠ وَنَادَى داود بالراضى ، وقال له : « وَعَدْتُمُونَا بِالْجَزِيرَةِ ! وَنَحْنُ نَأْتِي لَأُخَذَ بِلَدِّ
 وَلَا ضَرَرَ بِسُلْطَانٍ ! إِنَّمَا أَتَيْنَا لِلْجِهَادِ ! فَأَمَّا أَنْ تُخْلِيَهَا مِنْ هُنَا إِلَى وَقْتِ
 الظُّهْرِ مِنْ يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِلَّا ، فَالَّذِي تَقْدِرُ عَلَيْهِ ، فَاصْنَعِ ! »

وَخَاطَبَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ ابْنَ (١) عِبَادَ ، يُعَلِّمُهُ بِمَا صَنَعَ ، وَيَقُولُ لَهُ :
 « كَفَيْنَاكَ مَوْثِقَ الْقَطَائِعِ وَإِرْسَالَ الْأَقْوَاتِ لِأَجْنَادِنَا كَمَا وَعَدْتَ ! » فَأَرْسَلَ
 ١٥ الْمُعْتَمِدُ لَابْنَهُ الرَّاضِي فِي إِخْلَائِهَا لَهُمْ ، وَحَصَلَ فِيهَا دَاوُودُ . وَآتَى الْأَمِيرُ
 إِلَيْهَا ، وَدَخَلَهَا نَاطِرًا إِلَيْهَا ؛ ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَى وَقْتِ إِقْبَالِهِ . وَأَمَرَ
 دَاوُدَ بِالتَّحَدُّمِ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ ؛ فَاسْتَوَفَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَى إِشْبِيلِيَّةَ .

وَقَدْ كَانَ رُسُلُنَا مَضُوعًا مَعَ رُسُلِ الْمُعْتَمِدِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَى اتِّفَاقٍ ضَمَّ بَعْضُنَا
 فِيهِ بَعْضًا إِلَى حَقِيقَةٍ ، وَعَاقَدْنَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنْ تَتَّصِلَ الْأَيْدِي عَلَى غَزْوِ الرُّومِ
 ٢٠ بِمَعُونَتِهِ ، وَالْأَلَّاءُ يَرْضَى لِأَحْدَانَا فِي بَلَدِهِ ، وَلَا يَقْبَلُ عَلَيْهِ رَعِيَّتَهُ بَعْنِ يَرُومِ الْقِسَادِ عَلَيْهِ .

٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد

وأرسل [أمير المسلمين] ، عند حُلُولِهِ بِإِشْبِيلِيَّةِ ، عن جميع الرؤساء ؛ قائماً ابنُ صُمَادِحَ ، فأبى عليه [وبقى] مُتَرَبِّصاً ليرى كَيْفِيَّةَ الْأَمْرِ وَتَخْرُجَةَ مَعَ الرُّومِ ؛ واعتذر بكبر السنِّ مع الضعف ، وأرسل ابنه مُعْتَذِراً . وبَادَرْنَا نَحْنُ إِلَى الْخُرُوجِ ، وَسِرَرْنَا بِذَلِكَ ، وَأَعَدَدْنَا مَا اسْتَطَعْنَا عَلَيْهِ لِلْجِهَادِ بِأَمْوَالِنَا وَرَجَالِنَا ؛ وَقَدَّمْنَا الْهَدِيَّةَ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَمَرْنَا بِضَرْبِ الطَّبَلِ وَمَا يُسْتَعَدُّ بِهِ لِلْفَرَحِ ، عِنْدَ مُخَاطَبَتِهِ لَنَا بِدُخُولِ الْجَزِيرَةِ . وَظَنْنَا أَنَّ إِقْبَالَهُ إِلَى الْأَنْدَلُسِ مَنَّةٌ مِنْ اللَّهِ عَظُمَتْ لَدَيْنَا ، لَا سِيَّمَا خَاصَّةً مِنْ أَجْلِ الْقَرَابَةِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنْ خَيْرِهِمْ ، وَإِقْبَالِهِمْ عَلَى طَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَحُكْمِهِمْ بِالْحَقِّ ؛ فَنَعْمَلُ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا فِي الْجِهَادِ مَعَهُ كُلِّ عَامٍ : فَمَنْ عَاشَ مِنَّا كَانَ عَزِيزًا ، تَحْتَ سِتْرِ وَحَايَةٍ ، وَمَنْ مَاتَ كَانَ شَهِيدًا . وَالْعَجَبُ فِي تِلْكَ السَّفَرَةِ مِنْ حُسْنِ النِّيَّاتِ ،* وَإِخْلَاصِ ٤٣ (١) الضَّامِرِ ، كَأَنَّ الْقُلُوبَ إِنَّمَا جُمِعَتْ عَلَى ذَلِكَ .

ولَقِينَا أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ فِي طَرِيقِهِ إِلَى بَطْلَيْوَسَ بِمَجْرِيَّةٍ ، وَرَأَيْنَا مِنْ إِكْرَامِهِ لَنَا وَتَحْفِيهِ بِنَا مَا زَادَنَا ذَلِكَ فِيهِ رَغْبَةً ، لَوْ اسْتَطَعْنَا أَنْ نَمْنَحَهُ لِحُومَتِنَا ، فَضْلاً عَلَى أَمْوَالِنَا . وَلَقِينَا الْمُتَوَكِّلَ ابْنَ الْأَفْطَسِ مُحْتَفِلاً بِمُسْكِرِهِ : كُلُّ ١٥ يَرْغَبُ فِي الْجِهَادِ ، قَدْ أَعْمَلَ جَهْدَهُ ، وَوُطِّنَ عَلَى الْمَوْتِ نَفْسَهُ .

٤٩ - موقعة الزَّلَّاقَةِ وانتصار المسلمين على الْفُونْشِ السَّادِسِ

وَتَلَوْنَا بِبَطْلَيْوَسَ أَيَّامًا ، حَتَّى صَحَّ عِنْدَنَا إِقْبَالُ الْفُونْشِ فِي حَفْلَةٍ ، يَرُومُ الْمَلَاقَةَ ، وَيُظَنُّ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْجَيْشَ لِقَلَّةِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ قَبْلَ . وَسَاقَهُ الْقَدَرُ

إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنظاره ؛ ونحن يلزاه المدينة ، متربصون : إن كانت لنا ، فيها ونعمت ، وإن لم تكن ، كانت وراءنا حرزاً ومقلاً نأوى إليها . وأمير المسلمين يُدير هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوى ، عسى [أن] تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يخرج إلى التوغل في بلادهم . وهم ، كما دخلوا الأندلس ، ولا يعرفون من لهم أو عليهم ؛ ورجا بأن يكون الرومي لا يخرج إليه أحد ، فينصرف طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال ، إلى أن تُريه الأور وجوهها . فلا يُسمع إلا الأمير متربصاً لالتياث طاف به ، ولولا ذلك ، لكان في أرض النصارى مدوِّخاً لها . والنصراني في هذا كله يقرب متعاطياً ، لا يعمل حساب من يغلب ، إن كانت عليه أن يكون بعيداً من أنظاره ، فيستأصله السيف ؛ ولولم يكن إلا يأكله الطريق ويبعد المسافة .

ثم أرسل ، على يدى ابن الأفضس ، إلى أمير المسلمين ، يقول له : « ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك ، وأنت تتربص وتختبئ لأضل المدينة ! » فلم يكن بُد أن يُنتقل إليه ، ليكون الجيش على مقربة منه . وتواعدة اللقاء في يوم سميّاه . ولم يكن بين المحلتين إلا نحو ثلاثة أميال ، فاستاغ المسلمون إلى ذلك الوعد ، * وحلّ الناس عن أنفسهم ؛ وكانت ٤٣ (ب) خيرة أن لو ركب الفيتتان ، لم تفصل إلا عن فقد الأكثر من عسكر المسلمين ، حسباً تُوجبه الموافقة للقتال .

فجأهم عسكر الرومي ، وهم على غير إعداد . وكان مختلساً : إنما له ٢٠ ما ألقى في تلك الساعة ، وألقى سمة في الرّجل ؛ ومات منهم خلانق ممن لم يكن يقدر على نفسه . فلم تقع الصيحة على الجيش [إلا] وركبوا في

طلبهم ؛ وهم قد كلوا وثقلهم السلاح مع بُعد المسافة . فافتنى المسلمون آثارهم ، وركبهم بالسيف ؛ ومات من جيشهم خلّاق ، وتبدّدوا في الطريق فن بين قتيل وميت مُتَقَلِّ ضريع . ولو أن تلك الواقعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطعتهما في اللقاء ، لفقد من العسكرين الأكثر ، كالذى توجبه الرتبة ؛ لكن الله لطيفٌ بعباده ، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل . وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامةٍ ونصرٍ .

٥٠ — يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس

بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين

ولما انقضت غزواته تلك، جعنا في مجلسه ، أعنى رؤساء الأندلس ، وأمرنا بالاتفاق والاتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصرارى لم تقترصنا إلا للذى كان من تشئتنا واستعانة البعض بهم على البعض . فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة .

وانتدب إليه ذلك الوقت أخونا صاحب مألقة ، وقال من غير روية :
 ١٥ « إن أحوالى قد ضاقت بتعدى أخى على بلادى وميراث جدى ١ »
 يشير بذلك أن يأخذ له الأمير بحقه منا . فلما قضى كلامه ، قال له أمير المسلمين : « هل لقيت أخاك في هذا المعنى ، وتراميت عليه قبل مخاطبتك لى ؟ » فلما قال له : « لا ! » رد عليه : « ما ينبغي لنا ذلك إلا برضاه ! » ولم يمكننا في ذلك الحين السكوت لئلا يلزم من شكر الأمير ،
 ٢٠ و [كانت] فرصة لتبيان الحجة ، وإقامة عذرنا ألا يفتسب إلينا بعد نسبته .

- *قلتُ له : « إِنَّ أمير المسلمين لم تكن غايته إِلَّا ما هو بسبيله من الجهاد ؛ ٤٤ (١) وهو لا يرضى أن ينقض ما أَخَكمه آباؤنا من قسمة ما قسموه من بلادهم بين أبنائهم . وليس منا أحدٌ حَصَلَ على شيء بِقُدْرته ، إِلَّا بما تهيأ له عند الله والآباء من بعده ، مع إجماع المسلمين على الرضى بمن تَخَيَّروه . وقد كان الشيخُ جدُّنا — رحمه الله — رتبَ ذلك ، ورأى أن مآلقة لا غنى بها من غَرْناطة ؛ فجعل أمرها مصروفًا إلينا من بعده ، كالذى كانت في حياته . فأنقضت من الأمر ما أبرم ، وقطعتنا ، وأردت الاستبداد على غير حقيقة ولا أصل . ولو رأى جدُّك في ذلك صلاحًا ، لأعدَّ لك لذلك عُدَّةً تفنيك عنا ؛ ولما تعدَّيت المرَّة بعد المرَّة ، سمَّينا في صرف بعض الحال إلى ما رتبها عليه الجدُّ ؛ ولم نبلغ في ذلك الغاية التى تجبُ بانحياشك ونفارك . وهذا ما وقع ! فإن شاء أميرُ المسلمين أن يبتنى من جديد ، وينقض ما رتبَ الشيخُ ، فهو لنا بمنزلة : أمرُهُ نافذٌ ! وإن رأى ما فُعلَ من ذلك سداداً وصلاحاً ، فلائى وجه نكلُّه ما لا يليق به ؟ » فلما تكلمتُ بهذا ، وقَعَت مُساكنتُ . وأمر الأميرُ بانصرافنا ، ولم يُعِدْ في ذلك بعدها يجلساً إِلَّا في سَفرةٍ لِيُبيط للمعونة . ١٥

- وأخذ أمير المسلمين فى الانصراف إلى بلاده ، وهو قد أطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم يَرَ وجهاً لبقائنا فى الجزيرة . وأنسَ الجميع ؛ ولم يتربص فى البلاد إِلَّا يُوحش سلاطينها ممَّا يتوقعونه من انحياش رعيَّتهم إليه ؛ فكلُّ من شكَا إليه ذلك الوقتَ من رعيَّةٍ ، يقول له : « لم نأتِ لهذا ! والساطينُ أعلمُ بما يصنعون فى بلادهم ! » حتى ازداد بذلك محبةً إلى ما كان عليه فى قلوبنا ، وإليه استنامةً وميلاً . ورجع الكلُّ إلى وطنه . ٢٠

٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس .

حصار حصن لييط .

وبقيت الحال على ذلك : قد أشرب الرُّومُ من تلك الواقعة خوفاً وانكاشاً . ولم تزل الحالُ صالحةً إلى سَفَرَةِ لييط .

٥ وإنَّ الْمُتَمَدِّدَ بْنَ عَبَّادَ ، لَمَّا رَأَى مِنْ خِلَافِ ابْنِ رَشِيقٍ عَلَيْهِ ، وَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَضَعَ ابْنَهُ الرَّاضِيَ بِمُرْسِيَّةٍ عِوَضاً عَنْ الْجَزِيرَةِ ، صَارَ بِنَفْسِهِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَازَ إِلَيْهِ الْبَحْرَ ، يَرِيهِ الطَّمَانِينَةَ ، وَيَحْكُمُ مَعَهُ* مَا شَاءَ مِنْ ٤٤ (ب) عَمَلٍ فِي مُرْسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا . وَعَظَّمَ لَهُ شَأْنَ لَيْيَطَ ، وَأَنَّهُ فِي قَلْبِ الْبَلَدِ ، وَأَنْ لَا رَاحَةَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِفَقْدِهِ ؛ وَعَاقِدُهُ عَلَى أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ ١٠ وَرِجَالَهُ ، لِكَيْ يَنْهَيَا سَلَاطِينَ الْأَنْدَلُسِ حَرْبَهُ بَعْدَهُمْ وَأَجْمَاعِهِمْ ؛ فَيَأْمَنُوا مَنْ يُقْلِعُهُمْ عَنْهُ .

وَأَتَقْنَا كُتُبَ الْأَمِيرِ ، يَأْمُرُنَا عِنْدَ جَوَازِهِ ، بِالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ وَمَا شَاكَلَ ذَلِكَ . فَفَعَلْنَا ، وَبَادَرْنَا ، رَغْبَةً فِي الْجِهَادِ ، وَحُبَّةً فِيهِ ، وَإِثَارًا لَهُ ؛ وَخَرَجْنَا إِلَيْهِ ، وَلَقِينَاهُ فِي حَيْزٍ مِنْ بَلَدِنَا ، بِمَا يُطَابِقُ مِثْلَهُ مِنَ الْمَهْدَايَا ١٥ وَالتَّحَفِ . وَاجْتَمَعْنَا عَلَى السَّيْرِ إِلَى لَيْيَطَ .

فَنَازَلْنَاهُ عَلَى أَمْتٍ مَا يُمْكِنُ مِنَ الرِّجَالِ وَالْعُدَدِ ، كُلُّ رَئِيسٍ يِقَاتِلُهُ عَلَى حَسَبِ مَجْهُودِهِ ، وَمَا تَبْلُغُ اسْتَطَاعَتُهُ وَحِيلَتُهُ ؛ وَهُوَ قَدْ امْتَلَأَ بِرَعِيَّةِ الْجِهَةِ ، كُلِّهَا مِنَ النَّصَارَى ، وَأَعَدُّوا فِيهِ مَا يَحْتَاجُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، قَلَّ مَنْ نَظَرَ عَلَى سَعَةٍ ؛ وَهُمْ فِي ذَلِكَ يَهْدُدُونَ بِمَجِيءِ الْفُتُونِشِ ، وَيُرِيدُونَ الْحِيلَةَ ٢٠ بِالتَّنْذِيرِ كُلِّ لَيْلَةٍ ؛ وَالْقِتَالُ عَلَيْهِمْ كُلِّ يَوْمٍ لَا يَفْتَرُ ، مَعَ الْبُلْغِيَانِ فِي الْمَوَاضِعِ

المُهَيَّعة عليهم ، وَتَضَبَّرَ الْمَجَانِيقَ وَالْعَرَّادَاتِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ عَمَلٌ يُرَامُ بِهِ اقْتِرَاصُ الْمَعَاقِلِ إِلَّا وَصُنِعَ . وَآتَى ابْنُ صُبَّاحٍ بِفِيلٍ أَقَامَهُ ، وَخَرَقَ بِهِ الْعَادَةَ : أَصَابَهُ مِنَ الْحِصْنِ قَبَسٌ نَارٍ ، فَأُخْرِقَهُ . وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَنْجَحُ عَمَلٌ ، وَلَا تَظْهَرُ فِيهِ لِلْمُسْلِمِينَ فُرْصَةٌ ، لِمَا شَاءَ اللَّهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ . ٥

٥٢ — مُحَاصَرَةُ لَيْيَاطَ تَصَوَّرَ فَوْضَى مُلُوكِ الطَّوَاتِفِ

فِي ذَلِكَ الْحِينِ

وَكَانَتْ تِلْكَ سَفَرَةٌ أَخْرَجَ اللَّهُ فِيهَا أَضْغَانَ سَلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ . وَرَعِيَّتُهُمْ فِي ذَلِكَ يَأْتُونَ أَفْوَاجًا ، شَاكِينَ لِمَا وَجَدُوا لِمَنْ أَسْنَدُوا إِلَيْهِ : فَالِرَاضِي مِنْهُمْ يَلْتَمِسُ الزِّيَادَةَ ، وَالسَّخِيطُ يَرْجُو الْإِنْتِقَامَ ؛ وَجَعَلُوا فِي شِكَاوِيهِمْ قَهْقَهَاءَهُمْ وَمَسَائِطَ ، يَقْصِدُونَ نَحْوَهُمْ : مِنْهُمْ الْفَقِيهَ ابْنَ الْقَلَيْجِيِّ ، قَدْ صَارَ خِيَاوُهُ بِتِلْكَ الْمَحَلَّةِ مَغْنَطِيسًا لِكُلِّ صَادِرٍ وَوَارِدٍ ، يَجِدُ بِهِمُ السَّبِيلَ إِلَى الطَّلَبِ ، لِلْقَدَرِ الَّذِي قَدَّرَهُ اللَّهُ . ١٠

وَرَأَى سَلَاطِينُ الْأَنْدَلُسِ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ تَحَامُّقِ رَعَايَاهُمْ وَامْتِنَاعِهِمْ مِنْ مَغَارِمِ الْإِقْطَاعِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، مَعَ احْتِيَاجِهِمْ إِلَى الْإِنْفَاقِ ، مَا قَلَقَ بِهِ وَسَاءَ الظَّنُّ مِنْ أَجَلِهِ : * جَيْشٌ يَكْلَفُونَهُ كُلَّ عَامٍ ، وَبُجَائِمَاتٌ تَلْزَمُ (١) ٤٥ الثَّرَابِطِينَ كَثِيرَةٌ ، وَتُحَفُّ مُتَوَالِيَةٌ ، لَوْ فَرَطَ مِنْهَا فِي شَيْءٍ ، لَانْخَرَمَتْ عَلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ ثُمَّ رَعَايَا تَمْتَنِعُ مِنْ تَأْذِيَةٍ مَا تَقُومُ بِهِ الْحَالُ لِلْمُوصُوقَةِ ؛ فَلَا حِيلَةَ إِلَّا بَيْنَ صَبْرٍ يُوْدِي إِلَى مَلَامَةٍ تَوْجِبُ عَقُوبَةً ، أَوْ امْتِنَاعٍ يُوْدِي إِلَى اسْتِنْتِصَالٍ ، كَالَّذِي جَرَى . ٢٠

ونسع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديداً وعصيانياً أنكرناه ، لا تتم به تملكته ، ولا يتهياً معه قضاء حاجة . ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئاً ، ويعدّهم بما كان ؛ فلما كان يأتيهم الحفز منّا ، يقعدون بنا ، ونحن أخوج ما كنّا إليه للإفراق ، لاسيما في تلك المحلة التي عدّتنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم . فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعونة ؛ فكأنما مثلق أبان الطيب من الخبيث ، وكشف العورات ؛ فلم يزد الرؤساء إلا توحّشاً ، ولا الرعية إلا تسلطاً ، ولا الداخلون على مثل هذه النصبه إلا طمعاً ؛ وحقّ لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء ، وهم في أسباب الفرق : فن اغترّ منهم طالب صاحبه ، وهو المطلوب ، وشغلّه ذلك ممّا هو في سبيله ؛ ومن ميّز ، انفراد ، لم يجد معيناً حتى تَوَغَّل في اللجة وأخذته المحلة . وكانت مقدّمات سوء ، وزماناً على السلاطين عسيراً ، وسعداً للرابطين مُقْتَبِلاً .

٥٣ — النزاع بين ابن عباد وبين ابن رَشِيق

١٥ وأن ابن رَشِيق عند ذلك مُفسِداً برّعه لِمَا عقده ابن عباد مع الأمير ؛ وبذل الأموال للرابطين ، وسارع إلى قضاء الحاجات . واصطنع إلى الأمير سير — أعزّه الله — وعوّل عليه ؛ فأكرمه الإكرام الشنيع . وألقى ابن عباد يده في قرور ، مُعوّلاً عليه في القضية ، وبذل له أموالاً جسيمة ؛ والمُكْتَرِ على كلّ حال يغلب المُقِلّ ، وإن شَفَّ عليه باليسير .

٢٠ وأعطى ابن رَشِيق الأمان ، وبُوْلِغَ له في التأنيس ، حتى غرّه ذلك

- وانبسط له ؛ وتاه على ابن عبّاد ، وأظهر متصيته والانخياش منه ، قائماً في ذلك بدعوة الأمير ومُسنداً إليه ، حتى أفضى ذلك به ، إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمُرمية على اسم أمير المسلمين دون ابن عبّاد .
- والمُتَمَدِّد ، * في هذا كله ، يرى من الأمر ما يفيظه ويكرهه ويتقطع ٤٥ (ب) منه حشرات ؛ وحقّ له ؛ فلم يَتمَّ عن القضية ؛ وأحكَمَها مع القُقهَاء ، واحتجّ عليه بأحكام السُّنة ؛ وكان ممن اصطنع على ذلك ابنُ القُلَيْبِيِّ ، وهو يفخر بالأمر عندنا ، ويقول : « سَيَرَى ابن رَشِيق ما يَحِلُّ به ! فقد شُورَنا في أمره . وإن جُعِلَ لنا مَجْلِسٌ لغيره ، فقلنا به مثل ذلك ! » وكانت هذه الكلمة ممّا أَوْحَشَتْنَا وَغَيَّرَتْ أَنْفُسَنَا عليه ، مع تهْدُده تلك
- ١٠ السفارة ، وَضَرَبَهُ الْأَمْثَالُ ، وَحَدَّثَهُ مَعَانِيهِ ، وَاسْتَطَالَتْهُ بِلْسَانِهِ ؛ وَأَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ لَا يَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا يَقْدِرُ نَحْنُ نَشْكُو بِهِ بِلَا بَيِّنَةٍ وَلَا إِقَامَةِ بُرْهَانٍ : فَتَكُونُ لَهُ الْحُجَّةُ ، وَتَقَعُ نَحْنُ فِي الْخِزْيِ ، لَا سِيَّامَا كَانَ يَنْتَحِلُ مِنْ [أهل] الْعِلْمِ .
- وإن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عبّاد مع ابن رَشِيق ، واختلاف ١٥ ما بينهما ، أَعْمَلَ فِي ذَلِكَ عَقْلَهُ ، وَدَبَّرَهُ بِرَأْيِهِ ، وَقَالَ : « مَا تَنْبَغِي لَنَا مُفَاسِدَةُ ابن عبّاد مِنْ أَجْلِ ابن رَشِيق ، لاحتِاجِنَا إِلَيْهِ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ ، وَنَحْنُ لَمْ نَأْمَنْ أَمْرَ الرُّومِيِّ . وَالْأَوْكَدُ عَلَيْنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ مُدَارَاةُ ابن عبّاد ، حَتَّى تُرِينَا الْأُمُورَ وَجُوهَهَا ! » فَتَعَسَّفَ عَلَى ابن رَشِيق فِي الَّذِي أَظْهَرَ مِنَ الْخِلَافِ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَقَالَ لَهُ : « مَا كَانَ يَجِبُ لَكَ أَنْ تُقَدِّمَ بِدَعْوَتِي لِلْقِيَامِ عَلَى رَأْسِكَ ، فَتُوقِعَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ الشُّعْنَاءُ ! » وَقَالَ فِي نَفْسِهِ :
- ٢٠ لِمَ يَفْعَلُ ذَلِكَ ابنُ رَشِيقِ إِثَارًا لِي وَلَا نَحْبَةً لِحَبَّتِي ! أَكْثَرَ مِنْ اضْطِرَامِ

النار على صاحبه وإشغاله بي عن نفسه ؛ ولا سيما أن معونته للرؤوم بليّيط
لم تخف على أحدي ؛ يعتقد أن يبقاها يثبت في مُرسيّة ! « فكان أبداً يميّهم
ويقوّمهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لمقهم ، وخوفاً من الداخلة عليه بفقدهم .
وصحّ ذلك عند الأمير ، والمُعتمد في هذا كله لا ينأى عنه ، ويستفتي
فيه الفقهاء ، لنفاقه بعد دخوله في البيعة له أوّل أخذه لمُرسيّة . فانفتحت
عليه الأسباب ، وصنع له مجلساً أفتوا فيه بإزاحته عن المسلمين ،
وإسلامه لسلطانهِ . فاستغاث عند ذلك * بالأمر ؛ فأجابهُ : « إنّه لو كان لك
عندى حقٌّ ، لو هبته لك ، غير أنها أحكام السنّة ، لا أستطيع على إزاحتها
عن مراتبها ! » وأمر بتنقيفه وإسلامه إلى المُعتمد . وقيد في الحديد ،
ورأى هواناً عظيماً . وأمر للمُعتمد الراضى ابنه أن ينزل في محلّته على المقام ؛
وكأنّه لم يكن بالأمس . وأرسل الأمير إلى أهل مُرسيّة يأمرهم بالرجوع إلى
صاحبهم والطاعة له ؛ فخالف كلٌّ من فيها من ابنه وقرابته ، وثقفوا مدينتهم
وجفّوا كلٌّ من مضى إليهم . وامتنعت الحال على ذلك ، بعد وسائل كثيرة
تكرّرت بينهم ؛ فلم يقدر معهم على شيء .

٥٤ — رفع الحصار عن ليّيط .

١٥

تفرّق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم

وشاخت المحلّة ، وطال مكثها ، وملّ الناس إلى أن ورد الخبر
بقدوم ألفونس إليها ؛ فسألت الظنون من أجل ذلك . ورأى أمير المسلمين
أنّ الرجوع عنها والانصراف أولى ، لطول مكث الناس وفشلهم ، مع
جام القاديين من الرّوم ومع خلاف مُرسيّة ، لئلا يسندوا إلى ميرها ومراقبها
٢٠

- إذ أنهم أرسلوا عن ألفونس وقت خلافهم . فأخذ في الانصراف .
- ووقت بين المعتد والمعتصم ، صاحب الرية ، مشاجرات وتباعات
باردة في معقل من نظر الجبل وفي أمر شربة ، ما وقع فيه الشكوى
إلى الأمير . وانفصلا على غير موافقة : كل ذلك من النحسة المقضية عليهما .
- ومثل ذلك جرى لنا مع أخينا صاحب مالقة ؛ وجعل يُكرّر في ذلك ٥
النظر الذي تكلم فيه سفرة بطليوس ؛ وحفز في ذلك بزعمه ، وقال لي
بقلة دربتيه : « إنما منع من ذلك السفرة الأولى ذكرى له عند انفصال
الأمير ، فلم يُدرك ولا أذكر كنا ، والآن ، فلا بد من ذكره على سعة ؛
ولاً ، فالحق بيني وبينك ! » فلم تخف لقوله ، ولا كابرته ، لعلني أن
الأمير لا يحفل بشيء من هذا كله . ولما رأى أمير المسلمين كثرة طلبه لنا ، ١٠
أرسل إلينا قروراً ، يقول لنا : « لا يربك شكوى أخيك ؛ فإن
السلطان لا يسمعه أن يقول له : « اسكت عن طلبك ! » ، ولا يعطيه
عليك يدًا ، غير أننا نلوى القصة مرحلة * بعد مرحلة ، حتى يقع ٤٦ (ب)
الانفصال . » فشكرته على ذلك . وقال : « إن غرناطة عليه آكد من
مالقة لاحتياجه إلى الاجتياز عليها في غزواته ، وما أشبه ذلك من المرافق ؛
فتقدم أنت الآن ، وأعد جهذك ما يجب من ضيافة السلطان إذا [كان]
خطوره عليك ؛ وهو ما ربك على غرناطة في انصرافه ! » فسرني ذلك ،
وتقدمت إلى وادي آش ، وأعددت له ما كان جديراً به .

الفصل الثامن

إمارة عبد الله بن بُلُقَيْن بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٤) سياسة عبد الله بعد عودته من لَيْيَط : إجراءات

دفاعية وسياسية

٥٥ — تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لَيْيَط . مسلك قَرُور .

٥ ولما وصلت وادي آش ، وقد ظهر إلى قبل في لَيْيَط من جفاه قَرُور
وتخويفه لي ، وتهديدي على لسان الأمير ، والأمير عند ذلك غافل ، غير أنني
حسبت ذلك من قبلي لا رأيت من مكاتته عنده . فأذركني من ذلك رُعبٌ
شديد . وعانيت مع هذا ما حلّ بابن رَشِيق ، وسمعت وعيد القليعي لي ،
وجفاهه علي ، وإزالة رقبتني عنه ، ما زادني ذلك جرعاً ، لاسيما أن الجزع
والسوداء مُتَمَكِّنَةٌ من نفسي ، وأجدها في طباعي ؛ كذت أن أموت غماً .
١٠ ولم أر قط قبل ذلك دُلاً ولا كدراً ؛ فأنكرت الأمور كلها مع السلطان ،
على حسب ما كان يُكرمني سَفَرَةُ بَطْلَيْوس ، ورأيت ضد ذلك كله ؛
وقرورٌ يُناصبني المداوة ، ويرسل المشاورين إلى هواني ، ويأمرني في حال
تلك الحرب بأوامر باردة ، يُريدُ بها إذلالاً ، ويُظهر إلى فيها التعنيف
١٥ والتعسف .

فلما دخل نظري ، أراد إصلاح ما أفسد معي . فقلتُ أن ذلك ليس

لنية صلحت ، بل الحاجة عرّضت ودفعت إليها ضرورة من قبل الاجتياز على .
ولأجل ذلك ، قال لي على لسان الأمير في خبر أخى ما قال ؛ وتبين لي أنه ،
لو كان ذلك من عند الأمير ، لم يطلب قرورٌ مِنِّي عليها رشوة . فإنه مع
ذلك لم يخلني من مؤنتها ، وعمل لي حجة في دفع ضرر أخى عني ،
وأخذ مِنِّي عليها ألف دينار مُرابطة ، لم أخرج قطُّ على ذكرها مدة حياته ،
لئلا يطلبني عند الأمير ؛ ثم لم تنفصل ساعة أن انصرف ، وطلب لربيبه
خمسة دينار ؛ فأعطيتها له ، وكذلك كل ما يطلب بأمره وتهدير ، مع قلة
رحمته ورفقه ، * وخشونة لفظه . ثم أعطيته في غرناطة ألف دينار أخرى ٤٧ (١)
باسم كسوة خيله . وأما الذي صار إليه في سفرة بطليوس ومدة كونه على
لييط مع الرسل ، فأكثر من أن يحصى ؛ وهو في ذلك كله لا يزداد إلا
فاراً واستكباراً . ومثل هذه الوسطة تُفسد على الرئيس كثيراً ، وتبغض
إليه جماعة .

[أرسل في] أمير المسلمين ، وأنا يمكناسة ؛ فسألني عما صار إلى قرور
من قبلي ، فرويت الأمر بأخزم ما يمكن ، وقلت في نفسي : « إن أعلتته
بذلك ، وهو على حال التمكين عنده ، فربما أخرجه كتابي عليه . وتقرّعه به ؛
ثم استقرّه على مرتبته ؛ فيكون حتمي على يديه ؛ ولو أتى نأمن مكره ،
لأعلتته بالحال ، أو ربّما يقع الكتاب إلى يد قرور من غير تعمّد ، والغرر
لا يدخله إلا أهوج ؛ وكثير من الحق يجب تركه ، [وفيه فائدة] بصاحبه ؛
فلم يسعني أن أقول في جوابي للسلطان إنه لم يصِرْ إلى [بغير رشوة] ؛
فيكذبني ؛ إذ كان يعلم بلا شك أننا لم نُخلّ من ذلك الدفع التي ٢٠

أعلمني رُسُلِي . وصَحَّ عِنْدِي أَنَّ قَرُورًا حَيْثُ يَصْدُقُنِي ، وَلَا يَقَعُ
قَرُورٌ عِنْدَهُ فِي (١) »

٥٦ — بعض المؤامرات وتحاذل ابن القليعيّ

- ٥ [أَمَّا أَخُونَا تَعِيمٌ ، صَاحِبُ مَالَقَةٍ ، * فَإِنَّهُ أَرْسَلَ إِلَى الْقَاضِي ابْنِ سَهْلٍ خَمْسِينَ (٤٧) رَ] مِثْقَالًا ، يَسْتَعِظُفُهُ عَلَى الْقِيَامِ عَلَيْنَا بِالْحُجَّةِ مَعَهُ فَرَدَّهَا إِلَيْهِ ابْنُ سَهْلٍ الْمَذْكُورُ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ ذَلِكَ .
- ١٠ وَقَالَ لِي ابْنُ الْقَلَيْعِيِّ : « هَذَا وَقْتُ اقْتِرَاضِكَ لِهَذَا الرَّجُلِ ، بَأَن تَكْتُبَ إِلَيْهِ ، وَتَعِدَهُ بِالْقَضَاءِ عِنْدَ انْصِرَافِكَ ، وَهُوَ يَسْمَحُ فِي قِصَّةِ أَخِيكَ ، عَلَى أَنْ تَجْعَلَ مَعَهُ فِي أَحْكَامِهِ . فَإِذَا أَلْصَقْتَنِي بِهِ ، رَأَيْتَ عَجَائِبَ مِنْ تَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى مَرْغُوبِكَ عِنْدَ الرُّبَاطِيِّينَ وَفِي بِلَادِكَ ؛ فَإِنَّكَ ، لَوْ شِئْتَ أَنْ تَأْخُذَ مِنْ أَحَدٍ دِرْهَمًا بَنِيرَ النَّمُوسِ ، لَسَمِجَ عِنْدَ النَّاسِ ؛ وَإِذَا أَخَذْتَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الْحَقِّ ، حَلَّ لَكَ أَخْذُهُ ، وَلَمْ يَسْتَبْشِعْهُ أَحَدٌ . وَلَا أَجِدُ أَحَدًا [يَنْفَعُ لَكَ] مِثْلَ هَذَا الرَّجُلِ ! » وَلَمْ يُبَارِحْنِي حَتَّى دَفَعْتُ إِلَيْهِ بِخَطِّ يَدِي رُقْعَةً تَتَضَمَّنُ لَهُ الْقَضَاءَ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ لَهُ عَلَيْهِ مِنْ مُسَاهَرَةٍ وَمُشَاهَرَةٍ .
- ١٥ وَرَأَيْتُ إِبْجَابَتَهُ إِلَى ذَلِكَ صَلاَحًا بِي وَخَطَأً بِأَخِي ، وَلِمَا تُوجِبُهُ السِّيَاسَةُ مِنْ مَسَايِرَتِهِ وَمُدَارَاتِهِ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . [وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ] قَدْ حَرَصَ عَلَى الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَلَا أَرَاهُ يَبْتَدِئُ إِلَّا بِي ، مَا لَمْ وَفِي هَذَا فَسَادُ مُلْكِي وَخَلْعِي ، وَيَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ (٢)

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

(٢) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

« . . . * وبك واثقٌ غير أنك قد جعلت لي بقولك هذا من الحرص ٤٨ (أ) على هذا المال ما أريد أن تعلمي ممن يُقبض ! » فإني لا أكاد أن أصدقَه ، لاحتياجي إلى ما تحنُ بسيله من النفقات ، وإقامة هذا الجيش كلَّ عام . فجعل يُسمي لي أقواماً لا يعشرهم في الخير والفضل ، وقدم ذكر صاحبِ الأحباس ابنِ سلمون ، وتسبب إليه برسم الأحباس ، وغيرهم ممن لم يَبَلْ منهم إلا الطاعة والنصيحة . فقلتُ في نفسي : « الله أكبر ! ما قصد هذا إلا إلى هذه الحاشية لنا ولآبائنا ، ألا وهو يُريد إفرادنا دونهم ، ليتسكن بما شاء ، ولا نجد صديقاً نستريح إليه ، مع ماتيين من إنفاسِهِ ، وحدهٍ مقاطيعه ، وأغراضه القاتلة ! »

١٠ والعين تبصر في غيبي مُحَدَّثِهَا إن كان من حزبيها أو من أعدائها وجعل يطلبُ بنى السَّنيدي والكتَّبة وغيرهم ممن قد اصطنعناه [ونأمن] أمانته ؛ ثم قال لي : « كلُّ ما رأيت من السلطان في لُيْط كان مغلَّتا أن يجعل لك مجلساً ولغيرك تست وأنت على سعة ، وأفعل شيئاً تبطل به حجته [عليك] (١) »

١٥ « . . . * كنتم عليها من التَّزَقُّب والإِنْذار بالعيال نفثة حاقدة . » ٤٨ (ب) وكان هذا القلبيُّ مخمولاً في أيام الشيخ جدنا — رحمه الله — ؛ وكان لا يدعه في المدينة ، ويأمره بسكنى ضيعةٍ ، لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل . فلما ظهر أمر المرابطين ، اصطنع إلى مؤمِّل وغيره ، ووسم لي بسمة الخير والقدرة على الكلام ، وأنه لا أحدٌ يقدر على استمالِ المرابطين على ما هو عليه . فوجهته رسولاً ، وهو في ذلك يعمل لنفسه ،

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

ويسعى في هلاكي في الباطن ، وينتف بذلك ، على ماصح عندي ، ويقول :
« والله ! لأبلغن حفيد باديس الطينة السوداء ، ولأشوقه إلى درهم ينفعه ،
[وذلك] على صنيع جدّه بي وبغيري ! »

وأخبرني أبو بكر بن مسكن أنه [كان كتب] إلى أمير المسلمين في
أول سفره معه ، ولقي في الطريق خبر دخوله [الأندلس] ، وقال :
« هذا على رغم أنوف الفسقة سلاطين الأندلس ! » فقال أبو بكر بن مسكن :
« ونحطّ معهم سلطانك ؟ » فقال : « نعم ! وهو المقدم إن شاء الله !
..... مات لتنفيذ الأقدار ! » فلما أذن الله بانصرافه تكلم
ابن سهل إلى الأمير وقال له : « أنت على » (١)

١٠ « . . . * نحن بحال لا يرضى عنا فيه لا رعية ولا جند ؛ وفي هذا
الفساد والقطع . قال لي القليعي : « إن نعين عليك الجند ، استنجدت
من العدو من يغنيك عنهم . ودعني ورأيي بعد إشراكي مع ابن سهل ،
ولا عليك من حيث يقوم لك المال ! »

فرايت أماً مغمى ومستأثراً به دوني ، مع ما كان ينطق به لسانه أبداً
١٥ من الوعيد ، والتهديد عند أصدقائه ومن ينقل ذلك إلى عنه أنه يقول :
« والله ! لأبلغن من حفيد باديس ما كان يبلغ جدّه مني ومن غيري ! »
يسرح بذلك لقلّة تحفظه وإرساله لسانه ، ولاحتقاره لنا واحتياجنا إليه . فزاد
ذلك الجند قللاً ، وهُموا بالانتقال مجتمعين على ذلك .

فلما بصرت هذه الحالة ، قلت في نفسي : « أنا بسبيل ، إن استفسدت
٢٠ إلى الجند ، وهم جناحاي ، أن بقيت وحدي مع يروم خلعي . فالأولى على

(١) خرم نحو نصف صفحة في الأصل .

كلَّ حالٍ أطباؤهم ، واستِصْلَاحُ ما فسد من أنفسهم ؛ وإِسْخاطُ القُلَيْبِيِّ وَحْدَهُ واجِبٌ في رَضَى عَامَّةِ عبيدى وأجنادى . « جَمَعْتُهُمْ بِمَحْضَرِهِ ، وَأَعْلَمْتُهُمْ أَنِّي رَاجِعٌ عَنْ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ ، وَرَأَيْتُ عَلَيْهِمْ إِثْرَ أَلَاتِهِمْ . فَهَامَ الْكُلُّ عَلَى الْقُلَيْبِيِّ ، وَهَمُّوا بِاخْتِطَافِهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ لَوْلَا إِمْسَاكِي لَهُمْ ؛ وَخَشِيتُ مَعَ هَذَا عَلَيْهِ أَنْ يَقْتُلُوهُ ، فَتَكُونُ شَهْرَةً وَعُقُوقًا ، وَيَنْجِرَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ الْمَحْمُودِ .

فَقُلْتُ لَهُمْ : « أَنَا أَكْفِيكُمْ أَمْرَهُ ! » وَأَمَرْتُ بِتَقَافِهِ عَلَى أَجْمَلِ الْوُجُوهِ فِي بَيْتٍ بِقُرْبٍ مِنَ الْقَصْرِ ؛ وَكَانَ تَحْتَ يَرٍّ وَإِكْرَامٍ ، وَأَنَا فِي ذَلِكَ أَعْتَذِرُ إِلَيْهِ مِنْ قِيَامِ الْعَامَّةِ ، وَأَعِدُّهُ بِالْانْطِلَاقِ عِنْدَ إِطْفَاءِ النَّارَةِ ، كَالَّذِي صَنَعْتُ .

فَلَمَّا تَوَطَّدَتِ الْأَحْوَالُ وَقَرَّتْ قَرَارَهَا ، أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِ ، وَأَنْهَيْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَكْفِيَ لِسَانَهُ ، وَيَدْعَ فُضُولَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ إِلَّا فِيمَا يَعْنِيهِ وَيُشَاكِلُ طَرِيقَتَهُ . فَقَالَ لِي : « نَعَمْ ! أَنَا أَلْتَزِمُ الرُّوَاطِطَ ، وَأَسْلُكُ سَبِيلَ الْعَافِيَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ انْطَلَقَ ، وَطَارَ* إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّكْوَى ، ٤٩ (ب) وَزَادَ فِي الطِّينِ بَلَّةً . فَقَالَ لِي الْجُنْدُ : « لَوْ أَنَّكَ أَمْسَكْتَهُ ، لَمْ يُهَيِّجْ عَلَيْكَ النَّارَ ! وَسَتَذُمَّ عَاقِبَةُ انْطِلَاقِهِ ! »

١٥ — ٥٧ — سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون

وَأَرَانِي جَمِيعَ الْجُنْدِ مِنَ النَّائِيِّ وَالْإِقْيَادِ وَالْمُنَاصِحَةِ مَا حَسِبْتُ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ غَيَّ الدَّجَالِ . فَسَرَرْتُ بِهِذِهِ الْحَالَةَ ، وَاطْمَأَنَنْتُ إِلَيْهَا ، وَقُلْتُ : « هُوَ لَا أُمَّةٌ لَا يَرَوْنَ بِي بَدِيلًا لِلْإِنْصَافِ لَهُمْ وَرَغْدِ عَيْشِهِمْ مَعِي ؛ وَهُمْ قَدْ رَأَوْا جُنْدَ الْعِدَّةِ ، وَأَنَّ أَقْلَ عَبِيدٍ لَهُمْ أَغْنَى مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَأَصْلَحُ حَالَهُ .

٢٠ فَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَالُ الْأَذْنَى بِالْأَفْضَلِ ! » ثُمَّ عَلِمْتُ قِيَاسَ لِلْغَارِبَةِ أَهْلِ

المحصون ، وَعَلِمْتُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ ؛ وَلَمْ نَنْظُنْ قَطُّ أَنْ أَحَدَهُمْ يَبِيعُ أَيَّامِي . وَإِنَّمَا وَجَسْتُ نَفْسِي مِنَ الرِّعْيَةِ لَطَمِهِمْ فِي حِطِّ الْمَغَارِمِ ، وَلِلَّذِي شَاعَ مِنَ الزَّكَاةِ وَالْمُشْرِ عِنْدَ الْمُرَابِطِينَ . فَقُلْتُ : « إِنَّ بِهِذِهِ الْعِقْبَانِ الَّتِي عَلَى رُؤُوسِهَا ، لَا تَجْتَرِي عَلَى شَيْءٍ ! وَإِذَا تَقَفَّتِ الْمَاعِلُ ، كَانَ أَمْرُ الرِّعْيَةِ يَسِيرًا . وَكَمْ عَسَى يَسْتَطِيعُ الْجَيْشُ الْقَادِمُ عَلَى أَنْ يَغْلِبَ جَمِيعَ الْبِلَادِ ؟ وَمُحَاوَلَةٌ مَعْقِلٍ وَاحِدٍ مِنْهَا تَطُولُ ، وَتَتَخَدَّثُ فِي خِلَافِهِ أَسْوَالٌ » .

فَصَرَفْتُ وَجْهَ اهْتِبَالِي إِلَى تَشْيِيدِ الْحِصُونِ وَبُنْيَانِهَا ، وَإِعْدَادِ مَا يُضْلَحُّهَا لِإِخْصَارِ إِنْ كَانَ . فَلَمْ أَدْعُ وَجْهًا مِنْ وَجْهِ الْحَزْمِ إِلَّا وَفَعَلْتُه : مِنْ إِقَامَةِ الْأَجْيَابِ ، وَإِعْدَادِ الْمَطْلَحِينَ ، وَأَنْوَاعِ الْمُدَدِ مِنَ التَّرَاسِ وَالنَّبْلِ وَالرَّعَادَاتِ ، وَجَمِيعِ الْأَقْوَاتِ ؛ وَقَلَعْتُهَا مِنَ الْقُرَى ؛ وَأَعَدَدْتُ لِكُلِّ حِصْنٍ قُوَّتَهُ لِأَزِيدَ مِنَ الْعَامِ . وَفَعَلْتُ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي الْمَدِينَةِ حَضَرَتِي ، مَا أَسْتَغْنِي عَنْ تَحْدِيدِهِ لِاشْتِهَارِهِ .

وَقُلْتُ : « لَيْسَ مِنَ الْمُمَكِّنِ أَنْ يَتَعَرَّضَ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا مِنْ سُلَاطِينِ الْأَنْدَلُسِ إِلَّا بَعْدَ إِبْرَامِهِ لِأَمْرِ الرُّومِيِّ ! وَلَا بُدَّ عِنْدَ مُنَاطَرَتِهِمْ مِنْ فَرَجٍ : إِنْ غَلِبَ الْمُرَابِطُ ، لَمْ يَفُتْنَا الدَّخُولُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا أَسَدَيْنَا إِلَيْهِ مَا تَذَمُّ عَاقِبَتُهُ أَكْثَرَ مِنَ الْإِحْتِيَاظِ عَلَى بِلَادِنَا وَالْمُدَارَاةِ عَلَيْهَا ؛ « فَلَا الْحِمَارُ سَقَطَ ، وَلَا الزُّقُ انْخَرَقَ ! » نَحْنُ مُذَرِكُونَ : لَا يَنْبَغِي تَقْدِيمَ يَدٍ سَيِّئَةٍ إِلَيْهِمْ . * وَإِنْ غَلِبَ الرُّومِيُّ ، كُنَّا مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ، وَقَدْ فَعَلْنَا ٥٠) مَا أَبْرَمْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبُنْيَانِ وَالتَّشْيِيدِ ، وَاتَّخَذَ الْمُدَدَ ؛ فَسَيَكُونُ بِذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ حِمَايَةٌ وَانْجِرَارٌ إِلَى غَدٍ ، إِذَا الْبُنْيَانُ مِنَ الْمُرَابِطِ لَا يَنْفَعُ ! »

وَلِذَلِكَ أَعَدَدْنَا الْمَنْكَبَ : إِنْ تَغَلَّبَ الرُّومِيُّ ، فَأَكُونُ عَلَى الْبَحْرِ مُتَّصِلًا

- بالمسلمين ، ندافع منها جهْدنا ، إلى أن نُضطرَّ إلى الجواز وطلَب السلامة
بمُشاشة أنفسنا ونُتَقِّ من أموالنا . فشيدتها لذلك ، كالذي شهر عنا .
- والجاهل لا يدري ما أولُ هذا ولا آخره ، إلَّا ويخبط [خبط] عشواء :
فكلُّ يتكلَّم على شهوته . ولم نعتقد في أمر المرابطين — يعلم الله ذلك —
- ٥ صدَّهم عن جهادٍ ، ولا تظافراً مع أحدٍ عليهم ، ولا أردتُ بهم شيئاً من
مساءةٍ نُسبت إلينا ، أكثر من أني جَزَعْتُ الجزع الشديد مما تقدَّم
ذِكْرُهُ من تلك المعاني التي أبصرتها ، وما جرى على ابن رَشِيْق ، مع
هَلَمي لذلك ، وتمكَّن السوداء مِنِّي ، وسوء الظنِّ مع معاينة اليقين .
- فقلت : « ما دام تتلقَّى الفِئتان ، نخشى حملة السيل على هذه المدينة :
١٠ فتحصينها أوَّلَى ، ولن يُضِرَّ ذلك » فتي دعاني أمير المسلمين إلى إعطاء
عسكريٍّ أو مالٍ ، أو ما أشبه ذلك مما يجبُ من مُشاركته وإيجاده ، لم
نتأخَّر عنه ، فقيمَ على نفسى الحُجَّة ؛ وتجلَّب إلى المَصْرَّة إن فعلتُ غيره ؛
غير أنِّي ، متى دعاني إلى الخروج إليه بنفسى ، نعتذر وندافع ذلك
جهدى . فمسي [أن] يتركنى ويقبل عذرى ؛ ومتى لم يقبل لى عذراً ، نعلم
أنه يريد إخراج أمرى إلى حدود الفعل ؛ فهو إذاً على متعسفٍ لكلام الأعداء
- ١٥ والكذب ؛ فلا بُدَّ لى عند ذلك من الاحتياط على مُهَجَّتى والتحصين على
نفسى ، ونجعله إذ ذاك كسائر مَنْ يُريدُ إخراجى من السلاطين ؛ ولِى مَعَهُ
اللهُ ، إذا لم أنوِّ به سوءاً ، ولا واسيتُ عليه أحداً ، ولا صدَّدتُه عن
جهاده . فبأى شيء يتسبَّب إلى إلَّا إن شاء التذنب مع القدرة ؟ فلا
٢٠ طاقة لى بذلك ،* كالذى صنَّعَ إنسانٌ دَخَلَ على بعض الملوك ، وقد أعدَّ ٥٠ (ب)
لكلامه جواباً ؛ فلما خَرَجَ إلى الثُفاف ، سُئِلَ عن إعدادِهِ الجواب وزَعَمِهِ

أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُ ؛ فَقَالَ : « لِكُلِّ كَلِمَةٍ وَجِدْتُ جَوَابًا إِلَّا لِقَوْلِهِ :
 « خُذُوهُ ! » فَلَمْ أَذِرْ مَا أَقُولُ فِيهَا ؛ فَوَكَّلْتُ الْأَمْرَ إِلَى الْأَقْدَارِ ! »
 وَكُنْتُ ، أَيَّامِي تِلْكَ ، بَيْنَ الرَّجَاءِ وَالْخَوْفِ ، إِلَّا أَنِّي وَاثِقٌ بِكُلِّ
 مَنْ مَعِيَ مِنْ رِجَالِي وَخَدَمَتِي أَنَّهُمْ لَا يَنْدَرُونِي . فَقَوَّيْتُ نَفْسِي لِذَلِكَ بَعْضَ
 ٥ الْقُوَّةِ ، مَعَ مَا كُنْتُ أُعَدِّدُهُ .

٥٨ - معاقدة عبد الله مع البرهان

وكيل القونش السادس

وَلَا حَانَ انْصِرَافُنَا مِنْ لَيْطٍ ، كَلَّمَنَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَسْكَرٍ يَتَرُكُهُ
 عِنْدَنَا بِالْأَنْدَلُسِ ، خَوْفًا مِنَ الرُّومِيِّ أَنْ يَكْلِبَ عَلَيْهَا ، وَيَطْلُبُنَا بِثَأْرِ تِلْكَ
 ١٠ السَّفَرَةِ وَغَيْرِهَا ؛ فَلَا يَكُونُ عِنْدَنَا بَيْنَ نُدَافِعُ ؛ فَقَالَ : « أَصْلِحُوا نِيَّاتَكُمْ ،
 تُكْفَرُوا عَدُوَّكُمْ ! » وَلَمْ يَعْطِنَا عَسْكَرًا . فَأَيَّقَنَا أَنَّ الرُّومِيَّ لَا يَدْعُنَا عَلَى
 هَذِهِ الْفُرْصَةِ دُونَ طَلَبِ . كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ احْتَفَلَ وَأَنَّى طَالِبًا
 لِلْمَالِ ، مُتَجَنِّيًا عَلَى مَنْ خَالَفَهُ أَنْ يُفْسِدَ بِلَادَهُ . وَعَاقَدَ صَاحِبَ مَرْقُشَةَ
 وَمَنْ يَلِيهِ مِنَ الشَّرْقِ ؛ فَدَافَعُوا شَرَّهُ وَدَفَعُوا إِلَيْهِ مَا سَلَفَ لَهُ عِنْدَهُمْ .
 ١٥ وَبَلَغَنِي الْخَبَرُ ، وَزَادَ ذَلِكَ فِي غَمِّي ، وَعَلِمْتُ أَنِّي فِيهِ كَرَاكِ الْأَسَدِ :
 إِنْ أَسَلْتُ الْبَلَدَ ، وَلَا عَسْكَرَ عِنْدِي ، هُتِكَ ، وَلَمْ يَنْجِبْ لِي فِيهِ دِرْهَمٌ ،
 وَلَمْ أُغْذَرْ مَعَ هَذَا ، وَلَا يَقْرَأُ الْمُطَالِبُ بِأَنْ يَقُولَ عَنِّي إِنَِّّي ضَيَعْتُهُ أَوْ
 سَقْتُ إِلَيْهِ الْعَدُوَّ ، كَالَّذِي رَأَيْتُ وَسَمِعْتُ قَبْلُ عَنْ ابْنِ رَشِيقٍ — وَخُسَارَةُ
 بَلَدِي زَائِدَةٌ — وَلَا نَقِيمُ أَوْدًا بِذَلِكَ لِكُلِّ مَا نَحَاوِلُهُ مِنَ الْغَزْوِ كُلِّ عَامٍ
 ٢٠ وَضِيَافَاتِ الْمُرَاطِبِينَ ؛ فَتَجَمَّعَ عَلَى الْخُسَارَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ . وَإِنْ وَاسَيْتُ الْقَوْمَ

- وأصلحتُ على نفسي ، قيلَ : « قد عاقَدَ الرُّومِيُّ ! » وَيُشْنَعُ عَلَى مَا لَمْ أَفْعَلْ ، كَالَّذِي كَانَ . فَلَمْ أَنْجُ مِمَّا تَوَقَّعْتُ لِلْقَدَرِ الْمُنْفِضِ .
- وكان أَلْبَرْهَانُ زَعِيمَ جِهَاتِ غَرْنَاطَةِ وَالْمَرْيَةِ ؛ وكان أَلْفُونُشُ قد وَكَّلَهُ أَمْرَ الْجِهَتَيْنِ ،* من إِقْدَارِ أَمْرِهِ فِيهَا لِفَسَادٍ عَلَى مَنْ تَعَذَّرَ لَهُ عِنْدَهُ ٥١ (١)
- شَيْءٌ ، وَلَقَبْضِ مَالٍ وَتَوَسُّطٍ مَا يَنْفَعُهُ فِيهَا . فَأَرْسَلَ إِلَى أَوَّلًا عَنْ نَفْسِهِ ، يُنْذِرُ بِدُخُولِ وَادِي آشَ ، وَأَنَّهُ لَا يَرُدُّهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَّا الْفِدَاءُ لَهَا . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « وَمَعَ مَنْ أَتَقِي رَأْيَهُ ؟ أَيُّ مَقْدَرَةٍ بَنَى عَلَى مُدَافَعَتِهِ ؟ لَا عَسْكَرٌ تَرِكَ لَنَا مُدَافِعُ بِهِ ! فَكَمْ يَأْخُذُ فِي هَذِهِ النَّصْبَةِ مِنْ أَمْرِى الْمُسْلِمِينَ ! وَكَمْ يَفْسُدُ فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ ! مَا لَا يَعْشُرُ قِيَمَةَ مَا يُنْطَلَى كَالَّذِي عَهَدْنَاهُ مِنْهُمْ ! اللَّهُمَّ لَوْ كَانَ ، وَفَقَدَ ذَلِكَ ، وَبِيلَغْنَا عَنْ أَمْرِى الْمُسْلِمِينَ عِنْدَهُمْ ! أَلَيْسَ مِنَ الصَّلَاحِ إِفْدَاؤُهُمْ^(١) بِمَا عَزَّ ؟ فَتَحَنُّ جُدْرَاهُ أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ قَبْلَ رِحْلَتِهِمْ دُونَ فُسَادٍ فِي الْبِلَادِ ! وَتَحْتَسِبُ ذَلِكَ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ الْعَالَمُ بِالضَّمَائِرِ ! فَإِنَّا لَوْ فَعَلْنَا ذَلِكَ أَشْرًا وَبَطْرًا ، وَعِنْدَنَا بَيْنَ مُدَافِعٍ ، لَكَانَ فِيهِ الْحُجَّةُ عَلَيْنَا ! »
- ١٥ فَاجْتَمَعَ رَأْيُنَا عَلَى إِرْضَائِهِ بِالْيَسِيرِ ، مَعَ مُعَاقَدَتِهِ إِلَّا يَقْرُبَ لَنَا بِلْدًا بَعْدَ أَخْذِ هَذِهِ الدَّفْعَةِ ، فَارْتَبَطَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ ، قَالَ : « هَا أَنَا قَدْ صَلَحْتُ جَانِبِي ! وَالْأَوْكَدُ عَلَيْكُمْ أَمْرُ أَلْفُونُشَ ، الَّذِي هُوَ عَلَى الْحَرَكَةِ عَلَيْكُمْ وَإِلَى غَيْرِكُمْ ؛ فَمَنْ أَنْصَفَهُ نَجَا ، وَمَنْ حَادَّ عَنْهُ ، فَسَلَطَنِي عَلَيْهِ ! إِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، لَا بُدَّ مِنْ إِيْتَانِ مَرْغُوبِهِ ، وَالْوُقُوفِ عِنْدَ أَمْرِهِ . وَلَا يَنْفَعُكُمْ هَذَا الَّذِي أُعْطِيتُمُونِي إِنْ خَالَفْتُمُوهُ . وَلَيْسَ بِنَافِعٍ إِلَّا فِيمَا يُحْصَنِي دُونَ رَأْيِي ٢٠

(١) أصل : « أَقْدَامُ » .

إِنْ حَدَّ لِي ضِدَّهٗ ! » فَعَلِمْنَا أَنَّ قَوْلَهُ حَقٌّ يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ . فَقُلْنَا : « لَا يُمْكِنُ أَنْ نَوَجَّهَ نَحْنُ إِلَيْهِ وَنَبْدَأْهُ ؛ فَتَوَقَّظْ لَأَكْلِنَا ! وَلَكِنْ ، مَتَى أُرْسَلَ يَأْذَنُ بِذَلِكَ ، سَنَعْتَدِرُ إِلَيْهِ ؛ فَعَسَى [أَنْ] يَقْبَلَ رَغْبَتَنَا ، وَلَمْ نَفْتَحْ لَهُ بَابًا فِي إعْطَاءِ شَيْءٍ إِلَّا يَزِيدَ طَمَعُهُ ! أَكْثَرُ مِنْ تَلَوَّى الْقَوْلَ ، عَسَى مِنْ هُنَا إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ ، [أَنْ] يَأْتِيَ عَسْكَرٌ يُكْسِرُ بِهِ ؛ فَلَا يَبْأُ بِقَوْلِهِ . وَإِنْ لَمْ يَأْتِ أَحَدٌ ، لَمْ نَكُنْ نُقَدِّمُ إِلَيْهِ قَبِيحًا ، فَتَشَقَّى عِنْدَ ذَلِكَ . »

وَدَافَعْنَا الْأَمْرَ عِنْدَ الْبَرْهَانِشَ ، وَأَنَّهُ لَا سَبِيلَ إِلَى أَنْ نَعْطِيَهُ ^(١) شَيْئًا ، * وَاعْتَذَرْنَا بِالْمُرَاطِبِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لَزِمْنَا مِنَ النِّفَقَاتِ عَلَيْهِمْ . فَسَكَتَ عَنَّا ^{٥١} (ب) الْخَنْزِيرُ ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبِهِ ، كَالَّذِي يُلْزِمُهُ مِنَ التَّخَدُّمِ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُوَجِّهَ لِي رَسُولًا يُطَلِّبُ جِزْيَتَهُ ؛ فَإِنْ انْصَرَفَ دُونَ شَيْءٍ ، كَانَ هُوَ الْمُنتَقِمَ مِنْ جِهَانِيهَا .

٥٩ — التَّزَامُ عَبْدَ اللَّهِ عَلَى أَدَاءِ الْجِزْيَةِ لِلْأَفُونُشِ السَّادِسِ

وَعَقْدُ اتِّفَاقٍ جَدِيدٍ مَعَهُ

وَتَأَهَّبَ الْأَفُونُشُ إِلَى الْحَرَكَةِ ، وَقَدَّمَ رَسُولَهُ بَيْنَ يَدَيْ حَرَكَتِهِ . فَلَمَّا صَحَّتْ عِنْدَنَا ، أَتَانَا مِنْهَا الْمُقِيمُ الْمُقْعِدُ ، وَلَمْ تَدْرِ أَيْنَ الْخَيْرَةِ : إِنْ كَانَ فِي رَفْضِ الْبَلَدِ وَتَرْكِهِ لِيَعْبَثَ فِيهِ ، أَوْ مُدَارَاتِهِ بِمَا تَيْسَّرُ . وَوَقَعَتْ مِنْ ذَلِكَ هَيِّئَةً فِي النَّاسِ وَرَجَّةٌ ، حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَزَعِ أَنَّنا لَمْ نُصَدِّقْ أَنَّ يَقْبَلَ مِنَّا الْمَالَ دُونَ الْمُلَازِمَةِ لَنَا ، طَالِبًا لِإِخْتَارِ لَيْيَطٍ وَمُعَاقِدَةِ الْمُرَاطِبِينَ . وَطَمَعْنَا أَنْ يَقْنَعَ رَسُولُهُ بِالْيَسِيرِ ؛ فَقَالَ لِي : « لَمْ آتِ عَنَ ذَلِكَ كَلَّهٌ ،

(١) الْأَصْلُ ، « نَعْطُوهُ » .

إلا أن تعطيه ما فاتته عنك من جزية ثلاثة أعوام بثلاثين ألفاً ! لا يُنقص منها شيء ؛ وإلا ، فما هو مُقْبِلٌ ! والذي تقدر عليه ، فأصنع ! »
 فرَوَّيتُ الأمرَ في نفسي ، ورأيتُ أن التعاطيَ حاقةٌ لا تفيد ، وقلتُ :
 « إن أخذتُ هذه من الرعيّة ، ضجّتْ وشكّتْ ، ويكون مُقدّمُها
 بمروكش^(١) شاكين ، يقولون : « أخذَ أموالنا وأعطاها للنصارى ! »
 ولكن لهذا الوقت يحتاج الإنسانُ ما ادّخرَ ليصونَ به بَلَدَهُ وعِرْضَهُ .
 وأنا جديرٌ أن أعطى ذلك من بيت مالى ، بحيثُ يسلم البلدُ ، وبحيثُ
 تسكر الرعيّةُ بمدافعةِ عدوّها دون تكليفها شيئاً ، ولا تقع الشُّنعة ! »
 ففعلتُ ذلك ، وأرسلتُ إليه الثلاثين ألفاً ، لم أرزأ أحدًا فيها درهماً .
 ١٠ ورأيتُ مع ذلك أن أجددَ معه عقداً ألا يعترض لى بَلَدًا ، ولا يندرنى
 بعدها ، خوفًا أن يقتلب على ؛ فأجاب إلى العقد . وقلتُ فى نفسى :
 « إذ لا بُدَّ من دفعِها ، فبالعقدِ أولى . فإن حوَّجنا إليه ، وجدناه ،
 ولم يضر ؛ وإن استغني عنه ، كان مكانه مُمرُّ القنى والبيض الرقاق ، إن
 تداركنا* اللهُ بـسـكـرٍ يدفعه ؛ والحربُ خُدعةٌ ! » وإذا لم تغلب ، ٥٢ (ب)
 ١٥ فأخلب ! »

فأجاب إلى تلك للمعاقدة ، حرصاً على أخذِ المال ، ونَحْنُ لا نشكُّ أنه
 يقدر ، كالحاطر لنفسه للضرورة التى لا سبيل إلى سواها . وقال لى عند
 ذلك رسوله : « يقول لك ألقونشُ : » إن كنتُ مُريدُ تحلُّط مع هذه

(١) كذا فى الأصل ، عرض « مراكش » ؛ وليس بتصحيح ، إذ عبارة « مروكش » كانت

تستعمل دون غيرها أيام المرابطين مؤسسى هذه المدينة ؛ وهى التى انتقلت إلى اللغة الإسبانية دون عبارة

« مراكش » ؛ واسمها بالأسبانية إلى اليوم Marruccos .

- لِلْمُعَادَةِ اسْتَعَانَةً بِهِ عَلَى شَيْءٍ مِنْ بِلَادِكَ الَّتِي عِنْدَ ابْنِ عَبَّادٍ ، فَهُوَ يَجِدُكَ فِيهَا فِي وَجْهِهِ هَذِهِ . « فَأَجَبْتُهُ : « إِنِّي لَا أَعِينُ عَلَى مُسَلِّمٍ أَحَدًا ! وَإِنَّ الَّذِي دَعَانِي إِلَى هَذِهِ الْمُعَادَةِ الْمُدَاقَعَةُ عَلَى بَلَدِي وَأَهْلِي مِلَّتِي . فَإِنْ وَقَّيْتُمْ بِذَلِكَ ، فَهُوَ الْمُرَادُ الَّذِي إِلَيْهِ قَصَدْنَا . « وَكَانَ مِنْ نِيَّتِهِ أَنْ يَخْلُطَ الْفِتْنَةُ بَيْنَنَا وَيَبِينُ ابْنَ عَبَّادٍ ، لِيَجِدَ بِذَلِكَ السَّبِيلَ إِلَى بِلَادِهِ ، وَيَقْوَى عَلَيْهَا بِأَمْوَالِنَا ، وَيَتَسَبَّبَ إِلَى طَلَبِ كَثِيرٍ مِنْ أَمْوَالِنَا ، إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الثَّلَاثُونَ أَلْفًا عَلَى وَجْهِ الدِّينِ لِلْمُسَالَمَةِ فَقَطْ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ اسْتِثْنَاءَ عَمَلٍ .
- وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يَتَّقِي يَقُولِنَا ^(١) ، وَيَحْسِبُ ذَلِكَ مِنَّا خُدْعَةً . وَقُلْنَا لَهُ : « إِنَّا مُعَرَّرُونَ فِي هَذِهِ الْفَعْلَةِ مَعَكَ ، وَنَسْتَدْرِكُنَا تَبَاعُثُهَا عِنْدَ الرَّابِطِينَ ، وَنُطَالِبُ بِذَلِكَ ! « فَقَالَ ، تَسْهِيلاً لِأَخْذِ مَالِهِ : « مَتَى أَذْرِكْكُمْ فِي ذَلِكَ مِنْهُ طَلَبٌ ، فَقَلَى الذَّبُّ عَنْ مَدِينَتِكُمْ . « فَأَجَبْنَاهُ : « بَلْ ، هُوَ يَرَى عِزَّنَا ؛ وَقَبُولُهُ وَعِظْفُهُ أَرْجَى عِنْدَنَا مِنْ مَعُونَتِكُمْ . «
- فَانْقَضَتْ الْحَالُ عَلَى ذَلِكَ ، وَقَالَ [لِي رَسُولُهُ] : « لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَدْوِيخِ سَائِرِ الْبِلَادِ مِنْ نَظَرِ ابْنِ عَبَّادٍ وَغَيْرِهِ ، إِنْ لَمْ يَعْطِهِ ! « فَقُلْتُ : « هَذَا أَمْرٌ لَا يَسْأَلُنَا اللَّهُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ! كُلُّ أَحَدٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ! نَحْنُ قَدْ اخْتَلَنَّا عَلَى مَنْ قَلَدْنَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَقَدَيْنَا أَرْوَاحَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ! وَمَنْ لَهُ حَاجَةٌ مِنْ سَائِرِ السَّلَاطِينِ يُقَابِلُ أَمْرَكُمْ حَسَبَ مَقْدَرَتِهِ ، إِنْ شَاءَ بَيْدَاءٍ أَوْ قِتَالٍ . لَا تَتَكَلَّمُ نَحْنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا ، وَلَا يَنْبَغِي لَنَا ؛ وَلَا أَنْتُمْ وَاقِعُونَ تَحْتَ أَوْامِرِنَا ، فَهَنَّاكُمْ عَنْ * ذَلِكَ . وَنَحْنُ لَمْ نَتَخَلَّصْ مِنْ ٥٢ (ب)
- ٢٠ التَّحْصِينَ عَلَى مَا يَخْصُنَا إِلَّا بَعْدَ كَدٍّ ؛ وَمَا كَدُّنَا ، فَشَأْنُكُمْ ! وَأَنَا

(١) أصل : « يثيق قولنا » .

يَبرى ، لا أَغْسُ في ذلك يَدًا ولا لسانًا . »

ولم أجد وَجْهًا نرجو به بعضَ الدِّفاعِ عن إخواننا المسلمين أَكْثَرَ من مُخاطَبَةِ الْمُعْتَمِدِ ، نُعلِّمه بِجَلِيَّةٍ حالنا معهم ، وما ذكروه من إبطاء بلادِهِ ، وتُنذِرُهُ بذلك ، لِكَيْ يَقلعَ ، ويَدَّرِعَ الحِزمَ ، ويُقدِّمَ للأمرِ أَهْبَتَهُ .

٦٠ — تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله

عبد الله يبرر مسلكه

١٠ ثمَّ خاطَبَنا أميرَ المسلمين ، ننصُّ عليه جميع ما وَقَعَ وما دَفَعَتِ الضَّرورةُ إليه ، وأنَّ الحاضرَ أبصرَ من الغائب ، ولو الحال يقتضى بِمَظْلَمِها ، ولو بِمِقدار وصولِ الخطابِ بِمَشورَتِهِ سلامةً للمسلمين ، لم أَقدِّمُ شيئًا في ذلك ولا أَخَرْتُهُ إِلَّا عن رأيهِ ، كالذى يلزم ؛ غَيْرَ أَنَّ الحُفْرَ كانَ أَشدَّ ، لم أرَ التَّغْيِيرَ بالمسلمين ، وإنَّ الانتقامَ منهم مُدْرِكٌ بِحَوْلِ اللَّهِ على يَدَيْهِ . ولم نَشْكُ في أَنَّ الجوابَ يَرِدُّنا بالشكرِ على ما نَظَرْنَاهُ وسَدَدْنَاهُ ، لا سِيَّما إِذْ كانَ الفداءُ من عِندِي ولا أَكَلَّفَ فيها مُسْلِمًا دِرْهَمًا . فوردنى جَوَابُهُ مع ما أُمْلِيتُ نَفْسُهُ من الطَّلَبِ لى ، وصوَّرتُ عنده الأمورَ على غيرِ حَقائِقِها ، بما زادَ فى جِزْعِي ، يقولُ : « أَمَّا مُدَاهَنَتُكَ وَقَوْلُكَ الباطِلُ ، قد عَلِمْنَاهُ ! وسنَعلَمُ عن قَريبٍ كيفَ تَرْضَى الرعيَّةُ ، وما تَصْنَعُ إِذْ رَعِمْتَ أَنَّكَ نَظَرْتَ لَهَا . ولا تُسَوِّفُ : فَإِنَّ هذا قَريبٌ غَيْرُ بَعِيدٍ ! »

٢٠ فلم أَقْنَطْ مع هذا ، وَقُلْتُ ، عندَ الحقائقِ وَتَبْيَانِ ما وَقَعَ ، على لسانِ رَسولٍ : « يَزِيلُ عن بَالِهِ كلامُ الأَعادِي ! وهذا من بَغْيِ القُلُوبِ » وأبى بَكرُ بنُ مُسَكِّنٍ ! فَإِنَّهُمْ لا يَنقَلِبُونَ إِلَّا على شَهواتِهِمْ ! » وكانَ

- أبو بكر بن مُسَكَّن قد بلغ من طغيانه على^١ ، وسبَّو لي ، ورجائه^(١) في أن يسهمه أمير المسلمين من البلد ما يكون قرني أو أكثر ؛ فإنه اتَمَى إلى بني زيري ، وجعل يهذي بذلك ويفتخر به ، لا يرى لأحد عليه فضلاً ، ويسعى في تقض ما نهرم من أحوال الدولة ما لا يتم معه مُلك ولا أمر . فجعلتُ الذنب فيه سَوَاء كما في* القُلَيْعِي ، إذ مقالته لا تطفى ٥٣ (١)
- ما أشعلَ القُلَيْعِي لو أراد الخيرَ ، كما أن تَرَكَه لا ينقص ولا يفتر عن ذلك . فجعلتُ الهمَّ فيهما همًّا واحدًا .
- ولمَّا تشدَّدتُ عليه ، وأمرته بالكفِّ ، أحرق ، وهرب دون نفي ، ومضى قاصداً إلى المُرَابِط ، يفرى في^٢ ، ويسعى على^٣ ، ويكذب ، ويصوِّر الأمور على غير وجوها . فتكرَّرتُ مُخاطبتي على أمير المسلمين ، نبين له جميع ما وقع ، ونشكو بما دهيت به من هؤلاء الفسقة . وهو ، في ذلك كله ، لا يراجعني إلَّا بالشدَّة ، وقبول قولهم على^٤ . فبقيتُ تلك الأيام على أسوأ حال ، لا ندرى أين الخيرة ، ولا كيف التخلص .
- وساء ظنُّ المُعْتَمِد بي في دخول النصرانيِّ إلى بلاده ، وكفه عن بلادنا ؛ واعتقد أن ذلك عن اتفاق ؛ ولو كان عن اتفاق ، لأدَّيتُ عليه مالا فوق الجزية ؛ فليس لهم إلَّا بني الكرى غير منطاعين لقول أحد . ولم ياتِ عسكر المُرابطين إلى إشبيلية إلَّا والبلد قد أفسد .
- والله تعالى يعلم أني ما واسيت في تلك النصبه ، ولا يسألني الله عن كلمة طعنتُ فيها على مُسلم . فاتَّقت الأقاويل عند أمير المسلمين بكثرة الطلب ؛ ولو أني أريد ذلك ، والانحياش إلى النصارى ، كالذي قيل ، لم

(١) أصل : « رجاء » .

يَصِلُ الرُّابِطُونَ إِلَى سَبْتَةِ إِلَّا وَمَدِينَةُ غَرْنَاطَةَ مَمْلُوءَةً مِنْهُمْ ؛ وَكَانَتْ
 أَسْتَطِيعَ عَلَى ذَلِكَ ، وَكَانَتْ لِي فِي الْمَدَّةِ بَرَهَةٌ وَفَسْحَةٌ طَوِيلَةٌ ؛ إِلَّا أَنْ
 الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَتِلْكَ الْقَالَةُ إِنَّمَا كَانَتْ سَبَبًا لِلَّذِي قُدِّرَ ؛ وَلَوْ أَنَّ قَضِيَّتِي
 تُسْتَوْضَحُ ، لَوُجِدَ فِيهَا مَا لَا مَطْعَنَ فِيهِ ، وَلَا مَقَالُ يُبَيِّنُهُ ، وَلَا إِسْرَارَ فِي
 مَثِيلٍ عَلَى مُسْلِمٍ ، وَلَا إِدْخَالَ دَاخِلَةٍ . وَكَيْفَ يَصِحُّ هَذَا قَبْلَنَا ، وَأَوَّلُ
 سَيْفٍ سُلِّ عَلَى الرُّومِ إِنَّمَا كَانَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَهِيَ الْوَقِيعَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالنَّبِيلِ ،
 مِنْ طَاعَتِنَا ، فِي حِينَ تَطَرَّقَ النَّصَارِيُّ إِلَيْهَا عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ؛ وَوَافَقَ ذَلِكَ
 أَوَّلَ ظَهْوَرِ الرُّابِطِينَ وَوُصُولِهِمْ سَبْتَةَ ؛ وَوَرَدَنَا إِذْ ذَاكَ * رَسُولُ الْفُونْتِسِ ٥٣ (ب)
 مُعْتَذِرًا مِنَ الْأَمْرِ ؛ فَصَرَفْنَاهُ عَنِ الطَّرِيقِ ، قَطْعًا لَهُ ، وَإِشَارًا لِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ .
 ١٠ وَعِنْدَ اللَّهِ تَجْتَمِعُ الْخُصُومُ !

الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بلقين بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب
(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولما كُنْتُ في تلك الفترة ، بدتْ أمورٌ وأسبابٌ دَلَّتْ على ما كان من
الافتعال ومُقدِّماتٍ آذَنْتْ بالزوال . فأول ذلك نفاق أهل اليُسَّانة لِـعِلَّةٍ
نذكرُها ، وأرقَّ سببٍ لم يُوبَهِ له . وذلك أنَّي ، لما أمرتُ ببنيان السور
المتَّصل بالجرء ، ودبرتهُ على تلك النصبَةِ التي أُضْرِبْتُ عن شَرْحِها لاشتِهارها
هَيَّأتُ السعادةُ أن وَجَدَ البَنَّاؤُونَ في الأساس قُمُومًا مملوءًا ذهبًا أغلَـسُونِي به .
فلما وقفتُ عليه ، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف مِثقال جعفرية . فاستبشرتُ بها
١٠ وتفاءلتُ بنجاح الطلبة ، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرتُ بمن كان قبلنا . فقلتُ :
« من أساسِهِ يكونُ بُنيانُهُ ! »

وكانت دارُ أبي الربيع اليهوديُّ الخازن للأموال في دولة جَدِّي
— رحمه الله — مبنيةً على ذلك الأساس ؛ فعلمنا أنه من ماله للدفون .
فأتى ابن المرأة متنصِّحًا بالأمر ، ويقول : « أرسلوا عن ابنه ، يكشف لكم
١٥ سائر دقائِـهِ » فخطبنا عنه ليرِدَ علينا في بعض الأمر . وكان صِهْرُهُ ابن
مسيون ، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة ، وأسدينا إليه جيلًا

من التنويه به ؛ فاستمال بها أقواماً من الغرباء ، يصول بهم على أهل ملته ؛ وكان خبيثاً . فأحسن بالقصة ، ووجست نفسه منها ، واعتذر عن صهره ، وساء لذلك ظنّه ، وخشى أن يُعذّب على مال أبيه .

ووافقَ قبلَ ذلك ، عند انصرافنا من رَيْيَيط ، أن فرَضنا على أهل اليُسَانة ذهباً كثيراً باسم التَّقْوِيَةِ ، لم تَجِرْ عادَتُهُم به ، وحملناهم في ذلك على الصَّحَّة والانتطباع ؛ فنَفَرَت لذلك أنفُسُهُم . ووجد ابنُ مَيْمون المذكور السَّيْلَ إلى إغرائهم وتَحْلِيهِم على النفاق ؛ فأجابوه ، ودخلوا في السلاح ؛ ونادى فيهم أن : « جِدُّوا ، مَعَشَرَ بنى إِسْرَائِيلَ ، في حَمايَةِ أموالكم ! » وافترض بذلك ابن مَيْمون . وسَبَقَتْ له جنايةٌ في قتل * عامِلنا ابن أبي لَوْلا ٥٤ (١) على المُسْتَخْلَص رِياسَةً وعدواناً . وامتنعت اليُسَانة بالجملة . ١٠

فلما رأيتُ ذلك ، لم أجِدْ بُدّاً من مُداراةِ الأمر . واشترطَ مُؤمِّلٌ بإصلاحه ، ونهص . مُمٌّ إِنِّي عَلِمْتُ رَأْيِي بَعْدَهُ ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَا يَلْتَقِي إِلَّا أَحَدَ وَجْهَيْنِ : إمَّا طاعةً على غِشٍّ ، أو عصياناً ؛ وأيهما كان ، فإرسالُ العسكر إليه واجبٌ ، وشدةٌ وترهيبٌ ، ليعلموا قَدْرَ ما جَنَوْهُ . وخرَجْتُ بنفسى في أثره ، وقد اجتمعت إلى الأنداب . فإذا بمُؤمِّلٍ قد أَقْبَلَ مُنْصَرَفًا ، وردَّنا عن ذلك المذهب ، وقال لى : « قد أَضْلَحْتُ الأمر مع ابن مَيْمون . ونهوضُك إليه لا يزيد القوم إلا نفاراً ، وربما استعانوا بعسكر ابن عُبَّاد ، لا سيما أَنَّهُ الآن بِمَرْطَبَةٍ ، وليست تُؤْخَذُ بإحْصار ولا قتال ! » على أَنِّي قد عَلِمْتُ أَنَّ ابنَ عُبَّاد لا يَجِيهِم في ذلك الوقت كَلٌّ ، ولا اشتهر بذلك إِلَّا ما كان الناسُ يذكرونه ، وابن مَيْمون يفتخر به وَيُطْمِع به أهل اليُسَانة . ٢٠

فقبلتُ قولَ ابنِ مُؤمِّلٍ ، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة ؛ وقلتُ :
 « خُروجي إلى هنا أو وصُولي إليهم سَوَاء ! إذا أردنا التَّهْيِيبَ ، فقد
 وصلناه ! » ثمَّ قلتُ لمؤمِّل : « صِفْ عليَّ ما انفصلتَ ! » قال :
 « إنَّ ابنَ مَيمُون زَعِيَمَها عَدَدَ أشياء أنكرَها من الإرسالِ في صهره ،
 وهذه الفرضة العظيمة ، وسائر ذلك من الألقاب اللازمة . فضمنتُ لهم
 الصكوك برفع ذلك عنهم ، ولابن ميمون في خاصَّته . » وأمرتُ بعقدَها
 والإرسال بها . وقرتُ الجبالُ قرارها .

- ووجستُ نفسى من ابن مَيمُون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك ،
 وعلمتُ أنَّ هذه هُدَّةٌ على دَخَنِ ، وأنَّ لاطاعة تصحُّ لى معه ، وسيؤثر
 أمثال هذه . قدَّبتُ إلى المداخلة من اليهود المخمولين في زمانه ، ووعدتهم
 بالإحسان ؛ وتكرَّر في الوساطة ابن سِيقى ، حتى أبرمتُ من ذلك
 ما أملتُه . وكان أخذُ ابنِ مَيمُون يسيراً ، لا عُصبةَ له ، وهو غافلٌ . وكان
 الوساطة أيضاً ابنُ المَرَّة مع أبي العباس الحكيم . وكان * ذلك بما نفعه ٥٤ (ب)
 مؤمِّلٌ لانهياشه عن ذلك ، إلى أن وردوا الحضرة على عادتِهِمْ ، وأمرتُ
 بثقافه مع ابنه برضاء من الشيوخ ، وأمرتُ أن لا زعيمَ فيهم بعد اليوم
 إلَّا الكلُّ منهم أمانةً مَنُوهُ بهم ؛ فشكروا ورَضَوْا . وخاطبتُ عامَّتَهُمْ
 نُعْلِيَهُمْ بما لهم في ذلك من الصلاح . وتهدَّنتُ الأحوال وقرتُ ، إلى أن
 تلف الكلُّ .

٦٢ - قضية زناة

وقضية أخرى بعد هذه في أمر زناة : إنه ، لما أعلتُ الفكرة في عاقبة الأمر في هذه الفتن^(١) العارضة ، رأيت أن الاهتبال بالمعاقل من آكد ما يجبُ النظرُ فيه ، كالذي تقدم ذكره من النظر في عُدِّها وما يُصلِحُها ، وأنَّ الأولى استصلاحُ ما فسد من نفوسِ قَوَادِها . وذلك أنه لم يكن يلي لنا معقلاً قطُّ غيرُ صِنْهَاجَةٍ والوصفان والعييد ، ما خلا زَنَاتَةً : فإنَّهم كانوا أجنَادَ الحضرة .

وكان الصَّنْفُ المذكور قد ضَعُفَ ؛ واستولى عليه النقصانُ لطلباتِ جَرَتْ عليهم من قِبَلِ وزراء الدولة كاليهوديِّ وغيره ؛ فإنَّهم كانوا يَروُنَ ألاَّ ولايةَ تَهَيَّأَ لهم مع صِنْهَاجَةٍ لاحتقارهم إيَّاهم وأنفستهم من توليةِ مثلهم ، فكانوا يميلون إلى الصَّنْفِ البرَّانيِّ كُلِّهِ ، ولما جرى على اليهوديِّ ما جرى منهم ، اعتقدَها النايةُ في نفسه ، وخشى مثل ذلك ، فجعل نفسه في مطالبهم ، وتبديدهم ، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة ؛ ومن كان بيده شيء ، تُسَبَّبُ إليه وأزيل عن يده . فأدركهم النقصانُ والقلةُ ، وزاد في زَنَاتَةٍ ، وقويت أحوالهم وإنزالاتهم ، على أنهم كانوا على الحقيقة خيرة جُند الأندلس ، والموثوق بهم في الشجاعة والنبيلة . وكان الصَّنْفُ كثيراً ، لا يعدم ضمُّهم مَنْ له مالٌ .

فقلتُ في نفسي : « هؤلاء القوَّاد الذين على الحصون ، وإذا كانت أنفسهم فاسدةً ، ولا يتذكرون معنا على نعمة طائلة ، فكيف يُمكنون المعاقل ، أو بأيِّ قلبٍ يجذِّون معي ؟ وإنه لا عِوَضَ منهم في الثقةِ

(١) أصل : « الفتن » .

للحصون * وإن زَنَانَةَ هَؤُلَاءِ الْمُتَاصِلِينَ لَا ثِقَةَ فِيهِمْ لِلْمَدِينَةِ الْفَوْقَى وَلَا ٥٥ (١)
للحصون ، أَكْثَرُ مِنْ خِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ ، لَا يَعْدَمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ . فَأَنَا جَدِيرٌ
أَنْ أُشْرِكَ مَنْ ضَعُفَ مِنْ صِنَاهَا بِهَؤُلَاءِ الْأَقْوِيَاءِ الَّذِينَ أَدْرَكَتْهُمْ الْعَنَاءُ
وَيُمْسِكُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ إِنْزَالَ خَمْسَةِ فُرْسَانٍ وَسِتَّةٍ . ثُمَّ مِنْ قَعٍ بِمَا يَبْدُو بَقَى ؛
وَمَنْ لَمْ يُبْرَدْ ، لَمْ نَعْدَمْ مِنْهُ الْعَوَاضَ ! « فَعَلْتُ ذَلِكَ ، وَأُشْرَكَتْهُمْ . وَكَانَ فِي
هَذَا كَلَاهُ تَحْرِيكُ لِلشَّرِّ وَالْقَالِ :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَتَى فَأَكْثَرُ مَا يَجْنَى عَلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ^(١)
فَلَمَّا رَأَى كِبَارُ زَنَانَةِ ذَلِكَ ، قَلَقُوا ، وَسَاءَتْ ظُنُونُهُمْ ؛ فَكُنْتُ ،
مَتَى دَعَوْتُهُمْ إِلَى خِدْمَةٍ ، تَجِدُهُمْ عَنْهَا عَاجِزِينَ : مِنْ أُشْرِكَ وَمَنْ لَمْ يُشْرِكَ ؛
فَامْتَحَنْتُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ لِي : « إِنَّ كِبَارَهُمْ يَفْسُدُونَ صِفَارَهُمْ ! وَلَوْ أَنَّكَ
تُخْرِجُ غَوَاغِيَهُمْ ^(٢) مِنَ الْبَلَدَةِ ، لَصَلَحَ لَكَ سَائِرُهُمْ ! »

فَامْرَأْتُ بِإِخْرَاجِ ثَلَاثَةِ أَنْفُسٍ مِمَّنْ يَتَمُّ مِنْهُمْ . وَكَانَ الْأُمُورَ بِذَلِكَ كَلِيبٌ
الْخَصِيُّ ، صَاحِبُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَتَقْنَاهُ لَتَرِيتُنَا لَهُ . وَكَانَ فِي الْمَجْلِسِ
أَقْوَامٌ يَحْسُدُهُمْ وَيَتَمُّهُمْ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ يَنْقَلُوا طَرِيقَتَهُ السَّيِّئَةَ ؛ فَأَصَابَ الْفُرْصَةَ
لِلْخَرَابِ ، وَأَرْسَلَ مِنْ قِبَلِهِ إِلَى أُولَئِكَ الْمَخْرُجِينَ ، وَإِلَى مَنْ سِوَاهُمْ مِنْ بَنِي
عَمَّتِهِمْ ، يَقُولُ لَهُمْ : « إِنَّ الطَّلَبَ قَدْ وَقَعَ فِيكُمْ مِنْ مَجْلِسِ السُّلْطَانِ ؛ وَأُيِّرْتُ
بِإِخْرَاجِكُمْ . فَلَا تَوَهِّنُوا ، وَاجْتَهِدُوا فِي التَّعْطُّبِ عَلَيْهِ وَتَرْوِيعِهِ ! وَأَنَا مَعَكُمْ !
فَإِنَّهُ ، إِذَا رَأَى جَمَاعَتَكُمْ ، رَجَعَ إِلَى قَوْلِكُمْ ! » فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْأَمْرِ
بَسَاعَةٍ ، وَإِذَا بِجَمَاعَةِ الْجُنْدِ قَدْ أَقْبَلُوا إِلَى بَابِ الْمَدِينَةِ ، يَقُولُونَ : « إِنَّمَا أَنْ
يَبْرُدَ شَرُّكَتَنَا ، وَإِنَّمَا فَالْكَلُّ رَاحِلُونَ عَنْهُ ، مُنْتَقِلُونَ إِلَى غَيْرِهِ ! » وَأَنَّى

(١) ورد هذا البيت أعلاه . (٢) كذا في الأصل ، عوضاً عن « غوغائهم » .

الفاسقُ لبيبٌ وأصحابُه المَتَّفِقون معه ، يقيمُ حُجَّتَهُمْ ، ويُعضدُ قَوْلَهُمْ ، ويخوّفُ منهم . فَمَيَّزْتُ الأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذِهِ جَعَجَعَةٌ لَا يُرْجَعُ فِيهَا إِلَّا إِلَى رَأْيِي ؛ فَأَظْهَرْتُ الشَّدَّةَ ، وَقُلْتُ : « لَسْتُ بِرَاجِعٍ عَمَّا أَمَرْتُ ؛ فَتَكُونُ نَفُوسُ الَّذِينَ أَشْرَكْتُ مَعَهُمْ مُنْصَرِفَةً * إِلَى مِثْلِ نَفُوسِهِمْ ! فَمَنْ شَاءَ ، فَلْيُمِرَّ ، وَمَنْ شَاءَ ٥٥ (ب) فَلْيَتَّقِ ! » فَلَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ ، خَرَجَ الْكَلُّ .

وَمُؤَمِّلٌ ، فِي هَذَا كَأَنَّ ، عَلَى اتِّفَاقٍ مَعَ لَيْبٍ ، يَدْخُلُ فِي رَوْثِ الْجُنْدِ وَيَقُولُونَ لَهُمْ : « إِنَّ هَذَا مِنْ قَبْلِ غَيْرِنَا ؛ وَنَحْنُ أَبْرِيَاءُ ! » وَيُرَوِّحُهُمُ الشَّفَقَةُ مِنَ الأَمْرِ وَالطَّمَعِ عَلَى . وَصَحَّ ذَلِكَ عِنْدِي مَعَ طَائِفَةٍ مِنْ شِيُوخِ الْعَبِيدِ أَصْحَابِ مُؤَمِّلٍ ، وَعَلِمْتُ حَسَابَ زَنَاتِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَزُولُونَ بِالْكَلِّ ، وَأَنَّ ذَلِكَ تَرْهيبٌ ، وَأَنَّ الرِّجُوعَ عَمَّا أَمَرْتُ بِهِ يَضُرُّهُمْ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُخِلُّ بِالرَّأْيِ ١٠ وَيَكُونُ لَهُمُ الصُّوْلَةُ وَالْحَاقَّةُ فِي اللَّصِيَّةِ ، وَأَنَّ انْقِيَادَهُمْ لِلأَمْرِ وَاسْتِعْذَارَهُمْ بَعْدَهُ أَشْبَهُ ، وَلِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ أَعَزُّ وَأَبْهَى .

فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ آخِرٍ ، خَرَجْتُ بِنَفْسِي إِلَى عَرَضِهِمْ كَيْ لَا يُبَيِّنَ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ . فَأَمَرْتُ بِالْبَرِيحِ عَلَيْهِمْ وَإِحْضَارِ الزَّمَامِ ، لِنَعْلَمَ مَنْ صَحَّ مُضِيئُهُ وَقَعُودُهُ . ١٥ فَوَجَدْتُ الْكَلَّ مُجْتَمِعِينَ ، قَدْ انْصَرَفُوا مُتَقَطِّعِينَ لَيْلًا ، لَمْ يَنْبِ مِنْهُمْ أَحَدٌ فَوْقَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ أَمَرْتُ بِإِخْرَاجِهِمْ ، وَجَعَلُوا يَسْتَعِذِرُونَ وَيَتَنَصَّلُونَ . فَقُلْتُ : « اللَّهُ أَكْبَرُ ! هَذَا أَشْبَهُ وَالَّتِيقُ بِالْمَلِكَةِ ! » وَرَأَيْتُ مُؤَمِّلًا وَلَبِييًا وَغَيْرَهُمَا قَدْ عَزَّتْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُمْ مُؤَمِّلِينَ أَنَّ لَوْ كَانَتْ طَائِفَةٌ لَا تَرْفَعُ .

وَالْعَيْنُ تُبْصِرُ فِي عَيْنِي مُحَدِّثَهَا إِنَّ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوشة

- ولما قرأ أمرهم قراره ، جاء مؤملاً في إثر ذلك يقول : « إن هذا الانطباع منهم ليس لرغبة في البقاء معك ! غير أنهم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم ، ويتزودوا به ! فلا قائد تُنزل عليه غيرهم ، ولا رجال بقوا معك ؟ » وكانت إذ ذاك ناظرًا منه بعين الثقة ؟ فعمل قوله في نفسى ، وقلت : « لا يخلو هذا القول عن وجهين : إما قد اطلع على ذلك منهم ، فهي نصيحة ، أو لم يطلع ، فهو بغائلة لا يدعهم ، ويدخل هذا في رؤوسهم ، وتكون على في ذلك الخسارة . وإن احتجبت إلى العوض ، لم يكن لى على ما نُزلهُ ولا في بيت المال الكفاية لما نحن بسبيله * من النفقات على سائر الأمم ! » فلم ٥٦ (١)
- يأتى من هذه الكلمة نعاس . وأمرت بإخراج كل من في رأسه حاقة . فبلغ عدتهم نحو المائة فارس ؛ فخرجوا عن المدينة ، وتصفّت ، ولم يبق فيها إلا من ينطاع لكل أمر .
- وعمل في نفسى قتل لبيب وشيوخ العبيد ، وصحّ عندي منهم وفيهم أنهم عوّجوا زناة ؛ وكانوا أشدّ على من كل أحد . وجعل زناة يذكرون ذلك ، ويقولون وقت اعتذارهم : « لا ذنب لنا ! إنما نحن جُنْدٌ ، ولولا ثقائه وعبيده الذين حملونا على ذلك ، لم نجترم^(١) عليه ! » وجعلوهم في وقت قيامهم يمشون على الأسواق ، ويأمرّون الناس بالقيام ، ويقولون لهم : « لم ندفع نحن ، إلا وهو يريد إدخال النصارى ! » فلم يلتفت الناس إلى قولهم ، إذ لم يروا ذلك من ثقات الدولة وصنهاجة .

(١) أصل : « نجترموا » .

ولما أُخْرِجَ زَنَاتَةُ ، أَمَرْتُ بِعَدِّ ذَلِكَ بِأَخْرَاجِ اثْنَيْنِ مِنْ شُيُوخِ الْعَبِيدِ الَّذِينَ صَحَّ عِنْدِي إِشْعَالُهُمْ لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، وَتَقَفْتُ لَبِيئًا . فَوَاقَقَ إِخْرَاجُهُمْ وَمُؤَمِّلُ خَارِجِ الْمَدِينَةِ ؛ فَلَحَقُوا بِهِ ، وَقَالُوا لَهُ : « قَدْ أَخْرَجْنَا ! وَغَدَا بِكَ هَكَذَا ! فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ ! » فَخَرَجَ مَعَهُمْ مِنْ قَوْرِهِ ذَلِكَ ، قَاصِدًا إِلَى لَوْشَةٍ ، مَعَ مَنْ اتَّفَقَ مَعَهُ مِثْلُ ابْنِ الْبَرَاءِ الْكَاتِبِ وَغَيْرِهِ .

وَكَانَتْ هَذِهِ تَقَفَّةٌ قَدِيمَةٌ بَيْنَهُمْ مَعَ بَنِي مَالِكٍ عُثَالٍ لَوْشَةٍ ، أَنَّهُ ، مَتَى دَهَمَهُمْ أَمْرٌ ، لَجَؤُوا إِلَيْهَا . فَهَضَمُوا مِنْ قَوْرِهِمْ ذَلِكَ قَاصِدِينَ إِلَى لَوْشَةٍ ، وَلَحَقُوا بِهَا لَيْلًا . وَدَخَلَ لِلْمَدِينَةِ ، وَلَمْ يَمْنَعْهُ أَحَدٌ لِمَكَاتِهِ مِنَّا ؛ وَحَسِبَ الْقَائِدُ وَمَنْ فِيهَا أَنَّهُ رَسُولٌ . فَصَارَ فِي قَصَبَتِهَا ، وَجَعَ الْجُنْدِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَصَرَخَ فِيهِمْ بِالْبُكَاءِ ، وَافْتَعَلَ الْكَذِبَ ، وَقَالَ لَهُمْ : « لَمْ أَخْرُجْ مِنْ غِرْنَاظَةٍ إِلَّا كَمَا تَرَوْنَ : « بَطَوَيْ عَلَى عُنُقِي » ! وَتَرَكْتُ فِيهَا النَّصَارَى قَدْ اسْتَحْوَذُوا عَلَيْهَا ؛ وَكُشِفَ عَنِّي ! فَاتَّبَعُوا مَعِيَ وَتَوَجَّهْتُ إِلَى كُلِّ سُلْطَانٍ : فَمَنْ أَجَابَنِي ، اعْتَصَدْنَا بِهِ ! » وَخَاطَبَ بِذَلِكَ حُصُونَ الْغَرْبِ ، بِأَمْرِهِمْ

بِالْخِلَافِ ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى زَنَاتَةَ الْمُخْرَجِينَ ، لِيَكُونُوا مَعَهُ مُضَيِّقِينَ عَلَى * غِرْنَاظَةٍ . ٥٦ (ب)

١٥ وَإِنْ أَهْلَ الْجِيَهَةِ مَعَ أَهْلِ الْحُصُونِ ، لَمَّا سَمِعُوا ذَلِكَ ، دَبَّرُوا رَأْيَهُمْ .

وَأَرْسَلَ كُلُّ حِصْنٍ مِنْ كِبَارِهِمْ إِلَى الْحَضْرَةِ مَنْ يَطَّلِعُ صُورَةَ الْأَمْرِ ؛ فَإِنْ وَجَدَ خِلَافَ قَوْلِهِ ، لَمْ يُخْرِبُوا وَجُوهَهُمْ مَعًا ؛ وَإِنْ أَلْفَوْهُ سَحَقًا ، نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ . فَاتَّوْنَى أَفْوَاجًا مُعَزِّينَ وَمُهَيِّئِينَ عَلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّصَارَى ، وَمُسْتَنْفِعِينَ جَلِيَّةَ الْحَالِ . فَأَخْبَرْتُهُمْ بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ ، وَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا

٢٠ مِمَّا ذَكَرَ مُؤَمِّلٌ . فَطَابَتْ أَنْفُسُهُمْ ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ مُخَالَفٌ مُنَاقِقٌ . فَبَادَرَ الْكُلُّ إِلَى مُنَازَلَتِهِ ، وَسَأَلُونِي عَشَكَرَ الْحَضْرَةِ .

وَكُنْتُ ، لما صَحَّ شَاقُّهُمْ بِلَوْشَةٍ ، قد أَبْلَيْتُ لَهُمْ عُذْرًا ، وَأَرْسَلْتُ
إِلَيْهِمْ كُتُبًا وَرُسُلًا تَأْمِنُهُمْ بِمَا خَافُوا ، وَتُحَذِّرُهُمْ قَبِيحِ الْعَاقِبَةِ فِي إِشَارِ
الْفِتْنَةِ ، وَأَنِّي مُطْلَقٌ إِلَيْهِمْ أَهَالِيهِمْ ، وَبِحُرُوجُونَ عَنِ الْحَصُونِ حَيْثُ شَاؤُوا
بِأَمَانٍ وَوَثَاقٍ ؛ وَهُمْ فِي هَذَا كُلِّهِ ، لَا يَزِيدُونَ إِلَّا طُغْيَانًا وَتَهْدِيدًا ، بِإِزْنِ
عَلَى الشَّرِّ ، طَالِبِينَ لِلثَّارِ بِلا ثَارٍ . فَلَمَّا يَشْتَبُهُ مِنْهُمْ ، مَعَ اتِّفَاقِ الْحَصُونِ
عَلَيْهِمْ ، أَرْسَلْتُ بِالْعَسْكَرِ ، وَقَوَّدْتُ عَلَيْهِمْ يُوسُفَ بْنَ حَجَّاجٍ ، سَنَدُكُرُ
وَجَّةَ مُصَاهَرَتِهِ لَنَا بَعْدَ هَذَا ؛ فَهَضَّ ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا سَاعَةً وَصُولِهِ ، وَجَزَعَ
مَنْ مَعَهُ فِي الْقَصْبَةِ ، وَخَلَّتْ عَلَيْهِمْ ؛ وَدَخَلَهَا الْعَسْكَرُ ، وَأَسْرَ فِيهَا هُوَ
وَكُلُّ مَنْ مَعَهُ . وَأَتَانَا مِنْ ذَلِكَ فَتْحٌ عَظِيمٌ .

١٠ وَأَمَرْنَا بِتَقَاتِهَا وَسَوْقَانِ الْأَمْرِ ، وَتَقَاتِهَا مُسْتَفْتِينَ فِي أَمْرِهِمْ ؛
فَأَفْتَتِ الشُّنَّةُ أَنْ قَتَلَهُمْ غَيْرَ جَائِزٍ إِذْ كَانَ نَفَارُهُمْ جَزَعًا ، عَلَى أَنَّهُمْ
كَانَتْ لَهُمْ سَعَةٌ فِي الْأَرْضِ غَيْرَ لَوْشَةٍ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ؛
وآخَرُونَ يَقُولُونَ بِقَتْلِهِمْ . فَأَثَرَتِ الْأَلَيْقُ وَالْأَبْعَدُ مِنَ الْآثَامِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ
لَا يَفُوتُ ؛ وَمِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ النَّائِي وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْقُدْرَةِ . فَأَوْجَبَتِ
١٥ السِّيَاسَةُ تَقْيِيفَهُمْ وَالشَّدَّةَ عَلَيْهِمْ ، لِئَلَّا تَكُونَ طَرَفَةٌ لَعِيرِهِمْ ؛ وَهُوَ بَابٌ فَتَحَهُ
عَلَى الدَّوْلَةِ مِنْ أَضَرِّ الْأَشْيَاءِ ؛ فَلَا غَفْلَةَ لِمَلِكٍ يَقْظَانَ فِيهِ .

وَخَاطَبُوا ، مُدَّةَ كَوْنِهِمْ بِلَوْشَةٍ ، كُلَّ رَئِيسٍ بِالْأَنْدُلُسِ ، حَتَّى صَاحِبِ
مَالَقَةِ . فَلَمْ يَجِبْهُمْ * أَحَدٌ . فَلَمَّا يَبْسُ مَوْثَلٌ مِنْهُمْ ، أَرْسَلَ إِلَى أَمِيرِ ٥٧ (١)
الْمُسْلِمِينَ ، بِزَوْرٍ عِنْدَهُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، وَبِكَذِبٍ ، وَيَقُولُ لَهُ : « لَمْ تُؤْتِ
٢٠ إِلَّا مِنْ إِنْكَارِي أَمَرَ النَّصَارَى ، وَالْقِيَامِ بِدَعْوَتِكَ » حُجَّةً لَا تَقُومُ عَلَى
سَاقٍ . وَكَانَ الْعَسْكَرُ إِلَيْهَا مُقْبِلًا مَعَ نُعْمَانٍ ؛ فَانصَرَفَ لَمَّا عَلِمَ بِأَخْذِهَا .

٦٤ - وَصَفَ الثَّائِرُ نَعْمَانَ وَسِيرَتَهُ ضِدَّ عَبْدِ اللَّهِ

وكان نَعْمَانُ المذكورُ ممن فَعَلْنَا معه جِيلاً ، وَأَحْسَنَّا إِلَيْهِ حُرْمَةَ الْقَرَابَةِ والاقْطَاعِ إلَيْنَا مِنَ الرُّبَاطِينِ ؛ وَزَالَ عَنَّا بَعْدَ إِعْمَالِهِ الدَّوَاحِلَ عَلَيْنَا فِي حَصُونِنَا الْغُرَبِيَّةِ ، وَعَقَّدَهُ مَعَ أَهْلِهَا أَنْ يَصِيرُوا فِي طَاعَةِ الرُّبَاطِينِ مَتَى دُعُوا . وَكَانَ لَهُ بِتِلْكَ الْجَهَةِ إِتْزَالٌ ؛ فَتَمَكَّنَ مِنَ الْقُرْبِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ ، وَخَرَجَ عَنَّا بِسَرَّاحٍ ادَّعَى مِنْ أَجْلِهِ أَنَّ لَهُ بِالْعِدْوَةِ مِيرَاثًا وَمَالًا يُرِيدُ اقْتِضَاءَهُ ؛ فَأَجَبْنَا لَهُ النُّهوضَ ؛ وَإِذَا بِهِ يَسْتَعِي عَلَيْنَا . وَقَالَ لِلْأَمِيرِ : « نُفَيْتُ مِنْ الْبَلَدِ مِنْ أَجْلِ نَصِيحَتِي لَكَ وَتَحَبُّبِي فِي دَوْلَتِكَ ! » أَمْرٌ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ حَرْفٌ ، حَتَّى إِنَّ أَطْلُوقِي ، إِنْ تَكَلَّمْتُ ، لَسَعَتْ عَلَى ، لِلْقَدَرِ الَّذِي شَاءَهُ اللَّهُ ، عَسَى لِعَاقِبَةٍ عَمُودَةٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . ١٠

فَعَمِلْتُ هَذِهِ الْمَعَانِي كُلَّهَا فِي نَفْسِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، مَعَ مَا صُوِّرَتْ عَنْدهُ بِكَثْرَةِ الْأَمْوَالِ الْمَكْذُوبِ عَلَيْهَا وَالْمُنْتَفَقَةِ فِي طَاعَتِهِ وَالْجِهَادِ مَعَهُ لَوْ يَقَيَّتِ الْحَالُ .

٦٥ - مَسْأَلَةُ زَوَاجِ الْأَمِيرَتَيْنِ أُخْتَيْ عَبْدِ اللَّهِ

وَإِنَّا فِي تِلْكَ الْفِتْرَةِ ، رَأَيْنَا مِنَ الصَّلَاحِ النَّظَرَ لِمَنْ مَعَنَا مِنَ النِّبَاتِ وَتَزْوِيجَهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَ أَمْرٌ ، فَيَكُنَّ عَلَى غَيْرِ عِصْمَةٍ وَلَا كَفِيلٍ . فَتَخَيَّرْنَا لَهُمَا مِنْ بَنِي عَمَّتِهِمَا شَاكِلَةَ ، مِنْهُمْ مَعْدُ بْنُ يَعْلَى ، لِلَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مِنَ النِّجَابَةِ وَالْعَقْلِ وَالْحَبَّةِ ؛ فَصَدَدْنَا عَنْ ذَلِكَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، وَقَالُوا نَصِيحَةٌ وَحَسَنًا : « إِنْ أَنْتِ تَصَاهَرْتَ إِلَى بَنِي عَمِّكَ ، حَمَلَتْهُمْ دَالَّةُ الْقَرَابَةِ مَعَ الْمُصَاهَرَةِ عَلَى الظُّهُورِ عَلَيْكَ وَفَسَادِ حَالِكَ بِصَلَاحِهِمْ . فَإِيَّاكَ ! وَعَلَيْكَ بِمَنْ ١٥

هو دون قِيَمَتِكَ ؛ فِيرَاعِي إِحْسَانَكَ ، وَيَرَى هَذَا مِنْكَ كَثِيرًا ، وَيَرَى عِيَالَهُ بَيْنَ مَوَلَاةٍ ؛ وَإِنْ هُوَ تَحَرَّكَ إِلَى شَيْءٍ ، قَعَدَتْ بِهِ دَقَّةُ شَأْنِهِ ؛ فَلَا أَتْبَاعُ يَهْأُوذُونَهُ . « قَبْلُنَا ذَلِكَ حَذَرًا* عَلَى الدَّوْلَةِ ، وَقُلْنَا : « مِنْ صَلَاحٍ مِنْ قَرَابَتِنَا ، نُذَرِكَ فَعَلَ الْخَيْرِ فِيهِ دُونَ مُصَاهَرَةٍ تُطْفِئُهَا »

وكان من بعض خَدَمَتِنَا مَنْ حَضَّنَا عَلَى يَوْسُفَ بْنِ حَجَّاجٍ ، لِعِلْمِهِ بِأَخْلَاقِهِ مَدَّةَ صَحْبَتِهِ لَهُ ؛ وَوَصَفَهُ بِصِفَاتٍ ظَاهِرُهَا يَشْبَهُ الْمَشَاكِلَةَ . وَذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : « فِي الرَّجُلِ انْقِيَاضٌ وَاسْتِيحَاشٌ مِنَ النَّاسِ ؛ وَبِذَلِكَ تَأْمَنُ مِنْ إِجْمَاعِهِ عَلَيْكَ ؛ وَفِيهِ شُحٌّ كَثِيرٌ ، لَا يُخْرِجُ خَيْرَهُ مِنْ مَنْزِلِهِ ؛ وَفِيهِ غِيْرَةٌ شَدِيدَةٌ تُوَافِقُ مُعَاشَرَةَ الْعِيَالِ ؛ وَبِهِ حَرَجٌ وَتَزَقُّ ، لَا تَصِحُّ بِهِ وَلَايَةٌ ؛ وَهُوَ مِنْ نَقِصَانِ الْبَيَانِ وَعِيٍّ الْلسَانِ مَا لَا يَطْبِي بِذَلِكَ النَّاسَ لَتَأْلُبُ ، إِنْ شَاءَ عَلَيْكَ ، وَلَا نَقُضَ لِفَعَالِكَ أَوْ مَقَالِكَ وَالرَّجُلُ مِنْ أَوْسَاطِ النَّاسِ وَمِمَّنْ لَا يَنْتَمِي إِلَى مَلِكٍ ، وَلَا يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ بِمَا لَا أَصْلَ لَهُ فِيهِ . فَهُوَ بَيْنَ يَدَيْكَ كَالْكَهْمَاءِ الَّتِي إِنْ شِئْتَ قَلَعْتَهَا ، لَمْ تَتَعَذَّرْ عَلَيْكَ مِنْ أَصْلِهَا ، أَوْ كَالصَّمْغَةِ ، إِنْ شِئْتَ فَرَّقْتَهَا ، ظَهَرَتْ ؛ وَكَانَتْ لَكَ الْمُنَّةُ وَالْخِيَارُ ! وَالْآخَرُ هُوَ تَرَبُّبُكَ وَنَشَأَتُكَ ، وَابْنُ وَزِيرٍ جَدُّكَ ، وَلَهُ مِنْ بُعْدِ الْهِمَّةِ وَكَرَمِ النَّفْسِ وَحُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَقَارِ عَلَى حَالِ الْحِدَاثَةِ مَا تُرْجَى بَرَكَتُهُ ؛ وَلَيْسَ بِمُنْقَدِرٍ قَدْرُهُ . وَإِنْ أَنْهَضْتَهُ إِلَى أَمْرٍ ، جَدَّ فِيهِ ، وَأَنْتَ آمِنٌ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ بِمَنْزِلَةٍ مِنْ أَنْهَضَ ابْنَهُ إِلَى دَرَجَةِ نُقُرٍ عَيْنِهِ . وَالْأَوَّلَى أَنْ يَدْعُوكَ صِهْرُكَ « مَوْلَايَ » ، مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلًا ؛ فَتَشْقَى أَنْتَ وَتَحْنُ ، إِذَا الْغَمْدُ لَا يَحْتَمِلُ سَتَقَيْنَ ، وَلَا نُدْرِي مَنْ السُّلْطَانُ فِيكُمْ ، إِلَّا مَنْ ارْتَضَيْتَهُ وَقَدَّمْتَهُ . »

فَقَدْتُ لَهَا النِّكَاحَ عَلَى أَتَمِّ مَا يُمْكِنُ ، وَاسْتَعَدَدْتُ فِي سَائِرِ أَمْرِي

بِالْأَحْزَمِ ، وَوَكَلْتُ ذَلِكَ إِلَى الْأَقْدَارِ ، وَقُلْتُ : « هَذَا جُهْدُ الْإِسْطَاعَةِ ؛
 وَدُونَ جُهْدِكَ لَا تُتْلَامُ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ بِمَا شَاءَ ! »
 وَلَمَّا صَارَ وَلَدُ حَبَّاجٍ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ ، شَرِيهَتْ نَفْسُهُ إِلَى وَزَارَةِ الدَّوْلَةِ ،
 مَقْطَعٌ مِنْ لَمْ يُمَيِّزُ الْمَذْهَبَ . وَلَمْ نَكُنْ بَعْدَ وَزَارَةِ سِمَاجَةَ نَسْتَعْمَلُ لَذَلِكَ أَحَدًا .
 ٥ فَكَأَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ التَّقْصِيرُ بِهِ ، جِهَالَةً مِنَ الْإِنْسَانِ * بِقَدْرِهِ لَهُ مُهْلِكَةٌ ، (١) ٥٨
 وَتَرْكُ صِيَانَةِ قَدْرِهِ لَهُ قَاضِحَةٌ .

٦٦ — حَدِيثٌ مُعْتَرِضٌ عَنْ نَصِيحَاءِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ

وَكَانَ أَهْلُ دَوْلَتِنَا عَلَى مَذْهَبِ جِهَالَةٍ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ : إِنْ كُلُّ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ بِرَأْيِهِ ، وَأَنْ تَجْرِيَ الْأُمُورُ عَلَى هَوَاهُ ؛ فَإِنْ لَمْ يَتَّفَقْ
 ١٠ ذَلِكَ لَهُ ، صَارَ فِي حَيْزِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَلَوْ كَانَ عَلَى مَرْغُوبِهِمْ ، مَا تَّفَقَّ لِرَأْسِ
 عَمَلٍ ، وَلَا تَمَّ لَهُ شَيْءٌ . وَكَانُوا قَبْلَ أَيَّامِنَا قَدْ شَغَلَهُمُ الْخَوْفُ مِنْ صَوْلَةِ
 رُؤَسَائِهِمْ : مَا كَانُوا يَرَوْنَ السَّلَامَةَ غَنِيمَةً . وَإِنَّمَا تَمَّ لَهُمْ فِي أَيَّامِنَا الْأَمْنُ ،
 وَأُنْسِيَهُمْ مَا مَضَى ، أَدْرَكَهُمُ الْأَشْرُ وَالْبَطَرُ ، إِلَى أَنْ تَطْمَحَ أَنْفُسُهُمْ لغيرِ
 ذَلِكَ . وَكُنَّا نَحْنُ نَنْظُرُ أَنْ بِالْأَمْنِ نَسْلَمَ مِنَ اللَّائِمَةِ وَالْعِدَاوَةِ . وَخَانَنَا
 ١٥ الْقِيَاسُ ؛ وَكَذَلِكَ الْعَاقِلُ الْمُتَمَرِّنُ لَا يَجِبُ لَهُ أَنْ يَنْظُرَ بِالنَّاسِ ظَنَّهُ بِنَفْسِهِ ،
 وَلَا يَعْمَلَ حَسَابَهُ وَحْدَهُ . فَلَيْسَ كُلُّ النَّاسِ عَلَى مَذْهَبِكَ ، وَلَا هَوَاهُ مُطَابِقٌ
 لَهُوَكَ ! وَلَا مَحَالَةٌ أَنْ بِاخْتِلَافِ الْأَهْوَاءِ تَقَعَ الْعِدَاوَاتُ ، وَبِاتِّفَاقِنَا تَكُونَ
 الْمُصَاحَبَةُ وَحُسْنُ الْمَعَاشَرَةِ . وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَكَ مَنْ يَكَابِدُ مَعَكَ ، وَدِهَاهُ
 مِثْلُ الَّذِي دِهَاكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْأَبَاعِدِ ؛ فَلَا تَسْتَرِيحُ إِلَّا إِلَيْهِ ؛ وَلَا تَشْكُ
 ٢٠ هَمَّكَ مَعَ مَنْ لَمْ يَفْنِهِ مَا عَنَّاكَ : فَإِنَّمَا سَأَلَ عَنْ حَدِيثِكَ ، وَقَدْ أَكْثَرَتْ

عليه ، وإِنَّمَا مُخَالَفٌ لِمَذْهَبِكَ ، قد استهدفتُ إلى عَدَوَاتِهِ ، وأُحَدِّثُ في نفسه ما كنتُ غنياً عنه .

- هذا طبع البَشَرِيَّةِ : فلا تسمع مَن يُرِيكَ التحقيق بكلامه ؛ فَإِنَّ الحقَّ قِيلٌ على النفوس ، والباطلُ إليها أسرع ، وعليها أخَفٌ . وَلَمَّا علم الشيطانُ حِيلَ الإنسان ، لَمَجْرَاهُ منه بمنزلة النِّمِّ ، أتاه من قِبَلِ هَوَاهُ .
- ولا سبيلَ أن تُلْقَى أحداً عَدِيمَ العقلِ : كلُّ قَدْ أَخَذَ من التجربة حِصَّتَهُ ، وحاز اختياره ؛ وعَرَضُكَ عليه ما يَبْدُو إِلَيْكَ عَجْزٌ وكُفَّةٌ : فَإِنْ كَانَ رَيْضاً ، فهو بِشَأْنِهِ أَبْصَرٌ ؛ وَلَعَلَّ لَهُ عَذْرًا ، وَأَنْتَ تَلُومُ ؛ فَتُولَدُ عليه انقباضاً منك وَتَحْفَظُ لَثَلًا يُرِيكَ الخِلَافَ حَتَّى يَأْتِيَ بِمَا اعْتَزَمَ عليه . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ جَاهِلًا ، فمن العناء رياضةُ الهَرَمِ ، لم تَزِدْهُ أَكْثَرَ من نَقْلِهِ* عن ٥٨ (ب) وَدَّهْ ، ولا يَنْتَقِلُ عن طَبْعِهِ .

- كَيْفَ مَا رَوَيْتُ فِي الْأَمْرِ ، أَجِدُهُ جَهْلًا من فاعِلِهِ وكُفَّةً ، إِذْ لَا تَأْدِيبَ يَجْمَلُ بِالْمُعَلِّمِ وَلَا الْمُتَعَلِّمِ . اللَّهُمَّ إِلَّا مِنْ شُورٍ فِي أَمْرٍ ، فعليه أَنْ يَعْطَى مَا عِنْدَهُ مِنْ غَيْرِ الْحَاجِ ، ولا يَتَمَرَّنَ فِي انتظار طاعةٍ ؛ فيكون الناصح ، إِنْ سُمِّحَ مِنْهُ ، تَمَادَى على صداقته وخُولِفَ فِي غِيْشٍ . فَمَا قَامَ خَيْرُكَ ، يَا زَمَانَ ، بِشَرِّكَ !

- لو أُنِيَ أَعْلَمُ أَنَّ بِخِلَافٍ بِسِيرٍ على القاتلِ يُنْتَقَلُ إلى حِيْزِ العداوة ، لم أَشَاوِرْهُ فِي أَمْرٍ أَبَدًا : وَأَكُونُ قَبْلَ مُشَاوَرَتِهِ مَخَاطِرًا حَذِرًا الَّذِي تَخْشَى مِنْهُ ، أَتَدَّ عَلَى مَنْ عَاقِبَةُ الْأَمْرِ المَعْرُوضِ عَلَيْهِ . فَاَلْعَاقِلُ يَقِيسُ على هذه المَعَانِي وَيَحْزِزُ بِهَا صَدِيقَهُ . فَرُبَّ عداوةٍ تَتَوَلَّدُ بِأَرْقٍ سَبَبٍ ، أو عداوةٍ تَعُودُ إِلَى مُوَدَّةٍ ، عند الحاجة إلى التعاونِ أو الانخراطِ في سَلَكٍ واحدٍ

من عارضٍ يعمُّ أو مرغوبٍ يُرامُ ؟ تكون الحاجة فيه سواء .
ولا خَيْرَ في عَقْلٍ لا يتصرف تارات ؛ وللذهب السرمدي رَكِبُ
طريقة الجَهْل ، واقعٌ في الورطات . ومن الحق ما يسمج ، فلا تقوم
حلاوته وفرضه بما يعقب من المشقة ؛ والعاقِلُ يتخير الأمور ؛ فيتجنب معسورها ،
ويتوخى ميسورها . ٥

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف

وللقائل ، إن محتج على هذا النكاح : ما الذي أريد به ؟ إن كنا
غالبين ، فقد استغنينا عنه ؛ وإن كنا مغلوبين ، لم يفد ذلك ! يعترض
هذا بعد تبیان ما وقع !

١٠ وإنما أردنا اكتساب الحسنة مع السر ؛ وإنه ، متى عرض عارض ،
كان البعل مكتفياً بامرأته ، يُقلعها إذا أخوج ما تكون فيه عند ذلك ،
وتكون لنا منهم عُدَّة ، ويُقل طمع كل من يشره إلى خطبتهما . فقد
كان كثير من سلاطين الأندلس رام ذلك ؛ وتوقعنا العاقبة إن فعلنا :
تنشبتنا فيما لا مرد فيه ، ولا يُنفك عنه إلا بالأموال الجسيمة التي هي
١٥ أولى بالبذل في إقامة أود الملكة وما كنا بسيله من الجهاد ؛ وإن أبينا ،
وقع الخلاف والحقد من الطالب ، بحيث لا يوافق ؛ على أنه لم نحسب

حساب ما جرى * . ولو كنت أعلم الغيب ، لاستكثرت من الخير . وكان ٥٩ (١)
زمانا لم نحسب فيه حساب خَيْرٍ خرج منه مثقال ذرة ، ولا قسنا على
شيء من الشر إلا ولم نبلغ معشاك ما يكون منه ، بل يدهى منه أمره وأفظمه .
٢٠ ولقد قال المطالبون إن أمير السدين كان أحق بها ، وإنما فعلنا

ذلك فراراً منه . وهذا من المُحَال أن يكون أحدٌ يتبعُ الشَّرَفَ ، ويُدعى إلى ما فيه حَيَاتُهُ ، فَيُأْبَاهُ ! ولو أُنْثِيَ أشعر بشيء من ذلك ، ونَرَى أن المَذْهَبَ في هذا ، لَكُنْتُ أَشَدَّ النَّاسِ اغْتِبَاطًا بِالْأَمْرِ ، وإليه مُسَارَعَةً ، وعليه حرصاً .

٥ ولم يكن مَنْ أُلْحَ في ذلك أَكْثَرَ مِنَ الْمُعْتَصِمِ — رحمه الله — ؛ فَبَادَرْتُ إِلَى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، خَوْفًا مِنْ كُلِّ ما ذَكَرْنَاهُ . وإِنَّهُ ، لَمَّا تَوَاتَرَتْ عَلَى أمير المسلمين هذه الأنباء ، وَصُورَتْ عِنْدَهُ عَلَى غير ما هِيَ ، عَمِلْتُ فِي نَفْسِهِ .

١٠ وانقطع رَجَاءُ مَوْمِلٍ بِلَوْشَةٍ مِنْ أَنْ يُجِيبَهُ سُلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ ، خَاطَبَ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَلَمْ يَصِلِ الْخُطَابُ ، وَهَيَأَ الْعَسْكَرَ إِلَيْهَا مَعَ نَعْمَانٍ ، حَتَّى انْقَضَى خَبَرُهَا ، عَلَى ما وَصَفْنَاهُ .

٦٨ — تدخل عبد الله في مسألة مُرْسِيَّةٍ وَغَضِبَ الْمُعْتَمِدُ

وَاعْتَقَدَ الْمُعْتَمِدُ دُخُولَ النَّصَارَى بِلَدِهِ وَمُحَاشَاتِهِمْ لِلْجَهَانِي ، مَعَ ما كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ أَمْرِ مُرْسِيَّةٍ . فَإِنَّ ابْنَ رَشِيقٍ قَالَ لِي مَشَافَهَةً ، وَنَحْنُ عَلَى لَيْيَظٍ : « أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ صَدِيقَكَ وَأَدْخُلَ فِي مُجَلَّتِكَ . » وَقَالَ لِي رَسُولُهُ بَعْدَ ثَقَافِهِ : « لَوْ أَنَّكَ تَقْبَلُ مَنْ تَخَلَّفَ فِيهَا ، لَأَقَامَ الْخُطْبَةَ بِاسْمِكَ ، وَكَانَتْ فِي طَاعَتِكَ أَتَجِدُهُ وَيَجِدُكَ ! فَأَيُّتُ هَذَا الْقَوْلَ جُمْلَةً ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَذِهِ نَصَبَةٌ لَمْ يَكَدْ أَحْبَابُنَا يَتَخَلَّصُونَ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَرَامِ الشَّدِيدِ وَالْكَدِّ الْعَظِيمِ ! رُدَّ مِنْهُمْ هَذِهِ اللَّشَقَاتُ ! فَلَا يَنْقَرِضُ هَذَا الْوَقْتُ إِلَّا جَاهِلٌ بِالزَّمَانِ ! وَلَيْتَ لَوْ سَلَّمْنَا مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَإِنَّ مَنْ أَمَلَ

٢٠

أَنْ يُبْقَى بِلَدِهِ يَدُهُ ، فَقَدْ شَرِهَ إِلَى كَثِيرٍ ، فَكَيْفَ لِقُضُولِ الْعَمَلِ الَّذِي كُنْتُ أَرَى وَأُمَيِّزُ ؟

وَلَمَّا طَامَت عَلَيْنَا الْيُسَانَةُ ، عَلَى مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، كَانَ ابْنُ الْأَحْمَرِ يُدَاخِلُهَا ، وَيَعِدُّهُمْ وَيَأْمُرُهُم بِالتَّثَبُّتِ ، حَتَّى تَبْدُو إِلَيْهِمُ الْأَحْوَالُ ؛ وَيَبْلُغُنِي * ٥٩ (ب) مِنْ ذَلِكَ مَا يُقْلِقُ . فَأَرَدْتُ بَعْضَ الْمَكَافَأَةِ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْ نُوجِّهَ إِلَى مُرْسِيَةِ مَنْ يَعْقِدُ مَا ابْتَدَأَنِي بِهِ رَسُولُهُمْ ابْنُ يَكُونُ ، الْمُتَصَرِّفُ فِي خِدْمَتِهِمْ ، وَيَقُولُ لَهُمْ أَنْ يُبَيِّنُوا كَيْفَ يَرِيدُونَ مُحَاوَلَةَ هَذَا الْأَمْرِ : إِنْ أَرَادُوا الْقِيَامَ بِدَعْوَتِنَا لِمِلَّةٍ مَتَى كَانَتْ ، نَغِيثُهُمْ فِيهَا بِأَمْوَالِنَا وَرِجَالِنَا ؛ وَمَا فَائِدَةُ ذَلِكَ وَغَمْرَتُهُ فِيمَا نَشْتَرِطُ نَحْنُ بِهِ ؟

١٠ وَلَمَّا تَوَجَّهَ مِنْ ثِقَاتِنَا لِذَلِكَ مَنْ أَنْفَذْنَاهُ ، اعْتَقَدَهَا الْمُعْتَمِدُ فِي نَفْسِهِ ؛ عَلَى أَنَّهَا لَمْ نَكُنْ نَعْرَمُ عَلَى ذَلِكَ أَبَدًا أَكْثَرَ مِنْ طَلَبِ التَّعَلَّاتِ عَلَيْهِ آخَرَ ذَلِكَ بَأَنْ نَسْمَعَ مِنْهُ مَا لَا يُوَافِقُ ؛ فَيَنْقُضُ الْعَمَلَ بِسَبَبِهِ ، أَوْ تُوقَفَ الْحَالُ إِلَى أَمَدٍ مَا ؛ كَالَّذِي يَقَعُ بَيْنَ الْمُلُوكِ مِنَ الْمُدَاخَلَاتِ وَالْأَعْمَالِ : فَهِيَ مَا لَا يَتِمُّ ، أَوْ يَتِمَّ إِلَى حِينٍ .

٦٩ — إِرْسَالُ سَفَارَةٍ إِلَى يُوسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ

١٥

بِسَبَبَةِ مَنْ قَبَلَ عَبْدَ اللَّهِ وَلِإِقْيَاعِ الْخُوفِ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ رَجُوعِهَا

وإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا أَتَى سَبَبَةَ ، وَهُوَ قَدْ أَحْشَدَ وَأَعَدَّ ، قَاصِدًا إِلَى جِهَتِنَا ، لَا يَرِيدُ غَيْرَهَا ، أَرْسَلْنَا إِلَيْهِ رُسُلًا مُقَدِّمَةً ، بَعْدَ عِتَابِ (١٠)

كبير جرى بيننا وبين المعتد على خبر مرسية ، لم يرد به مفسدة أكثر مما وصفناه .

وحان وصول أمير المسلمين إلى سبتة ، وقدم رسلنا عليه ، وهم : ابن سهل القاضي المتقدم ذكره ، المستعمل للعملة الموصوفة ، وباديس بن واروي من تلكاتة ، يهتونه على سلامته ويتلقون بالرحب قدومه ومُسارعتنا إلى ما يذهب إليه في جهاده ، وما أشبه ذلك .

فانصرف الرسولان المذكوران ، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكل ما ذكرناه ؛ قد أعرض عليهما من الجليل ولطيف القول ما لا شك في محبته . فسرنا ذلك . وكان فيما قال لهم : « يصنع ما شاء ! لست ممن يكلف أحدا إلا طاقته ! » فكان ذلك منه دهاء وحذقا ، مع ما نبه عليه قبل ، من قبل ابن سهل بالمخاطبة وغيره ، أن نفارنا عنه إنما كان من خشونة الكتابة الواردة من عنده ، وأن الداراة بالقول أولى ، حتى يظهر ما شاء ويمهد لعمله بذلك .

وإن ابن سهل* . لما رأى من خلاف الجند ، وأطلع عليه من أنفس (١) ٦٠
 ١٥ أهل البلد ما اطلع ، قدم لنفسه ، ورأى ألا يخلّي من عمل يقربه فيمن تقرب . وأعلمه أن البلدة ليس عليه فيها مختلّف ، ونفث بذلك باديس المذكور . وصحّ عندي وقت انصرافهما أن ابن واروي قال : « أرسلنا للخدمة له في زعمه ، ولم نصنع غير أني كتفّفه ، والقاضي ضرب عنقه ! » إلى أن وصل أمير المسلمين قرطبة .

الفصل العاشر

إمارة عبد الله بن مُبَلِّق بن باديس ، مؤلف هذا الكتاب

(٦) استسلامه للسلطان المرابطي . مسجنه .

إخراجه من الأندلس ونفيه

٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس

وبدء مقاتلته إياه

[وعند وصوله قُرْطُبَة ، [أميرُ المسلمين] بالمُعْتَمِد ، وسأله عما لِهَجَّ الناسُ به من مُدَاخَلَة الرومي ؛ فشهد بذلك ، للذي كان في نفسه من كلِّ ما وصفناه . وأرسل أميرُ المسلمين إلينا كتاباً يقول فيه : « اقبلْ إلينا ، ولا تتأخَّر ساعةً واحدةً ! »

فرابنى ذلك ، وهو موضعُ الانقباض ، لِمَا تقدَّم من الطلب ، وأنَّ بمَحْضَرِهِ جميعُ أعدائنا ، وإلحاحُهُ علينا في الوصول . واعتذرتُ إليه بتَوَجُّيهِ رُسُلٍ : أحدهما وَلَدُ حَجَّاج ، والآخر ابنُ ما شاء الله . فساعةً وصولهما ، قرَّعَهما بكلِّ ما نُقِلَ إليه ، وأمر بتَقاضيهما في الحديد على المقام ؛ وقال لهما : « بالله ! إِنِّي غَزَوْتُهُ كَمَا نَفَزُوا الْفُونَشَ ! والذي يقدر عليه ، فَلْيَصْنَعْ ! » وأتاني بعضُ الفُرسانِ الناهِضين مع الرُّسُلِ على أسوأِ حالَةٍ ، مضرويين ١٥

ملهوفين ، أطلقهم قَرُورٌ لِيُعْلِمُونِي بِالْقِصَّةِ ، ويقول : « بالله ! أن أطلقهما الأميرُ حتَّى ينطلق مؤمِّلٌ وأصحابه ! » فذهمني من هذا الأمر ما لا مَرَفَع فيه ولا حيلة . ولا ظَنَنْتُهُ أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسلَ على المقام كُتُبًا إلى البُسَّانة — فأول ما طاعت له — وإلى جميع حصون الغرب ، على يدى ثُمانٍ للذكور ، الساعى فى مُداخلتها قديمًا .
 ٥ وكان من كُتُبِهِ إليهم : « أما بَعْدُ ، فقد جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ^(١) » . إن لم تُطَوِّعُونَا ، ﴿ فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ^(٢) » . وإن خِطَابَهُ لم يَرِدْ على مَعْقِلٍ منها إلَّا وألقى بيدهم ، وقام أهلُه على إخراج قائدهم ، حتَّى تناثرت المَعَاقِلُ كُلُّهَا كَانَتْ ثَارَ الْعِقْدِ ؛
 ١٠ إلى أن وصل الأمير إلى بَيْلِش ؛ ومن امتنع منها ، قاتلتهُ الرعيَّةُ معهم ، حتَّى يلقى يده .

فلم نَذِرْ ما * نصنع ، « واتسع الخرقُ على الرَاقِعِ » ؛ وقلتُ : ٦٠
 « لا طاقة لى بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ! فَيَمْنَنُ نَمْسُكَ الْحَضْرَةُ ؟ ليس فيها خلقٌ من غير جنسٍ مِمَّنْ كان فى المَعَاقِلِ .
 ١٥ « ولا يَتِمَكَّنُ لِلْخِيَاءِ أَنْ يَقِفَ دُونَ أَوْتَادِ ! » ولا فى الأمر من مُداراةٍ ولا حيلةٍ مع الرَّجُلِ أَكْثَرَ من رَغْبَتِهِ فى خَلْعِنَا ! ولا نَمَّ غَيْرُهُ يُسْتَنْدُ إليه ، فتستريح فيه من هذه الداهية العُظْمَى والطامة الكُبْرَى ! ولا فى التَّمَكِّنِ أَنْ نَوَجَّهَ إلى الرومِ ، فيكون ذلك فساداً فى الدين ، واستمجالاً للسكرُوه ؟ وإن شعر بذلك أهلُ حَضْرَتِنَا ، كانوا أوَّلَ من يقاتِلُنَا قبل

(١) سورة الإسراء : ٨١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٧٩ .

المُرَابِطِينَ ! ما دام السِتْرُ يَنْتَنَّا وَبَيْنَهُمْ ، فَيَكْشِفُونَ لَنَا الْقِنَاعَ عَلَى بَصِيرَةٍ !
فَمَا عَهْدُنَا أَيَّامًا وَلِيَالِي كَانَتْ أَفْجَعَ لِقُلُوبِنَا ، وَأَذْهَى لِنَفُوسِنَا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ .

٧١ - وصول الجيش المُرَابِطِي قباله غرناطة

وقدَّم أمير المسلمين عَسْكَرًا إلى غرناطة ، ما دام مُحَاوَلَتُهُ لِلْحَصُونِ ،
يُحْرَسُونَهَا مِنْ دُخُولِ عَسْكَرِ بَرَّانِيٍّ ، إِلَى أَنْ يَرِدَ عَلَيْهَا بِنَفْسِهِ . وَأُرْسِلَ
الْقَوَادُّ إِلَيْنَا أَنْ تُبَيِّحَ لَهُمُ الْقُوتَ وَالْمَلْفَ بِالْمَدِينَةِ ؛ فَأَجَبْنَاهُمْ ، لَثَلَا يَقَعَ
مِنْ شَيْءٍ مِنْ اخْتِلَافٍ ، يَتَسَبَّبُ بِهِ إِلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ .

وأرسلتُ آخَرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِمَالٍ ، وَيُعْلِمُونَهُ أَنَّ
ابْنَهُ ، وَغَيْرُ مُخَالِفٍ عَلَيْهِ ، وَالطَّاعَةُ مِثْلًا لَهُ عَلَى مَرْغُوبِهِ ، دُونَ أَنْ يَخُوجَ
إِلَى هَذَا التَّعَبِ كُلِّهِ . فَأُرْسِلَ إِلَيْنَا الْفَقِيهَ ابْنَ سَعْدُونَ ، يَقُولُ لَنَا : « لَا طَاعَةَ
وَلَا صُلْحَ إِلَّا بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ ! وَهَذَا أَمَانُهُ : كِتَابٌ بِخَطِّ يَدِهِ ، يَتَضَمَّنُ
الْأَمَانَ فِي النَّفْسِ وَالْأَهْلِ دُونَ الْمَالِ . » فَأَيَّقَنْتُ بِالْغَرَضِ . وَكَانَ فِي آخِرِ
كِتَابِهِ لَنَا : « إِنْ كُنْتَ اسْتَوْحِشْتَ مِنَ الزُّوْلِ إِلَيْنَا ، فَتَخَيَّرْ مِنْ بِلَادِكَ
مَوْضِعًا تَصِيرُ فِيهِ ؛ وَلَتَكُنْ غَيْرَ غَرْنَاطَةَ ، لِتَرَى فِيهَا رَأْيَنَا ! عُدَّةٌ فَاتِرَةٌ
لَا تَمُوتُ ! »

فَرَوَيْتُ هَذَا الْأَمْرَ ، وَعَلِمْتُ أَنَّي بِمَالٍ وَمَكَانٍ لَا اخْتِيَارَ لِي فِيهِ ،
وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِيَّ إِلَّا أَلِيَّ مَعْقِلًا ، وَأَنَّهُ لَا مَهْرَبَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ . فَقُلْتُ :
« مِنَ السَّخْفِ يَكُونُ أَنْ أَقُولَ : « قَدْ اخْتَرْتُ مَوْضِعَ كَذَا ! » فَإِنْ
كَانَ لَهَا كَارِهًا ، لَمْ أَلْبَثْ أَنْ أُرَدَّ مِنْهُ بِتَعَلُّلٍ وَحُجَّةٍ لِلْقَوَى عَلَى الضَّعِيفِ !
وَإِنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ الْعِوَضُ ، فَيَخْرُجِي إِلَيْهِ يُرَبِّي مَا يُنْتَقَدُهُ * مِنْ إِحْسَانٍ . ٦١ (١)

ولا حيلة غير الخروج والتَّرامى عليه ؛ فإن كان قد أَجَلَ وقيل ، فَلهُ الْفَضْلُ ،
وعلى الشُّكْرِ آخِرَ الدَّهْرِ . وإن كان قد غدر ، كُنَّا وَاثِقِينَ بِالْقَدَرِ ، وَأُبْلَيْنَا
عند الله وعند الناس العَذْرَ ! »

٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة

٥ ولما التفتنا إلى أهل مدينتنا ومذاهبهم وحرّكاتهم ، اطلعنا على أمورٍ
دليّةٍ على الانتقال ، مؤذنةٍ بالزوال ؛ وقسمناهم أصنافاً على القياس والرتبة ،
مع المعاينة لما عَمِيَ قَبْلُ ، وإظهارٍ ما خَفِيَ ، إذ لا حَرَجَ ولا هيبة ولا
صَوْلَةَ تتقَى . أمّا الجُنْدُ من البرّبر ، فكانوا مُعْتَبِطِينَ بِهِمْ ، طامعين في
الزّيادة على أيديهم للجنسيّة . واتفق رأيهم على ألا يلقوه بِحَجَرٍ ، وقدّموا
١٠ كُتُبَهُمْ بالطاعة ؛ وراجعهم عليها ، يَعِدُّهُمْ بأن يُبْقِيَهُمْ في أُمَاكِنِهِمْ على
أَفْضَلِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ ؛ فمن كان منهم بالمدينة الفوقى ، تَقَلَّعَ إلى الشُّقْلَى
بأهله وماله ، وبقي هو بنسَمَتِهِ مُنْقَرِداً مُتَاهِباً للشرِّ ، إمّا بالخروج إليه من
الطاعة ، أو بإسلامنا إليه والتبرؤ^(١) منا .

١٥ ومن كان من التجّار وأهل البلد ، فكانوا على نِيَّةٍ أَنَّهُمْ مع مَنْ سَبَقَ ،
ولا طاقَةَ لَهُمْ بالحرب ، ولا هُمْ أَهْلُهُ ؛ وأكثَرُهُمْ خرج من البلدة يقول :
« لَأَيُّ وَجْهِ نَحْتَمِلُ الحِصَارَ ؟ تَاجِرٌ هُنَا وَصَانِعٌ كَمَا فِي غَيْرِهَا ! » وأمّا
الرعيّة ، فَبَنَحَ بَنَحٍ ذَلِكَ مَا كَانَتْ تَبغى ، طمعاً منها في الحُرِّيَّةِ ، وأنها
لا يُلْزِمُهَا غير الزكاة والعُشْرِ .

وأمّا الرّقّاصة من المغاربة ، الذين كانوا عماد الحضرة ، وبهم كُنَّا

أصل : « التبرى » .

نُفْسِكَ الْحَصُون ، فَهَمَّ أَوَّلُ مَنْ طَاعَ ، وَأَعْيُنُ مَنْ بِالْحَضْرَةِ إِلَيْهِمْ يَقُولُونَ :
« مَا الَّذِي خَالَفَ بَنَّا عَنْ صَنِيعِ بَنِي عَمَّنَا ؟ » قَلَمَ نَجِدُ فِي صِنْفٍ مِنْهَا
رَاحَةً يُرْجَى مَعُونَتُهَا !

وَأَمَّا الْعَبِيدُ وَالصَّاقِلَةُ ، فَالْعَبِيدُ الْأَعْلَاجُ ، أَوَّلُ مَنْ عَصَا ، كَمَا ذَكَرْنَا ،
بَلَوُشَةُ ، رَجَوْنَا أَنْ يَكُونُوا عِنْدَهُ فِي أَعْلَى مَرْتَبَةٍ ، وَلَمْ يَفْكُرُوا فِي عَاقِبَةِ
أَنْ يَخْطِئُوا عِنْدَهُ ، فَيَقُولُ : « مَا نَصَحُوا مَوْلَاهُمْ رَبَّ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ !
فَكَيْفَ غَيْرُهُ ؟ » إِلَّا أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ بِشَهْوَتِهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، لِلَّذِي شَاءَهُ
اللَّهُ — لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ !

- حَتَّى الْخَدَمُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْخَصِيَّانِ : كُلُّ طَامِعٍ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ ،
وَالْخُرُوجِ عَنْ ثِقَافِ الْقَصْرِ إِلَى رَاحَةِ* التَّسْرِيجِ ، وَالِاسْتِهْتَارِ بِالرِّجَالِ ، وَمَا ٦١ (ب)
أَشْبَهَ ذَلِكَ . فَجَعَفَرُ الْخَصِيِّ مِنْهُمْ وَلَبِيبُ* كَانَا زَعِيمَي الْمُدَاخَلَةِ وَرَأْسِ
الْقَتَكِ ، يَقُولَانِ : « نَحْنُ لَا وَلَدَ لَنَا وَلَا تَلَدَ ! فَعَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصْبِرُ عَلَى
الْقِتَالِ ؟ وَمَا عَسَى نَطْمَعُ أَنْ نَصِيرَ إِلَيْهِ : هَلْ يَجْمَلُ بَنَّا سُلْطَنَةً أَوْ قِيَادَةً
أَوْ قِضَاءً أَوْ فِقْهًا ؟ إِنَّمَا نَحْنُ بِمَنْزِلَةِ الْعِيَالِ : مَنْ سَبَقَ اسْتَمْتَعَ بَنَّا ، وَكُنَّا
عِنْدَهُ مِنْ جِلَّةِ الْغَنِيِّ ، فَرَزَقُوا كَسَائِرَ الْكَسْبِ ، فَلَا نَضِيعُ ! تَعَالَوْا بَنَّا !
نُقَدِّمُ لَأَنْفُسِنَا ! » فَوَرَدَتْ عَلَيْهِمْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْإِنْزَالِ الْقَوِيَّةِ ،
وَالثَّقَائِلِ ، وَالْمَرَاتِبِ الْعَالِيَةِ ، يَعِدُّهُمْ بِذَلِكَ عِنْدَ إِكْمَالِ حَاجَتِهِ وَإِسْلَامِهِمْ لَنَا ،
حَتَّى اتَّفَقَتْ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ .

٧٣ — لَا يَجِدُ عَبْدُ اللَّهِ مَخْرَجًا إِلَّا بِالتَّسْلِيمِ

- وَلَا اتَّسَقَ لَهُ مَا أُتْمِلَ ، وَعَلِمَ بِمَا مَعَهُ فِي الْبَلَدَةِ ، بِمَدِّ تَقْدِيمَةِ عَسْكَرِهِ ، ٢٠

كما ذَكَرْنَا ، إلى فَخْصِ غَرْنَاطَةِ ، وكان أَهْلُ الْبَلَدِ يَتَقَلَّمُونَ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْبَادِيَةِ ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا^(١) أَفْوَاجًا ، رَأَيْنَا إِمَارَةَ الشَّرِّ وَعَلَامَةَ السُّوءِ . فَإِذَا بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أَثَرِ ذَلِكَ الْعَسْكَرِ مُقْبِلًا إِلَى الْحَضْرَةِ . فَهَاجَ النَّاسُ وَجَزَعُوا . وَاتَّفَقَ رَأْيِي ، مَعَ مَنْ نَصَحَنِي ، أَنَّ الْخُرُوجَ إِلَيْهِ أَوْلَى ، وَالتَّزَايَ عَلَيْهِ أَجْمًا مِنْ هَذِهِ النَّارِ الْمَوْقَدَةِ . فَلَمَلَهُ ، إِذَا رَأَى بَرَاءَتَنَا مِمَّا نَقَلَهُ الْعَدُوُّ ، وَلَمْ يَجِدْ فِي الْمَدِينَةِ نَصَارَى كَمَا قِيلَ ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ وَجْهَيْنِ : إِمَّا صَرَفْنَا إِلَى أَوْطَانِنَا ، وَإِمَّا إِخْرَاجُنَا . فَلَنْ نَعْلَمَ مَعَهُ جَيْلًا ، إِذْ لَمْ نُهَيِّجْ عَلَيْهِ حَرْبًا ، وَلَا أَنْتَعِبْنَاهُ فِي أَمْرٍ .

- وَكَمْ عَسَا الْعَيْشُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ! وَالنَّجَاةُ بِالنَّفْسِ فِي دَارِ الدُّنْيَا ١٠ وَتَخْلِيصُهَا مِنَ الْأَوْزَارِ فِي الْآخِرَةِ ، لَا يُبَالِغُ ذَلِكَ شَيْءٌ وَلَا يَعْدِلُهُ ! فَاسْتَعْمَكُنَا الْقَتْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ أَمِيرًا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ قُوَّةٍ لَا يَتَأَنَّبُهَا الْعَقْلُ ضَعْفٌ وَسُكْرٌ ، مَعَ سُوءِ الْعَاقِبَةِ . وَلَا سِيَّأُ أَنَّنا بِحَالٍ لَا بُدَّ مِنْ إِسْخَاطِ الرُّومِ بِإِرْضَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ إِسْخَاطِ الْمُسْلِمِينَ بِإِرْضَاءِ الرُّومِ ! فَالآنَ يَرِثُهَا الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى وَاجْتَلِ لِلْعَاقِبَةِ ، إِذْ هِيَ نُشْبَةٌ لَا مَلْجَأَ مِنْهَا إِلَّا بِمَا ذَكَرْنَا .
- اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَوْ امْتَسَكْنَا فِيهَا بِنَفَقَةِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا يُمْكِنُ اسْتِبْدَادُ دُونَ ١٥
- انتظار قُوَّةٍ مِنَ النَّصَارَى ، ثُمَّ آتَى الرُّومِيُّ ، فَيَنْحَاشُ عَسْكَرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجَزِيرَةِ أَوْ إِلَى قُرْطُبَةَ ، *مُرْتَقِبًا لِمَا يَكُونُ مِنْهُ ، فَيَقُولُ لِي الرُّومِيُّ : « قَدْ ٢٢ (١)
- أَقْلَعْتُ عَنْكَ مِنْ أَرَادَكَ ! هَاتِ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا نَسْتَحِقُّ مِنَ الْمَكَاافَةِ ! » فَلَوْ قُلْتُ لَهُ : « أَتَرُكُ عَسْكَرًا مَعِيَ ، وَابْقَ أَنْتَ لَثَلًا يُعَاوِدُنَا ! » ٢٠
- مَا كَانَ يَفْعَلُ ، وَيَخْشَى عَلَى عَسْكَرِهِ الْبَوَارِ بَيْنَ أَهْلِ الْبَلَدَةِ وَالْعَسْكَرِ الْخَارِجِ .

(١) أصل : « يخرجونها » .

ولو انصرف دون أن يترك قوة ، فساعة انصرافه وإقبال المرابطين ، لم ترتقد لهم ساعة ، وينقطع الرجاء عن معونة أخرى : فهناك النكال الأكبر ، وصح لهم قتلنا بالكتاب والسنة .

- ولو أن عند إقبال الرومي ، يقول لنا : « إن كنت تتقي من المرابطين ، ولا يمكننا الشكني معك من أجلهم ؛ فتخل لنا عنها ، وتصير إلى كل ما تحببه مع النجاة بنفسك وحشمتك وذخايرك ، كالذي صنعت بجفيد ابن ذي النون ، إذ عاوضته بلفسية ؛ وإلا ، فلا استيطان لك عندنا ، إذ لا تفيدنا بالبلدة ، وما يغني بخروجك إلينا وتركك لمدينتك مطيبة للمرابطين ؛ فیدخل علينا الحزم منها . » فلو أطمعناه ، لارتكبتنا من الأوزار والخروج عن الدين ما يلينا الله عليه والناس أجمعون ، وكنتا نترك غرناطة حبسا للروم ، يضرثون منها المسلمين ؛ فلا دماء تسفك منها ، ولا داخله تدخل إلا وكانت في صحائفنا . ولا خير في أثر الدنيا على الآخرة !
- ولو أن يتربص المرابط عند إقبال الرومي ، ولا ينحاش له ، كما وصفنا ، ويبني على لقائه^(١) ، فلو التقت الفئتان ، فلا بد من أن يكون للطائفة الواحدة على الأخرى ؛ فلو أنها على الرومي ، ففي إثر ذلك ، لم يقدم على قتلنا شيئا بالحجة أننا أجلنا ؛ ولو أن الرومي يقلب ، فبقي بعد ذلك في الملك ما شاء الله ، لم يطب لنا ملك ، ولا استحينا من الله والناس أن يكون ذلك بيوار المسلمين وهلاكهم ! ثم إنه لا يصح لنا ثبوت معه ، وأى شيء كان يحجره عنا ، ولا شيء نرتجى به نزع أنفسنا منه ، ولا بن نتصر لو هم بأخذ الكل .

(١) أصل : « لقاء » .

كَيْفَ مَارَوْتُ فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ ، لَا خَيْرَ فِيهَا لِمَنْ تَعَقَّبَ الْأَمْرَ
وَتَدَبَّرَهُ ، إِلَّا مَا صَنَعْنَاهُ مَعَ حَكْمِهِ* الْأَقْدَارُ الَّتِي لَا تَجْرِي عَلَى إِهْمَالٍ ! فَخَرَجْنَا
إِلَى الرَّجُلِ ، كَأَنَّمَا نُسَاقُ إِلَى الْمَوْتِ ، لَا نَذَرِي مَا نَتَلَقَى ، إِلَّا كَالْخَاطِرِ
بِنَفْسِهِ ، مَتَوَكِّلِينَ عَلَى الْقَدَرِ .

٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله

وَلَمَّا لَقِينَاهُ ، سُرَّ بِذَلِكَ ، وَأَقْسَمَ لَنَا عَلَى الْأَمَانِ فِي أَنْفُسِنَا وَأَهْلِنَا ، وَلَنَّا
مِنَهُ الْمُرَاعَاةَ وَالْكَرَامَةَ مَا بَقِيَ . ثُمَّ أَشَارَ عَلَى قُرُورٍ بِالْتَرَقِيبِ عَلَيْنَا ، إِلَى أَنْ
يُثَبِّتَ خَبَرَنَا ، وَيَقِفَ عَلَى أَمْوَالِنَا .

- فَاتَّعَدْتُ [قَبْلَ ذَلِكَ] أَهْلُ دَوْلَتِنَا ، يَطْلُبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنْ يُودَعَ
عِنْدَهُ شَيْئًا ؛ فَلَمْ تَفْعَلْ ، وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « هَوْلَاءُ يَطْلُبُونَ مَا يَتَزَوَّدُونَ
بِهِ ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ شَفَقَةً مِنْهُمْ عَلَيَّ ! وَلَيْسَ تُخْلِي مِنْ دَفْعِ ذَلِكَ إِلَيْهِمْ مِنْ
وَجْهَيْنِ : إِمَّا فَاسِقٌ يَسْتَأْثِرُ بِهِ دُونِي ، فَتَكُونُ حَسْرَتُهَا فِي نَفْسِي ، وَلَا تَقِيتُ
بِهَا عَنْ وَجْهِ ؛ وَإِمَّا مُتَبَشِّلٌ بِنُعْضِي ، يَحْمِلُهُ إِلَى الْأَمِيرِ لِيَتَهَنَّى بِهِ مَا يَبِيقُ
لَهُ ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ تَفْتَضِّحُ عِنْدَهُ ، وَلَا يَقْبَلُ لِي صَرْفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَرُبَّمَا
يَحْنُقُ عَلَيَّ ؛ فَيُوَفِّدُنِي بَعْدَ الْأَمَانِ ، مَعَ حُبِّهِمْ فِي اللَّالِ . وَإِنِّهِ لَأَشْيَاءُ نَرْجُو
بِهِ بَعْدَ اللَّهِ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِمْ إِلَّا بِالْأَمْوَالِ ؛ وَلَوْ أَمَكْنِي أَنْ أَزِيدَ فِيهَا ، فَضْلًا
أَعْيَيْهِمْ ! وَأَنَا لَا أَبْتَنِي إِلَّا الْعَيْشَ خَاصَّةً نَفْسِي وَأَهْلِي . وَقَدْ خَفَّفَ اللَّهُ
عَنِّي بَقِيَّةَ الْعِيَالِ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي التَّرَرِّ بِمَالٍ لَا أَدْرِي إِنْ يَبْقَى مَعِي ، مَعَ
اِخْتِلَاطِهِ وَكَثْرَةِ شُبُهَاتِهِ : وَكَثْرَةُ الْمَالِ إِنَّمَا يَحْتَاجُ لِلْمَمْلَكَةِ وَالْأَجْنَادِ . فَالآنَ
قَدْ أَزَاحَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنِّي ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا طَلَبُ السَّلَامَةِ بِحُشَاةِ النَّفْسِ ،

وهي غنيمة في مثل هذا الوقت الحاد !

- فخرَجْتُ إلى الرَّجُل بعد ثقاف القصر ؛ ولاخَوْفَ عليه ذلك الوقت ،
 إذ كان الناسُ يَئِنُّ يَأْسٍ وطمعٍ في الرجوع ؛ فلا جرأة من أحد في
 اعتراض شيء من ساقَتِنَا . ولَمَّا أُنْزِلْتُ بتولِّي قُرُورَ الأمر ، جعل الحرص
 ٥ على الخِباء ، وأمر بطَرْد الداخل والخارج ؛ وحِيلَ بَيْنَتَنَا وَبَيْنَ عَيْسِدَنَا
 وصنائعنا : كلُّهُ يُفْتَش عليه وَيُبْحَث على مَالِدِيهِ من مالٍ كسبه في ولايَتِنَا .
 ثُمَّ أَنَا الفقيهُ ابنُ سَعْدُون من عند أمير المسلمين ، يقول : « أَخْضِر
 الأموال والأزِمَّة بها ! فَإِنْ مُوَمَّلًا قد أخبره أَنَّهُ ليس عندك دِرْهَمٌ إِلَّا بِزَمَامٍ
 وَذِكْرٍ . » فقلتُ له : « نَعَمْ ! كَانَ * ذلك ، قد تَرَكْتُهُ في دَارِي ؛ ٦٣ (١)
 ١٠ فَإِنْ أَبَاح لِي السَّيْرَ بِنَفْسِي لاستخراج السُّكُل ؛ وَإِلَّا ، فهذه أُمِّي ، تتولَّى
 ذلك مع ثِقَاتِهِ حَتَّى لَا يُغَادِرَكُم منه خِيْطٌ ! »

- وكان ، عند خروجي ، قد وقع في نفسي من خوف الثقاف ماخِشِيَةٌ
 الفرقَة منها إِنْ تَرَكْتُهَا فِي الْقَصْرِ ؛ فخرَجْتُ معها ، ولم أَلْتَفِتْ إلى مَاسِوَاهَا .
 وأنا مع ذلك في حيرةٍ لَا أَدْرِي لِمَا يَصِيرُ أَمْرِي ؛ قد أَشْرَبَ قَلْبِي من الخوف
 ١٥ والجزع مَالِمَ أَعْهَدُهُ قَطُّ ، وَلَا كَانَ فِيهِ عِزَاءٌ . فَإِنْ الْأُمُورُ الَّتِي يَنْبَغِي لَهَا
 الاستِثْبَاتُ والصَّبْرُ مَا كَانَ مِنْ أَمْرٍ دُونَ أَمْرٍ ؛ وَإِنْ جَلَّ خَطْبٌ ، يُرْجَى
 فِي غَيْرِهِ الرَّاحَةُ ؛ وَبَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضٍ ؛ وَإِنَّمَا هَذِهِ النَّصْبَةُ لَمْ
 يَكُنْ لَهَا عِزَاءٌ وَلَا اسْتِرَاحَةٌ إِلَى أَمَلٍ وَرَجَاءٍ لِيُسْرٍ ، إِلَّا بِحَيْثُ يُحْتَسَبُ .
 فَأَذْهَلَنِي ذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَالٍ فِيهِ صَلَاحٌ مِنْ تَقْدِيمَةِ النَّظَرِ فِي مَالٍ أَوْ غَيْرِهِ ؛
 ٢٠ بَلْ ، كَانَتْ نَفْسِي آكَدَ عَلَى ، لَمْ تَعْمَلْ حِسَابَ مَنْ يَعْيشُ ، لَا سِيَّامًا مِنْ
 لَمْ تَجَرَّ عَلَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ مِخْنَةٌ ، وَلَا أَكْرَبَهُ الدَّهْرُ بِرِزْيَةٍ . فَجَاءَتْ جُحْلَةٌ ،

أُبْهِتَتْ وَخَانَتْ الْقِيَاسُ ، وَحَادَتْ عَنْ سَبِيلِ الْمَعُودِ .

وقد كان أرسل إلى قَرُورٍ يَطْلُبُ خَطًّا يَدَى بِإِسْلَامِ الْمَدِينَةِ وَإِخْرَاجِ
مَنْ لِي فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ . فَبَادَرْتُ عَلَى الْمَقَامِ ، إِذِ الْاِلْتِوَاهِ عَنْ ذَلِكَ مِمَّا
لَا يَنْفَعُ ؛ وَلَوْ فَعَلْتُ ، لَكَانَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْهَوَانِ ، وَلَمْ يَفِدْ شَيْئًا ، وَأَنَا
٥ قَدْ حَصَلْتُ فِي الْقَبْضَةِ .

وَكُنْتُ أُخْرِجْتُ مَعَ نَفْسِي أَسْبَابًا مِنْهَا سَقَطُ ذَهَبٍ فِيهِ عَشْرَةُ عُقُودٍ
مِنْ أَنْفَسِ الْجَوْهَرِ ، وَذَهَبًا مَبْلُغُهُ سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ مُرَابِطِيَّةٍ ، وَخَوَاتِمَ ؛
وَتَأَوَّلْتُ فِي إِخْرَاجِهَا مَعِيَ أَنْ قُلْتُ : « إِنْ كَانَ الْأَمْرُ يَسْدُو مِنَ الْأَمِيرِ
بِثَقَافٍ ، فَهَذِهِ حَاصِلُهُ لَا تَنْفَعُ ، مُجْعَلٌ كَسَوَاهَا ؛ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَ
١٠ فِي الْأَمْرِ بَعْدَ قِضَاءِ غَزْوَتِهِ ، دَارَيْتُ مِنْهَا وَأَعَدَدْتُهَا لِمَا يَنْبَغُ عَلَى الْعَسْكَرِ
وَمُتَاحِفَةِ الْمُرَابِطِينَ . »

وَلَمْ يُتْرَكْ لَنَا خَادِمٌ إِلَّا حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهَا . وَفُتِّشَ عَلَيْهِمْ أَلَّا تَكُنْ
فِي أَوْسَاطِهِمْ خَبِيْثَةٌ . وَجَعَلَ قَرُورٌ يَقُولُ لِي وَلِأُمِّي : « اكْشِفَا لِي عَنْ
ثِيَابِكَا . * قَدْ أَخْبَرَ السُّلْطَانُ أَنَّ خَيْرَةَ الْجَوْهَرِ عَلَى أَوْسَاطِكُمَا . » فَتَبَرَّأْنَا ٦٣ (ب)
١٥ لَهُ عَنْ ذَلِكَ ، وَنَزَعْتُ لَهُ عَنِ الثِّيَابِ . ثُمَّ جَعَلَ يَنْفُضُ الْخُدَّاتِ عَنْ
الصُّوفِ ، وَيَفْتَشُّ بَيْنَهَا ، وَيُقَلِّبُ التَّوَابِيْتَ عَلَى وُجُوهِهَا ، وَيَحُلُّ طَيَّ
الثِّيَابِ ، فَتَشًّا لَمْ يُعْهَدِ مِثْلُهُ قَطُّ . ثُمَّ أَمَرَ بِحُفْرِ الْأَرْضِ الَّتِي عَلَيْهَا الْجُلَاءِ ،
خَوْفًا مِنْ أَنْ نُدْفَنَ فِيهِ شَيْئًا ؛ وَهُوَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ يَقُولُ لِي : « إِنْ سَلَتْ
بِرُوحِكَ ، فَمَا فِي الْأَرْضِ أَوْجَهَ مِنْكَ ! »

٢٠ وَصَارَ الْكُلُّ فَيِّنًا مِنْ خَادِمٍ وَغُلَامٍ ، مَا خَلَانِي وَأُمِّي . وَكُنْتُ وَقْتُ
خُرُوجِي قَدْ أُخْرِجْتُ مَعَ أُمِّي صَبِيَّةً طَمَعْتُ أَنْ أُحِبَّوْهَا ، فَلَا يُؤْبَهُ لَهَا ،

ألاً أنفردَ دون أحدٍ من أهلي ، لتكونَ لي عُدَّةٌ لما بعدَ ذلك ؛ فأتى قُرُور ، وألقى يده فيها ، وأخرجها ، وقش ثيابها على القام ، وتحملها . ثم أتى إلى أئاث الخباء كله وقش ظاهراً وباطناً ، فكل ثوبٍ أو حاجةٍ استحسنها ، أخذها لنفسه . وكاد أن يُعزِّي من الكل . وأصاب الدنانير المذكورة ؛ فقال لي : « ما أردتُ بإخراجها ؟ » قلتُ : « لأتأخفَ بها الأمير ! » فهذدني وأدخلني تحت وعيد ؛ ثم أمر بانتقالها على القام ، وأخذ السقط بما فيه من الجواهر والخواتم : هو من جهة ، ورأبئة من أخرى ؛ وأنا في هذا كله لا أرجو شيئاً إلا السلامة في الروح ، ولم نشك إلا أنه لا يكون بعد هذا إلا القتل .

١٠ ثم إنه أمر والدتي بالطلوع إلى القصر لاستخراج الأموال . فتكدرتُ لذلك أيتاماً ، ما منها يومٌ إلا ونظنُّ أنها لا ترجع إلي ، حتى دفت إليهم الكلُّ بالأزمة ، لم يُنادرهم من ذلك قليلٌ ولا كثيرٌ ، حتى أن الحاجة اليسيرة ربُّما كانت عندي في الخباء ، فيشدُّ فيها على الوالدة ، فتأتي عنها وتحملها إليهم . ولم يتبين لي خلافُ أهل بلدي ، إلا والأمرُ قد فات ، من النظر في الزمام أو غيره . ولم يتقدمني أحدٌ إلى مثل هذا ، فناخذَ حذري وتأهبَ له ؛ ولم يكن إلا ما شاء الله ، إذا أعطى ، فلا مانع ، كما أنه لا يتهىء ، مع ما سلب وضاع ، مُبوتٌ ولا بقاء ، ولو رُفِعَ إلى أعنان السماء .

فلما تقصَّوا* الجميع ، وتبين الحق ، جاءني قُرُور بوصية السلطان ، مع ٦٤ (١)

أبي بكر بن مُسكّن ، وهو في ذلك على مُنتقمٍ شانيء ، وهو يقول لي :

٢٠ « الأميرُ يُنبئُ إليك أن لا يبقَ لك عند أحدٍ ودعةٌ ؛ وإنَّ ما في قصرِكَ

قد نزلتَ عنه بالأزمة ؛ وما في خيائك قد صار إلينا وقشناه ؛ وبقي لنا

أَنْ تَذَرِي مَالَكَ مَوْذُومًا ؛ وَإِذَا ، لَا عَهْدَ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ ، إِنْ خُرِّجَ
قَبْلَكَ دِرْهَمٌ عِنْدَ أَحَدٍ ؛ وَلَا تَكُونِ عُقْبَاكَ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنْ يَجْعَلَكَ فِي
الصَّخْرَاءِ بِحَيْثُ لَا تَرِيحُ ذَلِكَ لِلَّالِ ، وَيَبْقَى عِنْدَ مَنْ أَوْدَعَتْهُ . « فَرَجَعْتُ
إِلَى نَفْسِي أَنْ نَعْلَمَ لَهَا عِنْدَ أَحَدٍ دِرْهَمًا وَدِيعةً ؛ فَلَمْ أَجِدْ . وَأَقْسَمْتُ
٥ لَهُ عَلَى حَقِّ .

وَرَجَعْتُ إِلَى الْوَالِدَةِ ، أَعْظَمُهَا ، وَأَقُولُ لَهَا : « أَسْأَلُكَ بِاللَّهِ ! إِلَّا
مَا أَشَقَّقْتَ عَلَيَّ ؟ قُرْبَانًا قَدْ أَخْرَجْتَنِي شَيْئًا لَا أَعْلَمُهُ ؛ فَيُظْهِرُ بَعْدِي ،
وَيَكُونُ فِيهِ هَلَاقِي ، وَهَلَاكُكَ ! وَالْدُّنْيَا أَقْلٌ مِنْ هَذَا كُلِّهِ ! وَالْقَوْمُ ، كَمَا
تَرَيْنَ ، مُتَعَلِّقُونَ بِشَعْرَةٍ ، يَطْلُقُونَ مَعَنَا أَرْقَ سَبَبٍ إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَقِيَ بِي !
١٠ وَإِذَا تَبَرَّأْنَا لَهُ ، لَا يُمْكِنُ لَهُ تَضْيِيعُنَا . وَلَيْسَ يُدْخَرُ الْمَالُ إِلَّا لثَلَاثٍ :
سُلْطَانٌ يَجُورُ ، أَوْ فِتْنَةٌ تَدُومُ ، أَوْ عُزْرٌ يَطُولُ . وَنَحْنُ فِي نَفَرٍ بِسِيرٍ ! «
فَلَمَّا تَمَيَّعَتْ ذَلِكَ ، بَكَتْ وَقَالَتْ : « نَخْشَى أَنْ نَبْقَى قُرَّاءَ ! وَلِلْوَتِّ
أَهْوَنُ مِنَ الْقَفْرِ ! » فَسَهَّلْتُ عَلَيْهَا الْأَمْرَ ؛ وَقَالَتْ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ
مَنْ خَلَقَ ! » فَكَتَبْتُ تَسْمِيَةً بِمَا أَوْدَعَتْ مِنْ مَتَاعِهَا ، تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي
١٥ حَانَ خُرُوجِي فِي غَدِهَا : ذَكَرْتُ أَنَّ لَهَا عِنْدَ لَدَّةِ خَادِمِ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ
كَاتِبِنَا سُبَيْبَاتٍ لِبَعْضِ جَوَارِيهَا ، وَلَهَا عِنْدَ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ الْقَرَوِيُّ أَرْبَعَةُ
آلَافٍ مِثْقَالٍ ، وَخَلِيًّا أَرْسَلَتْ فِيهِ عَلَى الْمَقَامِ : نَحْوُ خَمْسَةِ عَشَرَ عِقْدًا ؛
فَأَمَّا الْخَلِيُّ ، فَأَتَاهَا وَأَعْطَتْهُ لِقَرُورٍ ، وَلَمْ تَوْخِزْ بِهِ سَاعَةً ؛ وَأَمَّا النَّهْبُ ،
فَأَنهَا ، لَمَّا جَلَبَتْهُ مِنْ ابْنِ الزَّيْتُونِيِّ ، بَادَرَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ وَتَحَمَّلَهُ لِنَفْسِهِ .
٢٠ وَكَذَلِكَ قَعَلْتُ خَادِمُ ابْنِ أَبِي خَيْثَمَةَ ، وَأَتَتْ إِلَى قَرُورٍ بِتِلْكَ الْأَسْبَابِ * ؛ ٦٤ (ب)
فَوَقَعَ إِلَيْنَا الْخَبِيرُ ، وَزَادَنَا ذَلِكَ هَمًّا أَنْ بَدَرُوا بِهِ لِلشَّرْطِ الَّذِي اشْتَرَطَ عَلَيْنَا ؛

فَأَخَذْتُ عَلَى الْقَامِ تِلْكَ التَّسْمِيَةَ ، وَأَرْسَلْتُهَا إِلَى قَرُورَ ، قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ بِنَا ؛
 قَال : « قَدْ أَخْرَجُوهُ لَنَا . فَإِيَّاكُمْ أَنْ يَبْقَى لَكُمْ شَيْءٌ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ! »
 فَاسْتَفْهَمْتُ وَالِدَتِي ثَانِيَةً ، وَبَكَيْتُ لَهَا ؛ قَالَتْ : « مَا لِي شَيْءٌ عِنْدَ أَحَدٍ
 أَكْثَرُ ! » فَأَخَذْنَا الْمَصَاحِفَ ، وَخَلَقْنَا فِيهَا لِقَرُورَ أَنَّهُ مَا لَنَا شَيْءٌ أَكْثَرُ ،
 لَا مُودَعٌ وَلَا مَرْفُوعٌ . « فَأَعْلَمَ السُّلْطَانُ بِمَا أَقْسَمْنَا بِهِ ، وَجَلَّ مَعَ هَذَا
 يَبْحَثُ وَيَسْتَفْصِي . فَمَا وَجَدَ لَنَا أَكْثَرَ كَمَا قَالَتِ الْوَالِدَةُ .

وَلَمَّا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا ، أَتَانَا قَرُورَ ثَانِيَةً ، وَقَالَ : « أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ أَنَّهُ
 لَا وَدِيعَةَ لَكُمْ أَكْثَرَ . وَلَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مَالٌ مَدْفُونٌ ! »
 فَقُلْتُ : « مَا عَلِمْنَا قَطُّ بِدَفْنٍ ، وَلَا حَسَبْنَا هَذَا الْحِسَابَ ؛ وَلَا كَانَ الدَّفْنُ
 شَأْنَنَا ! وَغَيْرُ مُتَعَذِّرٍ عَلَى الْأَمِيرِ أَنْ يَحْفَرَ الْقَصْرَ كُلَّهُ ، حَتَّى يَرَى ! »
 ١٠ فَقَالَ لِي : « إِيَّاكَ بِالْمَنْكَبِ ! » فَقُلْتُ : « مَا لِي بِالْمَنْكَبِ إِلَّا شَيْءٌ مِنْ
 الْأَثَاثِ عَدَدْتُهُ لِنَزُولِي فِيهَا : جَمِيعُ ذَلِكَ بِزِمَامٍ بِخَطِّ يَدِي . يُرْسِلُ فِيهِ
 الْأَمِيرُ وَيَأْخُذُ بِهِ ! » فَقَالَ لِي : « هَاتِ خَطَّ يَدِكَ بِإِخْلَاءِ الْمَنْكَبِ ! »
 فَبَادَرْتُ عَلَى الْقَامِ . وَأَصَابَ الزِّمَامُ بِالْمَنْكَبِ عَلَى الصَّفَّةِ الَّتِي وَصَفْتُ .
 ١٥ وَكَانَ الْجُنْدُ بِهَا قَدْ تَرَبَّصُوا ، وَقَامَتِ الرِّعْيَةُ ؛ فَطَلَبَ خَطَّ يَدِي بِالْإِخْلَاءِ .
 وَلَمَّا صَحَّ عِنْدَهُ بَرَاءَتُنَا مِنْ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ ، أَتَانَا قَرُورَ لِتَحْصِيلِ مَا بَقِيَ . وَالْعَجَبُ
 مِنْهُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ أَنَّهُ أَتَانِي بِسِفَرٍ كَبِيرٍ ، وَقَالَ لِي : « أَقْرَأْهُ ! فَإِنَّ فِيهِ جَمِيعَ
 الْأَعْلَامِ الَّتِي رَأَى النَّاسُ لَنَا بِمُلْكِ الْأَنْدَلُسِ ، وَفِيهِ عِبَارَاتُهَا ! » وَلَا أَدْرِي مَا أَقْرَأُ ،
 [وَلَا أَسْمَعُ] ، أَكْثَرَ مِنْ قَوْلِهِ لِي بِهَذَا اللفظ : « لَيْسَ كَذَا هُوَ ؟ فَجِيتَ الْأَمْوَالُ ،
 ٢٠ لَا [بَقِيَ لَكَ] مِنْهَا شَيْءٌ ! » وَلَمَّا وَقَفَ عَلَى جَمِيعِ مَا فِي الْخِطَابِ مِنْ وَطَاءٍ وَثِيَابٍ ،
 رَفَعَ بِذَلِكَ كِتَابًا إِلَى الْأَمِيرِ ، وَأَعَادَ الْفَتَشَ ؛ يَجِدُ غَيْرَ مَا رَأَاهُ * أَوَّلًا . ٦٥ (١)

٧٥ - نفى الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى

فلما خبر بما فى التَّسْمِيَةِ أَنَّهُ لَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْهُ ، سَوَّغَهُ لِنَا مَعَ ثَلَاثِمِائَةِ دِينَارٍ وَثَلَاثَ خَدَمٍ ، أَمَرَ لَنَا بِهَا ، وَأَعَارَنَا دَوَابَّ^(١) خَمْسَةَ لِقْلَافٍ الْآثَاثَ كُلَّهُ ، وَأَمَرَنَا بِالنَّهْوضِ إِلَى الْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءِ ، وَقَالَ :
 « تَنْتَظِرُوا بِهَا السُّلْطَانَ حَتَّى يَرِدَ عَلَيْكُمْ . » وَأَعْطَانَا مِنَ الْمُرَابِطِينَ مُشِيعِينَ مِنْ يَوْمِئِذٍ وَيَتَكَفَّلُ أُمُورَنَا . فَشَكَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَتَحَرَّكْنَا عَلَى الْمَقَامِ ، إِذْ كَانَ الْحَفَرُ مِنْهُ فِي ذَلِكَ شَدِيدًا .

وَكُنَّا طَوْلَ طَرِيقِنَا جَازِعِينَ ، لَا نَدْرِي مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ بَنَا ، وَلَا مَا الْإِشَارَةُ فِينَا . وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى الْمُرَابِطِينَ يَنْزِلُونَ بِمَنْزِلٍ ، أَوْ يَحْتَلُونَ فِي مَوْضِعٍ ، فَأَقُولُ : « إِنَّ ذَلِكَ لَشَيْءٌ أَمْرُؤًا بِهِ ! » فَكُنْتُ طَرِيقِي ذَلِكَ تَحْتَ جَزَعٍ وَهَلَعٍ ، أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُكَفِّرَ بِهَا السَّيِّئَاتِ ، وَيَجْعَلَهَا آخِرَ مَصَائِبِنَا بَعْرَتَهُ ؛ إِلَى أَنْ وَصَلْنَا الْجَزِيرَةَ .

فَأَرْسَلْنَا إِلَى سَبْتَةَ ؛ وَدَخَلْنَا الْبَحْرَ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، أَذْرَكْتْنَا فِيهِ أَهْوَالَ لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ مِنْهَا إِلَّا بِالْأَجَلِ الَّذِي لَمْ يَحْضُرْ ؛ حَتَّى خَرَجْنَا إِلَى سَبْتَةَ ، بَعْدَ أَنْ قِيلَ لَنَا : « فِيهَا تَنْتَظِرُوا الْأَمِيرَ ! » كَمَا قِيلَ عَنِ الْجَزِيرَةِ . فَرَادَنَا ذَلِكَ قَلَقًا .

ثُمَّ نُقِلْنَا إِلَى مَكْنَسَةِ الزَّيْتُونِ . وَتَلَقَّانَا الْأَمِيرُ سِيرُ ، وَأَنْسَنَا ، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مُقَامَنَا عَنْدهُ إِلَى أَنْ يَرِدَ السُّلْطَانُ مِنَ الْأَنْدَلُسِ . وَأَرْسَلَ إِلَيْنَا مِائَةَ دِينَارٍ . وَعِنْدَ حُلُولِنَا بِهَا ، أَيقَنَّا بِالْمَقَامِ فِيهَا . وَبَقَيْنَا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ، قَدْ

(١) أصل : دواباً .

فَقَدَّ مَا كَانَ بِأَيْدِينَا ، وَأَخَوَجْنَا إِلَى بَيْعِ ثِيَابِنَا الَّتِي مُتْرِكَتْ لَنَا بَعْدَ أَنْ
اسْتَحْذَوْا قَرُورٌ وَحَاشِيَتَهُ عَلَى أَكْثَرِهَا (فَكُلُّ يَدٍ وَمَا نَهَبَتْ !) ، لَمْ
يَتْرَكُوا لَنَا إِلَّا مَا لَا نَنْظُرَ لَهُ عَلَى نِزَارَةِ مَا أُبْقِيَ . وَالسُّلْطَانُ — أَيْدُهُ اللهُ ! —
غَافِلٌ عَنْ ذَلِكَ ، لَمْ يُمْكِنِ الشُّكْوَى إِلَيْهِ ، إِذْ كَانَ قَرُورٌ وَاسِطَةً ، وَمَا كُنْتُ
أَنْشُقِي مِنْ ذَلِكَ أَكْثَرَ .

وَمَنْ أَعْجَبَ الْأَشْيَاءَ أَنَّهُ ، عِنْدَ حُلُولِي بِمَكْنَسَةِ ، [كَتَبَ إِلَيَّ] يَقُولُ
لِي : « أَخْبِرْنِي عَنِ الْخَاتَمِ الَّذِي خَرَجْتَ بِهِ ! » [وَقَدْ كُنْتُ] أَخْرَجْتُهُ
مِنْ إصْبَعِي وَبَعْتُهُ بِعَشْرَةِ دِينَارٍ ؛ فَرَأَيْتُهُ نَعْلُهُ* بِحَاجَتِي إِلَى ثَمَنِهِ . وَإِنَّمَا ٦٥ (ب)
أَرَادَ أَخْذَهُ لَثَلًا يُبْقِي لَنَا شَيْئًا ، وَيَتَقَصَّى الْجَمِيعَ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ
لِي غَيْرُهُ .

نَمَّ إِنَّهُ وَافَانِي مِنْ عِنْدِ السُّلْطَانِ ثَلَاثُمِائَةِ دِينَارٍ أُخْرَى ، وَأَنَا بِمَكْنَسَةٍ ؛
وَخَاطَبَنِي بِكِتَابٍ يَعِدُّنِي بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَيَقُولُ لِي : « لَا أَنْسَاكَ مَا بَقِيَتْ ! »
فَسَرَّنِي ذَلِكَ — أَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَهُ ! — ؛ فَلَقَدْ كَانَ أَرْفَقَ بِي بَعْدَ اللهِ
مِنْ كُلِّ أَحَدٍ . وَأَعْلَمَنِي أَنَّهُ ، إِذَا وَرَدَ مَرْثُوكُش^(١) ، أَكُونُ مَعَهُ حَيْثُ
١٥ مَا كَانَ ، إِكْرَامًا لَنَا وَإِنْشَارًا . فَعَلِمْتُ أَنِّي مُنْتَقِلٌ عَنْ مَكْنَسَةِ ، إِلَّا أَنْ
الرُّوعَ كَانَ أَفْتَرًا ، إِذْ لَمْ يُمْكِنَ أَنْ تُؤَخَّرَ الْعُقُوبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْأَمَدِ . وَقَرُورٌ ،
مَعَ هَذَا ، لَا يَدْعُ طَلَبِي عِنْدَ السُّلْطَانِ ، عَلَى إِحْسَانِي إِلَيْهِ ، جِبِلَّةٌ قَدْ جَبَلَهُ اللهُ
عَلَى بُغْضِي ، مَعَ قَلْبِهِ رَحْمَتِهِ ، وَقِسَاوَةِ قَلْبِهِ ، وَدَنَاءَتِهِ وَلَوْ مِهِ .

(١) راجع أعلاه ص ١٢٥ .

٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه

وَبَلَّغْنَا فِي طَرِيقِنَا ذَلِكَ مَا كَانَ مِنْ ثِقَافِ أَخِينَا تَمِيمٍ بَعْدَنَا ، وَأَنَّهُ ،
لَمَّا كَانَ فِي مَدَّةِ كَوْنِنَا بِغَرْنَاطَةِ إِخْرَاجِ الْأَمْوَالِ ، وَتَمَحُّنٍ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ
مُرَقَّبِينَ فِي الْخَبَاءِ ، كَانَ تَمِيمٌ الْمَذْكُورُ يَزُورُنَا ، وَيَتَكَدَّرُ عَلَيْنَا الَّذِي يُلْزَمُ
مِنْ حُبِّ الْقَرَابَةِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ . وَكَانَ قَرُورٌ ، فِي هَذَا كُلِّهِ ، يَرْمِقُهُ بِبَصَرِهِ ،
وَيَعْتَقِدُ فِي نَفْسِهِ لَدَاكَ شَرًّا ؛ وَصَوَّرَ عِنْدَ السُّلْطَانِ أَنَّ مَا لَا أَخْرَجْنَاهُ مِنَ الْمَالِ
مَوْدُوعٌ عِنْدَهُ ، لَيْسَلِمَ لَنَا بِسَلَامَتِهِ ، مَعَ مَا زِيدَ فِيهِ مِنَ الطَّلَبِ ، أَنَّ قِيلَ
لِلْسلْطَانِ : « تَقَفْتُ صَاحِبَ غَرْنَاطَةِ ؛ وَأَخُوهُ مِنْهُ ! وَإِنْ تَرَكْتَهُ يَنْصَرِفُ
إِلَى بِلَادِهِ ، طَلَبُكَ بِالنَّارِ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ مَا تَرْجُو صِلَاحَهُ ، مَعَ شَرِّهِ وَحَدَّثِهِ !
١٠ فَهُوَ بِذَلِكَ مَرْسُومٌ مَعْرُوفٌ ! فَعَاجِلٌ بِثِقَافِهِ ، يُصْنِفُ لَكَ مَا تَوْمَلُ ! »

وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ ، عَلَى مَا أَعْلَمُنِي أَخِي الْمَذْكُورُ ، قَدْ أَنْسَهُ السُّلْطَانُ ،
وَوَعَدَهُ بِصَرْفِ بِلَادِهِ إِلَيْهِ الَّتِي صَارَتْ إِلَيَّ ، وَقَالَ لَهُ : « لَسْتُ مِنْ
أَخِيكَ [بِالْمَسْئُولِ ؛ وَأَنْتَ أَظْهَرْتَ لِي] الطَّاعَةَ ، وَأَجَلْتَ الْمُعَاشِرَةَ ،
وَإِنَّكَ أَوَّلُ مَنْ ضَرَبَ الدَّرَاهِمَ [الْمُرَابِطِيَّةَ] . وَالْآنَ تَسْتَحْمِدُ عَاقِبَةَ رَأْيِكَ ،
١٥ وَنَجْمَلُ لَكَ بِتِلْكَ الْمَزِيَّةِ عَلَى أَقْرَانِكَ ! » فَطَمَعَ الصَّبِيُّ بِذَلِكَ ، وَشَرِيَهُ إِلَيْهِ :
كُلُّ ذَلِكَ خِذْلَانٌ [اغْتَرَّ بِهِ] * مُلُوكِ الْأَنْدَلُسِ ، وَأَسْعَدُ مِنْ أَجْلِهِ الْمُرَابِطُونَ ؛ ٦٦ (١)
فَعَمِيَّتِ الْبَصَائِرُ ، وَقَوِيَّتِ الشَّهَوَاتُ ، وَامْتَدَّتِ الْأَمَالُ بِحَيْثُ يَتَبَغَى لَهَا
أَنْ تَقْصُرَ .

فَلَمَّا هَمَّ بِهِ ، أَخَذَ فُجْأَةً لَثْلَا يَشْمُرُ ، فَيَغِيبُ الْمَالُ الَّذِي أَتَاهُمْ بِهِ ،
٢٠ وَيَنْفِرُ . وَنَالَ مِنْ قَرُورٍ هَوَانًا كَثِيرًا ؛ وَلَمْ يَتْرِكْ لَهُ سَقَطًا ؛ وَبِعَتْ أَسْبَابُهُ

في موضع مَحَلَّتِهِ : قِيمَ لَهَا نَمَّ سُوْقٌ . وأُلْقِيَ في الحَدِيدِ ، وأَمَرَ به إلى السُّوسِ . ولَمَّا كَانَ طَرِيقُهُ عَلَى مِكَنَاسَةٍ ، لَقَيْنَاهُ ؛ فَأَخْبَرَ بِهِوْلَ مَا قَامِي ، وَبَصُرْنَا بِهِ ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ قَدْ شَقِيَ بِالسَّكْبَلِ لِعَظَمِيهِ ، لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَحَرَّكَ بِهِ . فَأَوْجِبَ ذَلِكَ مَا وَصِمَ بِهِ مِنَ الشَّرِّ ؛ وَأَنَّ أَهْلَ مَالَقَةٍ رَفَعُوا إِلَيْهِ هِـ حِينَئِذٍ أَفْعَالًا قَبِيحَةً ، وَأَبَاذِي سَيِّئَةً أَسَدَاهَا إِلَيْهِمْ ، عَلَى مَا ذُكِرَ ؛ فَاتَّفَقَتْ الْأَسْبَابُ . فَلَمْ يُرِدِ الْأَمِيرُ أَخْذَهُ إِلَّا بَيِّنَةً ؛ إِلَى أَنْ وَصَلَ السُّوسَ ، وَوَصَّى بِهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ إِلَى بَزْلَفَ ، وَبَالَغَ فِي إِكْرَامِهِ . وَكَانَ مَعَهُ فِي عَافِيَةٍ وَرَغَدٍ مِنَ الْعِيشِ . وَفَوَّضَ أَمْرَهُ إِلَى وَلَاةِ السُّوسِ بَعْدَ بَزْلَفَ .

الفصل الحادي عشر

عزل بقيّة ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

٧٧ — موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة

وَحَانَ انصرافُ أمير المسلمين إلى بلاده بالعدوة ، بعد أن أكمل ما شاءه من أمر بني عبّاد وصاحب الرّية :

وَنَحْنُ ذَاكِرُونَ مِنْهَا مَا بَلَغْنَا مِنْهَا ، بِمَا يَقْبَلُهُ الْعَقْلُ ، لَا بِتَخْلِيْطِ النَّاسِ ؛
وَنَحْتَصِرُ مِنَ الْوَصْفِ مَا يُفْنَى عَنْهُ الْإِكْثَارُ : فَإِنَّهَا أُمُورٌ لَمْ نَشَاهِدْهَا ، فَخُخِرَ
عَنْ يَقِيْنٍ وَإِطْنَابٍ ؛ وَلَا غَابَتْ عَنْهَا كُلُّ النِّيَابِ ، فَتَجَهَّلَ مَصْدَرُهَا
وَمَوْرِدُهَا ، أَنْ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ أَشْغَلُ وَأَكْرَبُ مِنَ الْغِيَابِ مَا حَدَثَ
بَعْدُنَا لِقَلَّةِ الْمُبَالَاهِ بِمَا لَا يَنْبَغِيْنَا مِنْهَا ، وَلِشُغْلِ خَوَاطِرِنَا بِمَا دَهَيْنَا بِهِ ، عَلَى أَنْ
ذِكْرُ مَا سَمِعَ ، وَنَحْنُ قَدْ أَمِنَّا مِنَ الْمَوْتِ ، أَيْسَرُ مِنْ ذِكْرِ مَا عَيْنَاهُ ،
وَنَحْنُ جَازِعُونَ مِنْهُ . فَحَقٌّ لَنَا أَنْ نَذْهَلَ عَنْ عِلْمِ جَلِيَّتِهِ بِالْمَعَايِنَةِ ، وَعَنْ
وَصْفِهِ بَعْدَ الْأَمَانِ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ ذِكْرِ الْهَوْلِ ، فَكَأَنَّهُ فِيهِ .

وقد كان أمير المسلمين ، قَبْلَ تَجِيئِهِ إِلَى غرناطة ، قد وعد المُعْتَمِدَ بها . ، وقال له : « أَنَا رَجُلٌ مَغْرِبِيٌّ ؛ وَلَيْسَ قَدَمَتِي أَخْذُ مَالٍ وَلَا

بلاد! * وقد ترى ما رُفِعَ على صاحب غرناطة؛ وتتوقع عليها من الروى * . وليس ٦٦ (ب)
غَرَضِي أَكْثَرَ مِنْ تَخْلِيصِهَا ؛ فَإِذَا صَارَتْ فِي يَدِي ، وَلَا يُمَكِّنُنِي إِمْسَاكُهَا
لِبَيْنِ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الْعِدْوَةِ ، وَضَعْتُهَا عِنْدَ ذَلِكَ فِي يَدِكَ : فَتَكُونُ أَعْلَمَ
بِمَا تَصْنَعُ بِهَا ، وَأَقْعَدَ لِمَا يُصْلِحُ الْمُسْلِمِينَ . »

٥ . فَلَمْ يَشْكُ الْمُعْتَمِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُ كَائِنْ ؛ وَعَمِلَ حَسَابًا آخَرَ أَنْ قَالَ
فِي نَفْسِهِ : « إِنَّ لَمْ يَنْهَيَّا لَهُ أَخَذُهَا بِقُعُودِ صَاحِبِهَا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، فَلَيْسَتْ
يَمَّا تَوَخَّذُ مِنْ وَقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ! سَتَنْجَرُ الْحَالُ مِنْ أَجْلِهَا ، وَتَشِيخُ عَلَيْهَا
لِلْحَلَّاتِ ، كَمَا صُنِعَ بَلِيِيطُ ؛ وَتَدْخُلُ الشُّتُو ، فَيَحْتَاجُ إِلَى الْإِنْصِرَافِ ، وَتَبْقَى
هَذِهِ الْمَاقِلُ الَّتِي طَاعَتْ لِلْأَمِيرِ أَوْ كُنْ زَعِيمًا . وَفِي خِلَالِ مَا يَتَلَوَّى أَمْرُ
١٠ . غَرْنَاطَةَ ، اخْتِيجَ إِلَيَّ ، وَكَانَ لِي بِذَلِكَ الصَّوْلَةُ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ ، وَلَا نُخْلَى
مِنْ بَرَكَتِهَا ! »

وكان الحبيبُ إليه أن تَبْقَى على ما ذَكَرْنَاهُ ، إِذْ لَا يَعْلَمُ ، عِنْدَ حَصُولِهِ
عَلَيْهَا ، مَا تَكُونُ قَرَعَتُهُ مَعَهُ ، كَالَّذِي كَانَ . وَسَكَتَ عَنِّي فِي الْأَمْرِ ؛ وَلَمْ
يُزِرْ الْإِنْكَشَافُ بَسْرَهُ إِلَى رَأْسِي يَفْشَى عَلَيْهِ ، غَيْرَ رُمُوزَاتٍ ، إِذْ ذَاكَ
١٥ . لَا تَنْفَعُ . وَلَوْ قَالَ لِي : « امْتَسِكْ ! » فَأَنَا أَخَوْتُ عَلَى حَالِي ، أَوْ :
« اخْرُجْ ! » لَمْ أُطِعهُ مَا تَهْمُهُ ؛ وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِنِي تَقْوِيَةً ، فَيَنْتَضِحَ
عِنْدَ الْمُرَاطَبَةِ . إِنَّمَا كَانَ صَنَعَ الْأَمِيرِ أَنْ يَطَّلِعَ وَيَرَى ، عَسَى يَنْهَيَّا لَهُ فِي النِّصْبَةِ
شَيْءٌ ، أَوْ يَسْلَمَ مِنْ مَعْرِتِهِ ؛ قَدْ تَنَسَّبَ ، وَلَمْ يَجِدْ مَحِيصًا غَيْرَ مَا كَانَ بِسَبِيلِهِ .
وَكَذَلِكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ مَعَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ . وَصَاحِبُ الْمَرِيَّةِ فِي الْمَرِيَّةِ
٢٠ . لَمْ يَتَحَرَّكْ : كُلُّ أَحَدٍ مِنْهُمْ إِلَى مَا يَنْقُضُ مِنْ أَمْرِ غَرْنَاطَةَ ؛ قَدْ أَبْهَتَهُمْ
أَمْرُهَا . وَأَفْلَقَهُمْ .

ولمّا بصرتُ تَأَلَّبَهُمْ عَلَىَّ مع الأمير، خَاطَبْتُ كُلَّ واحدٍ منهم بِكِتَابِ
أَقُولُ لَهُمْ : « هذا الأَمْرُ مُنْجَرٌّ إِلَيْكُمْ ! واليَوْمَ بى وَغَدًا بِكُمْ ! » فلم
يَمَكِّنْهُمْ قِرَاءَةَ الكُتُبِ دُونَهُ ، وعرضوها عليه . فَنَحَقَ عَلَىَّ ؛ وَكُتِبَتْ
الأَجْوِبَةُ بِإِمْلَائِهِ ، يقولون : « إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَلْطَخُنَا بِأَفْعَالِكَ ، * ونحن قد
٥ بَرَأْنَا اللَّهَ مِنْهَا ! » وما أشبه ذلك من الوعيد والتذنيب : فَعَلُ من قد
وَحِلَّ ، ولم يقدر على أَكْثَرِ مَا قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ ، مع الطمع وَعَمَى البصائر ،
كَمَا وَصَفْنَا قَبْلَ :

وكان رُسُلُهُمْ إِلَىَّ قَبْلَ ذلك يَحْضُونِى عَلَى الِامْتِسَاكِ وَالتَّجَلُّدِ . وقال
ابن الأَفْطَسِ : « انا أَعْتَذِرُ عَنْهُ ! » ولم يَرَوْا كُتُبَ كِتَابِ خَوْفًا مِنْ
١٠ أَنْ يَكُونَ ظَهِيرًا عَلَيْهِمْ ، غَيْرَ إِهْذَاءِ ذَلِكَ عَلَى الأَلْسِنَةِ . فَعَلْتُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ
قد أَسْلَمُونِى إِلَى طَاقَتِى ؛ فَإِنْ كَانَتْ لِى ، لم تَدْخُلْ عَلَيْهِمْ دَاخِلَةً ؛ وَإِنْ
كَانَتْ عَلَىَّ ، لم يُفْسِدُوا وَجُوهَهُمْ مَعَ المُرَاطِطِ ؛ وَحَسْبُهُ اجْتِهَادُهُمْ مَعَهُ
بِأَنْفُسِهِمْ وَرِجَالِهِمْ .

فَرَأَيْتُ حَالِى فِي هَذَا كُلِّهِ تَالِفَةً ، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ ، طَوَّلَ مَدَّةَ امْتِسَاكِى
١٥ لَوْ امْتَسَكْتُ ، لَكَانَ سُلَاطِينُ الأَنْدَلُسِ أَجْمَعُ مُتَأَلِّبِينَ عَلَى فِتْنَتِى مَعَ رَعِيَّتِى ،
لَمَّا يَلْزِمُهُمُ مِنَ الطَّاعَةِ لِلْمُرَاطِطِ وَالطَّمَعِ ، عَسَى يَحْضُلَ لِأَحَدٍ مَزِيدٌ فِي بِلَادِهِ ،
وَلَا تَمَكَّنُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ مَعُونَتِى وَلَا الاسْتِفْسَادَ مِنْ أَجْلِى . فَتَحَنُّ لَمْ يُعَيْنْ
بَعْضُنَا بَعْضًا عَلَى الرُّوحِ ! فَكَيْفَ عَلَى السُّلَمِ ، مَعَ حَرْبِ الكَانُونِ وَرِقْيَامِ
أَهْلِ الْيَتِ ! هَذَا مَا لَا طَاقَةَ بِهِ لِمَنْ عَقْلٌ ! وَلَمْ نَظُنْ نَحْنُ أَنَّ الأَمْرَ يَنْتَقِى
٢٠ إِلَى هَذَا كُلِّهِ ، وَلَا نَتَاجَلُ هَذِهِ الْمُعَاجَلَةَ . وَلَوْ عَلِمْنَا ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ
يَتَقَدَّمُنِى إِلَى الْخُرُوجِ إِلَيْهِ ، إِذْ مَا سِوَى ذَلِكَ عَلَى هَذِهِ الرِّتْبَةِ لَا يَنْفَعُ .

وإنما طمَعنا بما قَصَصناه قَبْلُ ، وَحَسْبُكَ !

وإنه، لَمَّا آلت الحالُ إلى ما لم يُجَزَّ على قياس، خَرَجْنَا إليه، ولم تَلْتَوِ ساعة .

٧٨ — حركات المُرابطين على المَرِيَّة

والم يُقَدِّم أميرُ المسلمين شيئاً ، وَقَتَ خروجي إليه ، على إرسال جَيْشٍ
٥ إلى صاحب المَرِيَّة ، قَبْلَ ابن عَبَّاد ، إِذْ كان بِتَخَلُّفِهِ مَوْسُوماً بالِنفاق ، ولأنَّه
مُعاقِدِي على ذلك ، وأنَّ تَحَلُّفَهُ لا يكون إلا عن اتِّفاقٍ .

فلم يُجَرِّكْ منها مَوْضِعاً إلا وأجاب . وتناثرت مَعاقِلُهُ أجمع ، حتى بلغ
العسكرُ إلى باب المَرِيَّة . وكان الرَّجُلُ — رحمه الله — ساعةً ورود الخبر
عليه بِمُخْرُوجنا ، انطبقَ له ، واعتلَّ لما رأى من هَوْلِهِ وسوءِ عاقِبته . وقضى
١٠ عليه وصول العسكر إلى الباب ، وهو على تلك الحال ؛ فأقْرَعَ لها ومات .

* ووَلى بعده ابنُهُ مُعِزُّ الدولة ، الناهِضُ إلى قَلْعَةِ حَمَّاد على ما نَصِفُهُ بعد هذا . ٦٧ (ب)
وقد كان ، لَمَّا رأى من طَلَبِ [المُرابط لبلاده] ، قد وَجَّهَ إليه ابنه
الآخر ، يَعْظُهُ ويُعلمه بوجْهِ الحقِّ فيه ، إِذْ كان يَنْتَحِلُ قِتْعاً ؛ وذلك مما
ذَكَرْنَا من قَلَّةِ المَيْزِ بالأحوال ، إِذْ يَرَى هذه الأمورَ مُشتعلَةً ، ويطمع
١٥ إطفاءها بالوعظ ! فساعةً وصوله ، أمر الأمير بثقافه على المقام في الحديد . وتحيل
أبوه في انطلاقه ، حتى انصرف إليه فارّاً من المُرابط : اختَلَسَهُ من مَوْضِعِهِ
رَجُلٌ له شَبَّاكٌ ، قذف به في البحر حتى سَلِمَ إلى والده .

وفتر الطَلَبُ على المَرِيَّة للشغل بما حدث بأمر ابن عَبَّاد ، وأنَّه أوكَدَ
الأشياء . وإنَّ ابنَ صَمَاحٍ ، لما حضرته الوفاة ، وصَّى ابنه هذا المُستَخلف ،
٢٠ وقال له : « أَمَتْسِكْ في هذه القِصْبَةِ طولَ مقام ابن عَبَّاد في مُلْكِهِ

بِإِشْبِيلِيَّةَ مَا اسْتَطَعْتَ ! فَإِنْ رَأَيْتَ ابْنَ عَبَّادٍ قَدْ خَرَجَ ، فَلَا تَتَرَبَّصْ سَاعَةً وَاحِدَةً ، وَأَنْجُ بِنَفْسِكَ إِلَى الْقَلْعَةِ ، وَأَدْخُلِ الْبَحْرَ بِمَا قُدْرَتُهُ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِكَ ، إِذْ لَا مَطْمَعَ لَكَ فِي الْبَقَاءِ بَعْدَهُ ! »

فَحِظْ وَصِيَّةَ أَبِيهِ ؛ وَسَاعَةً مَا انْقَضَى فِي إِشْبِيلِيَّةَ مَا انْقَضَى ، تَخَيَّرَ قِطْعَةً أَشْحَنَ فِيهَا جَمِيعَ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَخَائِرِهِ ، وَكَتَمَ أَمْرَهُ ، وَخَرَجَ بِاسْمِ أَنَّهُ نَاهَضٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ بِهَدِيَّةٍ لِيُهْدَنَ بِذَلِكَ أَهْلَ الْمَرِيَّةِ ؛ فَسَرُّوا بِفَعْلِهِ ، وَقَالُوا : « هَذَا هُوَ الصَّوَابُ ، قَبْلَ أَنْ يَحِلَّ بِكَ مَا حَلَّ بِغَيْرِكَ ! » حَتَّى تَوَسَّطَ الْبَحْرَ ، وَأَعْطَى لِلنَّوَاتِيَّةِ مَا لَا جَسِيماً ، وَأَخْبَرَهُمْ غَرَضَهُ . وَخَرَجَ بِالْجَزَائِرِ ، وَأَكْرَمَهُ صَاحِبُ الْقَلْعَةِ ، وَأَمَّنَهُ فِي ذَخَائِرِهِ ، وَأَكْرَمَ ضِيَاقَتَهُ ، وَخَيْرَهُ حَيْثُ يَحِبُّ السُّكْنَى ؛ فَاخْتَارَ تَدَلَّسَ ، لِأَنَّهَا عَلَى الْبَحْرِ ، وَلِيُغَيِّبَ عَنِ عَيْنِ السُّلْطَانِ ، خَوْفًا مِنَ الطَّلَبِ . وَانْخَمَلَ فِي ذَاتِهِ ، وَأَخَذَ لِنَفْسِهِ بِالْأَرْجَحِ فِي أَكْثَرِ أَخْوَالِهِ .

٧٩ - تَوَثُّرُ الْعِلَاقَاتِ بَيْنَ الْأَمِيرِ الْمُرَابِطِيِّ وَالْمُعْتَمِدِ

وَإِنَّ الْمُعْتَمِدَ بْنَ عَبَّادٍ ، لَمَّا بَصَرَ بِدُخُولِ الْأَمِيرِ غَرْنَاطَةَ ، وَأَسْتَنْجَزَ وَعْدَهُ ، فَلَمْ يُبَلِّغْتَهُ ، وَرَأَى ثِقَافَهَا بِالْمُرَابِطِيِّينَ وَإِخْرَاجَ مِنْ فِيهَا مِنَ الْحَشَمِ وَكُلِّ مَنْ طَمَعَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِ ، جَزَعَ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَخَافَ أَنْ يَثْنَى بِهِ ، إِذْ رَأَى الْأَمِيرُ مَذْهَبَهُ فِي الْبِلَادِ وَاسْتَصْرَاخَهُ . * وَلَمْ يُمْكِنَ لِلْأَمِيرِ أَنْ يَأْخُذَهُ بِغَيْرِ ذَنْبٍ : ٦٨ (ب) فَيَقْبَحُ ذِكْرَهُ . وَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمُرَابِطُونَ بِثِقَافِهِ ؛ فَأَبَى حَتَّى يُلَوِّحَ قَبْلَهُ ذَنْبٌ يُوْخَذُ بِهِ . مُنْذُ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ نَهَضَ وَاتَّبَعَهُ قَرُورٌ يَقُولُ لَهُ : « الْأَمِيرُ يَحْتَاجُ إِلَى تَذَكَّارِكَ بِبَعْضِ الْأَمْرِ ! » فَأَبَى ، وَمَضَى لَوَجْهَتِهِ ، فَارًّا بِنَفْسِهِ ؛ وَأَطْوَى الْمَرَاحِلَ ، حَتَّى وَصَلَ قُرْطُبَةَ . وَقَالَ فِي طَرِيقَةِ إِلَى ابْنِ الْأَفْطَسِ : « أَنْجُ

بِنَفْسِكَ ! قَدْ تَرَى مَا حَلَّ بِصَاحِبِ غَرْنَاطَةَ ، وَغَدَا بِنَا ! »
 ثُمَّ إِنَّهُ ، بَعْدَ أَنْ ظَهَرَ لِلْأَمِيرِ نُفُورُهُ ، وَجَّهَ إِلَيْهِ بِأَمْرِهِ بِالْقُدُومِ عَلَيْهِ ،
 وَيَقُولُ لَهُ : « نُرِيدُ الْاجْتِمَاعَ بِكَ فِيمَا نَحْنُ بِسَبِيلِهِ . » : لِيَقُولَ : « لَا ! »
 فَيَجِدَ السَّبِيلَ ، كَمَا فَعَلَ . فَرَاجَعَهُ ابْنُ عَبَّادَ : « إِنْ ذَلِكَ كَانَ وَقْتُ
 كُنْتَ صَيفًا ، وَتُرِيدُ الْقَرْوُ ؛ فَلَزِمْتَنِي مَعُونَتِكَ بِنَفْسِي وَجَمِيعِ أَمْوَالِي ! وَالْآنَ
 إِنَّمَا أَنْتَ لِي جَارٌ مِثْلُ بَادِيَسٍ وَحَفِيدِهِ ؛ وَأَنْتَ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى الشَّرِّ بِجُنُودِكَ !
 فَلَا يُمْكِنُنِي التَّغْرِيرُ بِنَفْسِي ، عَسَى أَنْكَ تُرِيدُ أَخَذَ بِلَدِي ، إِذْ لَا تَصِحُّ لَكَ
 غَرْنَاطَةُ إِلَّا بِمَا يُضَافُ إِلَيْهَا مِنَ الْأُنْدَلُسِ ! » فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَمِيرُ السُّلَيمِ أَنْ
 يَلْتَزِمَ الرِّبَاطَ ، وَيَقْطَعَ الْقَبَالَاتَ ؛ وَتَحْمَلًا كَثِيرًا عَلِيمًا أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ؛ وَفِي تَرْكِهِ
 ١٠ أَوْ فَعَلَهُ قَطْعُهُ . فَامْتَنَعَ ابْنُ عَبَّادَ جَهْدَهُ ، وَبَنَى عَلَى الشَّرِّ .

وَبَدَأَ [الْمُرَابِطُ] بِمُدَاخَلَةِ مَعَاقِلِهِ ؛ فَانْتَشَرَتْ ، كَمَا جَرَى لغيرها ؛ وَقَامَتْ
 عَلَيْهِ الرِّعَايَا بِكُلِّ قَطْرِ . فَأَرْسَلَ إِذْ ذَاكَ إِلَى الرَّوْمِيِّ ، يَسْتَغِيثُ بِهِ ؛ فَقَعَدَ عَنْهُ ،
 خَيفَةً مِنَ التَّغْرِيرِ ، وَهِيَ حُجَّةُ أَمِيرِ السُّلَيمِ عَلَى ابْنِ عَبَّادَ ، أَنْ قَالَ لَهُ :
 « ظَهَرْتُ بِكِتَابِكَ إِلَى الرَّوْمِيِّ وَإِرْسَالِكَ عَنْهُ ! » فَقَالَ الْمُتَعَمِّدُ : « لَوْ قَعَلْتُهُ
 ١٥ قَبْلَ أَنْ تُؤْخَذَ بِلَادِي بَطْرًا وَأَشْرًا ، كُنْتُ أَلَامًا ! وَأَمَّا بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ
 طَلَبِي فِي الرُّوحِ ، اضْطَرَرْتُ الضَّرُورَةَ إِلَى ذَلِكَ لِلْمُدَافَعَةِ ، وَلَوْ يَوْمًا وَاحِدًا ! »
 وَهِيَ كَانَتْ عِلَّةَ الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ هَلَكَ ابْنُ الْأَفْطَسِ ، وَمِنْهُ أُتِيَ .

٨٠ — الاسْتِيْلَاءُ عَلَى قُرْطُبَةَ وَإِشْبِيلَةَ وَتَقَى ابْنُ عَبَّادَ

فَلَمَّا تَبَيَّنَ لِلْأَمِيرِ خِلَافُهُ وَقُعُودُهُ عَنْهُ ، شَاوَرَ الْقُفَهَاءَ فِي أَمْرِهِ ؛ فَأَشَارُوا
 ٢٠ عَلَيْهِ بِغَزْوِهِ . فَكَانَ غَزْوُهُ بَعْدَ إِبْلَاءِ عُذْرٍ ؛ وَلِهَذَا مَا أُخِرَ ^(١) بِهِ لِيُنْهَكَ

(١) أصل : « ونحو » .

من هلك عن يَبْنَةٍ ولتكون له الحُجَّة على من يُريدُ إخراجَه . فأمرَ الأميرَ سِير* بالخروج إليه . ونَهَضَ ، ونَحْنُ بِمِكنَاسَةٍ . ونازلَهُ مُدَّةً طَوِيلَةً ؛ ٦٨ (ب) ومَعَاظِلُهُ قد ذهبَ أَكْثَرُهَا بالطاعة .

٥ . وافتتح الأميرُ بِخِلالِ هذا مَدِينَةِ قُرْطُبَةٍ ، واستَشْهَدَ فيها ابْنُهُ لِلأُمُونِ وزيراهُ ابْنُ زَيْدُونِ وابْنُ بَكْرٍ — رحمهم الله — بِمُدَاخَلَةٍ من أَهْلِ البَلَدِ ، مع انخراقِ للمدينة ، وأنه لم يَمَكُنْ ضَبْطُهَا إِلَّا بِأَهْلِهَا . وكان المَعْتَمِدُ حَذِرًا على قُرْطُبَةٍ ، يَرجو بقاءَ حاله بِثُبوتِها ، ويوصى ابْنَهُ بالصبر ، ويقول له : « لا تَجْزَع ! فالموتُ أَهْوَنُ من الدَّلِّ ! وَلَيْسَ السُّلْطَانُ إِلَّا من القَصْرِ إلى القَبْرِ ! »

١٠ . فَلَمَّا أَخَذَتْ قُرْطُبَةُ ، انقطعَ الرجاءُ . وضاقَتْ إِشْبِيلِيَّةٌ ؛ وفقد ما كان بيده من أَجْلِ النِّفقاتِ ، إلى أن دخلها الأميرُ سِيرَ عُنُوةً بِمُدَاخَلَةٍ من بَعْضِ أَهْلِهَا . وهلك فيها عَالَمٌ ، وانكشفَ الحَرَمُ ، إِذْ للجَيْشِ مَعْرَةٌ لا تُمَلِّكُ بَعْدَ صَبْرِهِمْ على مَلِكِهِمْ . وظهرَ لِسِيرٍ من اجتِهادِهِم فى القتالِ ما أَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، وقال : « لو أَنَّى أَقْصَدُ^(١) مَدِينَةَ الشُّرْكِ ، لم تَصْتَنِعَ هذا ١٥ الامْتِناعُ ! »

وكان دُخُولُهَا من نَاحِيَةِ الوادى ، وهو أَسهَلُ الأَمَكنِ . ولولا صَبْرُ أَهْلِهَا وَكَثْرَةُ أَقَارِبِ ابْنِ عِبَادٍ ، لم يَسْتَطِيعَ [المَعْتَمِدُ] على شَيْءٍ ؛ فَكَأَنَّهُ غُلِبَ بِالنِّفقاتِ الَّذِينَ كانتِ الأبوابُ بِأَيْدِيهِمْ ، وَوَكَلَهُمْ بِمَنْ سِوَاهُمْ ، إلى أن لم يَكُنْ مع القِضاءِ مَدْفَعٌ . وكان دُخُولُهَا يومَ الأَحدِ فى [٢٢] ٢٠ رَجَبِ [سنة ٤٨٤] ، فى النَّارِخِ الَّذِى دُخِلَتْ فِيهِ غَرَنَاطَةُ بَعْدَهَا بِعامِ كَامِلٍ .

(١) أصل : « نَقْصِدُ » .

وَدُخِلَتْ قَبْلَهَا قَرْمُوتَةٌ ؛ ومات فيها عالمٌ كثيرٌ . ثُمَّ التَوَى أَمْرُ
رُنْدَةٍ ؛ وَنَازَلَهَا قَرُورٌ ، إِلَى أَنْ ظَفَرَ بِالرَّاضِي ، وَخَدَعَهُ ، وَحَصَلَ عَلَى
أَمْوَالِهِ ؛ ثُمَّ قَتَلَهُ ، خَوْفًا مِنْ أَنْ تَفْتَضِحَ تِلْكَ الْأَمْوَالُ ؛ وَقِيلَ إِنَّ ذَلِكَ
لَمْ يَكُنْ عَنْ رَأْيِ السُّلْطَانِ . وَأَمَرَ بِقَتْلِ كُلِّ مَنْ ظَفَرَ بِهِ فِي رُنْدَةٍ
الْمَذْكُورَةِ مِنَ الْأَحْرَارِ وَالْجُنْدِ الْقَاتِلِينَ . وَقُتِلَ فِيهَا رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ يُعْرِفُ
بِأَبِي الصَّمْصَامِ ، جِرَاءَةً عَلَى اللَّهِ ، لِيَأْخُذَ بِنَفْسِهِ ؛ وَنَكَحَهَا مِنْ بَعْدِهِ ،
وَحَصَلَ عَلَى مَالِهِ . ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ ﴾ ^(١) . وَامْتَسَكَ بِالْعَبِيدِ ، وَصَيَّرَهُمْ
إِلَى السُّلْطَانِ .

وَلَمَّا ظَفَرَ بِابْنِ عَبَّادٍ ، فَأَيَّ الْأَمِيرِ سِيرُ خِدْمَتِهِ وَعَبِيدَتِهِ ، حَاشَى أُمَمَاتِ
الْأَوْلَادِ . وَأَمَرَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ بِإِرسالِهِ إِلَيْهِ . فَقَدِمَ إِلَيْنَا بِمَكْنَسَةٍ مَعَ دَخَلَتِهِ ؛
* وَبَقِيَ فِيهَا إِلَى أَنْ سَبَقَ مَعَنَا إِلَى آغَمَاتِ .

٦٩ (١)

٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراکش

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُسْلِمِينَ ، لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ لَهُ فِي هَذَا كُلِّهِ ، أَخَذَ فِي الْإِنْصِرَافِ
إِلَى مَرُوكُشٍ ؛ وَقَدْ بَلَغَ مِنْ آمَالِهِ غَايَتَهَا ، وَامْتَلَأَتْ يَدَاهُ بِالْأَمْوَالِ ؛ وَقَسَمَ
عَلَى أَجْنَادِهِ بَعْضُ مَنْ الْفَيْءِ ، وَأَهْدَى إِلَى الصَّحْرَاوِيِّ عَمَةً مِنْ تِلْكَ الدَّخَائِرِ .
وَأَمَرَنَا أَنْ نَسْتَوِطِنَ آغَمَاتٍ ؛ فَأَتَيْنَاهَا ، وَلَقِينَا مِنْ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ كُلِّ
جَبِيلٍ ، وَأَنْزَلَنَا بِدَارِهِ الصُّعْرَى فِي الْحَرِيمِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَتَقَدُّنَا مِنْ إِنْصَافِهِ ،
كَيْفَ مَا هَيَّا اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ ، وَوَجَدْنَاهُ بَعْدَ اللَّهِ أَرْفَقَ بَنَا ، وَأَحْسَنَ
مَذْهَبٍ فِينَا مِنَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَمِنْ كُلِّ مَنْ سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَّا إِحْسَانٌ .

(١) سورة هود : ١٢٣ = سورة النمل : ٩٣ .

٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس

صاحب بطلينوس ومهلكه

وَبَقِيَ ابْنُ الْأَفْطَسِ يَتَخَذُمُ أَمْرَهُ ؛ وَكَانَ يُدَارِي ابْنَ الْأَحْسَنِ ، وَيَنْفَعِلُ لَهُ فِي كُلِّ مَا أَرَادَ ، طَبْعًا مِنْهُ فِي الْبَقَاءِ لِحَيِّئِهِ ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُنْهَشُ ، وَيُرَى آيَاتُ تَدَلُّ عَلَى الشَّرِّ ، وَأَنَّ الْمَذْهَبَ فِي أَخْذِهِ . وَدَاخَلَ عَلَيْهِ ابْنُ الْأَحْسَنِ فِي بَلَدِهِ ؛ فَشَعَرَ بِذَلِكَ ، وَتَقَيَّظَ لَهُ ، وَاسْتَوْحَشَ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ ، وَدَاخَلَ الرُّومِيَّ ؛ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ الْمُطَالَبَةُ ؛ وَسُئِيَ عَلَيْهِ جَهْرًا ، بَعْدَ السَّغَى سِرًّا ؛ وَهُوَ ، فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، مِثْلُ السَّمَكَةِ الْعَاجِزَةِ الْمَوْصُوفَةِ فِي « كِتَابِ دِرْقَتَةَ » : لَمْ تَزَلْ فِي تَقَلُّبٍ وَتَرَدُّدٍ ، حَتَّى أَخَذَهَا الصَّيَّادُ ؛ وَهُوَ كَذَلِكَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّطَ : يُخَاطِبُ الْأَمِيرَ بِإِظْهَارِ الطَّاعَةِ وَالْمُشَارَكَةِ فِي أَمْرِ الرُّومِيِّ ، وَيُخَاطِبُ الْفُؤُنْشَ لِيَسْتَعِينَ بِهِ عَلَى مُلِمَّةٍ ، إِنْ دَهَتَهُ مِنَ الرُّبَاطِيِّينَ . وَكَانَ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ دَاهِيَةً بِالْأُمُورِ ، قَدْ أَشْرَبَ قَلْبُهُ الْحِذْرَ وَالْخَوْفَ ، وَقَدْ رَأَى طَرِيقَةَ ابْنِ الْأَحْسَنِ ، وَسَعِيَهِ عَلَى أَبِيهِ ؛ وَهُوَ رَجُلٌ سَجِلْمَاسِيٌّ قَفِيهٌ ، مُتَصَرِّفٌ فِي أُمُورِ الْأَمِيرِ ، اسْتَوْطَنَ بَطْلَيْنُوسَ ، وَاكْتَسَبَ فِيهَا مَالًا ؛ يَرَى أَنَّ كَوْنَهُ فِي الثَّغْرِ لِمَا يَنْفَعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ يَعْمَلُ فِي خَلْعِ صَاحِبِهَا .

وَكَانَ ابْنُ الْأَفْطَسِ الشَّيْخُ مُتَّبِعًا لِهَوَاهُ ؛ لَوْ سَأَلَهُ رُوحُهُ مَا لَا يَحِلُّ عَلَيْهِ ، [عَمَلٌ] بِهِ ، مُتَوَقِّعًا لَشَرِّهِ . وَكُلُّ شَيْءٍ يَحْذَرُهُ الْإِنْسَانُ وَيَكْرَهُهُ بَقْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ عَلَيْهِ بِالْخِيَارِ ، فَهُوَ مُتَوَرِّطٌ لَا تَحَالَةَ ، فِيهِ ؛ فَإِنَّ الْمُدَارَاةَ فِيهِ مِمَّا لَا تَنْفَعُ ، وَالِاسْتِمَالُ مُنْقَطِعٌ ؛ وَلَا خَيْرَ فِي مُجَاوَرَةِ عَدُوِّكَ عِنْدَ

* الحاجة إليه ، إلا أن تَدْرَى عند ذمِّ العاقبة معه أنك مُسْتَعْنٍ عنه بغيره ؛ ٦٩ (ب) وإلا ، فأنت له طُعمَةٌ .

فقال له ابنُه المنصورُ : « هذا التردّد لا يجزئُك ، ولا يغني عنك ما تُرى من إظهارِ الطاعة للمُرابط ! ولا طاعة أهلِ بلدِكَ لكَ ومحبّتهم التي كانوا يمرضون عليك ! فلو أنهم يَروُنَ بعضَ حقيقةٍ في عزيمةٍ ، كما أبقوا عليك ؛ كالذي رأيتَ صَنِيعَ بَغيرِكَ ! فإِما أن تُضَيِّقَ للمُرابطِ ، فلنَ تَبْلُغَ مِرْضاتِهِ إِلَّا بالانحلاع له ووَضْعَ البلدِ في يديه ؛ ونَقْنَعُ بأن تكونَ مُتَحَرِّياً ، مُتَخَلِّياً عن الرياسة ؛ فإِجْلُ ذلك ، تَجِدُ عنده الأمانَ ! وإن فَرَّتْ نَفْسُكَ عنه ، فلا تتأخَّرْ عن الفِرارِ منه بِنَفْسِكَ وأهلكَ وجميعِ أموالِكَ ! يجعلُك الرُّومِيُّ في أيِّ بلدٍ شئتَ ؛ ورُبُّما سَوَّغَهَا لك ، كما قَمَلَ بَابِن ذِي النُّونِ في بَلَنْسِيَّةٍ ؛ وَتَرَكُ مَدِينَةَ بَطْلِيُونَسَ ، لا تدخلُ على المسلمينِ داخلَةً ؛ فيحصلُ لك النجاةُ بِمُهْجَتِكَ ، وسلامةُ البلدِ للمسلمينِ ! » فقال له أبوه ، وَسَقَه رَأْيَهُ : « لا أتركُ مَوْضِعِي ! وعسى أن تُهَيِّئَ الأقدارُ ضِدَّ ما تَظُنُّ ! » فخرجَ عنها ابنُه ، وَجَمًّا بِمَالِهِ وأهلِهِ ، وأخذَ لنفسه بالرأى الذي أشارَ به على أبيه . وَبَقِيَ الشَّيْخَ لَحِيْنِهِ ، حتى نفذَ أمرُ الله فيه .

وإنَّ الأميرَ سِيرَ ، لَمَّا أَرَادَ من التخذُّمِ لأمرِ بَطْلِيُونَسَ والخيْلَةِ فيها ، لم يَثِقْ بنفسه في ذلك ، لحدوثِ ولايتهِ الأندلسَ ، ورأى أنَّ الداءَ لا يُعَانِي إِلَّا بدَوَانِهِ ، ولا يُلْقَى أَحَدٌ إِلَّا بِحَجَرِهِ ؛ فتخيَّرَ لملكِ ابنِ رَشِيْقٍ ، لأنَّه أُنْدَلُسِيٌّ ، عَالِمٌ بالمكايدِ في الفتونِ ، مع ما كان له عليه من الأيادي قَبْلُ في لَيْيَطٍ ، وأنَّ ثقافته ذلك الوقتَ لم يكن إِلَّا على رَغْمٍ منه بِمُضَادَّةٍ قَرُورِ

له . فانهز القُرْصَة فى إطلاقه ، والمُكَافَأَة له على صَنِيعِهِ بما يأمرُهُ من
أَمْرِ بَطْلَيْوُس .

وخطبَ السلطانَ فى أمره ، بعد أن أُطْنِبَ فى صِفَةِ حاجته إليه . فقبل
قَوْلَه ، وأمرَ بإرساله ، وألطفَ له القول ، واعتذر إليه بما جرى ، وأمر له
بمالٍ جسيم . ونَهَضَ ، بعد أن حَدَّ له الوقوف عندَ أوامرِ سِير ، وأنه
مُسْتَحْيِيهِ ؛ فضى . وفى الناس من انطلاقه* ما تعَجَّبوا منه وخطَّطوا القول ٧٠ (١)
فى ذلك ، كلٌّ أَحَدٍ على مِقْدَارِ عَمَلِهِ أو شَهْوَتِهِ .

فلما وصل ، تَخَدَّمَ أَمْرُ بَطْلَيْوُس بِكُلِّ وَجْهٍ من المَدْخَلَةِ لأهلِ البلد ومن
معه فى القَصْبَةِ من الحرس وغيرهم ، حتى وقع الاتفاق على أن يطرقها لَيْلاً ،
١٠ ويفتحون له [الباب] . فكان من ذلك ما حاولوه ، وتعلَّقوا بالسُّورِ عند
الإمارة التى كانت مع من دَاخِلَه . وَتَقَبَّضَ على الشَّيْخِ وابْنَيْهِ الْفَضْلِ
وَالْعَبَّاسِ ، واحتوى له على أموالٍ جسيمة . وأمرَ سِيرُ بإخراجه للقتل ،
بعد أن رأى فى نفسه هواناً عظيماً ، وشدَّةً على المال ، ونقم عليه ما كان
من عَمَلِهِ مع النصارى والمعاقل التى أعطاهم ؛ فأمرَ بَقْتْلِهِ مع ابْنَيْهِ الْفَضْلِ
١٥ والعباس — رحمهم الله — .

وطاعَ جميعُ ذلك الثَّغْرِ للرَّابِطِينَ ، كأنَّهُ لم يكن قطُّ لغيرهم . وفى
أَهْلِهِ وبناته ، وجميعُ ما تَرَكَه . ثم صار ابْنُهُ المنصورُ فى مُجَلَّةِ الرُّومِ ، حَقِيقاً
لما جرى على أيِّهِ ، يطلبُ الثَّارَ ، ويتطرقُ معهم بلادَ المسلمين .

٨٣ — نشاط المرابطين ضدّ النصارى .

استيلاء « السيد » لدريق على بلنسية

وصرف المرابطون وجوههم إلى فتنة الروم ومقاصاتها ، بعد إكمالهم
لأخذ سلاطين الأندلس ؛ يقولون : « إنّه لا ينبغي لنا قتالُ الروم ، وترك
وراءنا^(١) الأغداء ، يَمْنُ يُرَاسِي عَلَيْنَا مَتَهُمْ ! » فكلّها تهَيَّأتْ بلا مَشَقَّةٍ
غير إشيبيّة ؛ فوقع فيها بعض التغدُّر ، كما قدّمنا ذِكره . فسُبْحان المقدّر
الذي إذا أراد شيئاً أن يقول له : « كُنْ ! » فيكون . هذا نصٌّ ما كان
ولا نعلم ما يكون ، كما قال بعض الشعراء :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ الْيَوْمِ وَالْأَمْسِ قَبْلَهُ وَلَكِنِّي عَنْ عِلْمٍ مَا فِي غَدٍ عَمِ
ثم نشأ بعد ذلك من أمرِ بلنسية ما لم يذبلج بها ما يوصف ؛ فإنَّ
الحديث لا يَحْسُنُ ذِكره إِلَّا بَعْدَ تَقْضَى آخِرِهِ ؛ والقوسُ لا تُكَبَّدُ إِلَّا
بِقَبْضِ طَرَفَيْهَا ؛ فإذا استكمل الخبر ، طابَ إِرَادُهُ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ ، وَنُتِقَ
بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . ولو أننا ندعُ هذا التأليف إلى مُدَّةٍ يَتِمُّ فيها خبر بلنسية ،
لَأَتَيْنَا بِهِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ الظُّهْرُ لِلْمُسْلِمِينَ ، وَتُرِكَ* هذا الديوان مخروماً ، ٧٠ (ب)
انتظاراً لِمَا يَكُونُ فِيهِ أَمَلٌ بَعِيدٌ . ١٥

واستئنافُ تأريخِ له فصولٌ لا يُعْنَى ، لا سيما أننا أخذنا أنفسنا في
حَيْرٍ تَمَامِهِ بما يليق بالزمان ، ورُضْنَاهَا بما تستمرُّ عليه من ترك الشرِّ
والتَّزَهُدِ عَمَّا فَاتَ ، وإعمالِ قَطْعِ اليأسِ عَمَّا قِيلَ ؛ واليأسُ عَمَّا فَاتَ يُعَقِّبُ
رَاحَةً ؛ وَلَرُبَّ مُطْعَمَةٍ تَعُودُ دُرَاحًا .

(١) أصل : « وتتركوا وراءنا » .

فإذا كان ذلك كذلك ، فأول ما يجب أخذ أنفسنا به إخلاصُ النية
 لأمر المسلمين — أيدهُ الله ! — وتمنى الخير له ، لأنَّ صلاحَ المسلمين
 بصلاحه . ومن الديانة اعتقاد ذلك ، لما أمر به من طاعة الأئمة والنصح
 لكلِّ مسلم ، لا سيما أنه مُحسِنٌ إلينا . ثمَّ اقتصرنا على النظر فيما يخصُّنا
 وأنزلنا أنفسنا بمنزلة من لم يكن قطُّ إلا على هذه الحالة ، واعتبرنا بمن كان
 قبلنا ، ونظرنا لمن هو دوتنا .

٨٤ — تأملات في تقلب الأقدار

- وما حلَّ بابن الأفتس ، فشكرنا الله على ما نجانا منه ، وصرَّفنا وَجْهَ
 اهتبالنا إلى ما ننتفع به ، وغَلَبْنَا النفسَ الناطقةَ على الحيوانية ؛ فإنها
 ١٠ تحمل على الفضائل والإنصاف ، ومعرفة حقائق الأشياء ، كما أنَّ الحيوانية
 تحمل على الغلبة ، وإثارة الشهوات ، والحيدة عن سُبُلِ المعرفة .
 ورأينا أنَّ شغل البال بما مَضَى لا يَرُدُّ شيئاً غير الهمِّ والكرب اللذين
 يُنحلان الجسمَ ويذهبانِ اللَّبَّ ، وأنَّ الحرجَ على ما لا يكون تعبٌ للبدنِ
 ومشقةٌ للإنسان ؛ لأنَّ قولُ الفلاسفة : لا يُلتدُّ بما مَضَى ، ولا يُدْرَى
 ١٥ ما يكون فيما بَقِيَ ؛ وإنما له لذةُ ساعته التي هو فيها ، أو عمله الذي يجده
 لِمَعَادِهِ . فإنَّ أعقبَ الله بخير ، فلنَّ نَحْصِرَ ما سَلَفَ من أيامنا ، فنَهْرَمَ
 قَبْلَ أوانِ الهرمِ ؛ وإن كان الذى يأتى أشدَّ من هذا ، فيحقُّ اغْتِنَامُ
 ما نحنُ فيه ، ونُعَدُّها أعياداً ، ونُحَدِّثُ الله عملاً يَرْضاهُ ؛ وإن كُنَّا أبداً
 على هذه الرقية بلا انتقال (وغير متمكِّنٍ من ذلك) ؛ فتَوَطِّئُ النفسُ
 ٢٠ على ما يَعْلَمُ أنها عليه دائمةٌ ، أخرى وأرواحُ اللبال .

ثُمَّ إِنِّي اعْتَبَرْتُ جَمِيعَ مَا فِي الدُّنْيَا ، الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ ؛ فَوَجَدْتُ
 نَفْسِي مُبْلِغَةً مِنْهَا كُلَّ أَمَلٍ ؛ * وَإِنْ انْقَطَعَتْ ، فَلَمْ نَصَحْبِهَا ، وَنَحْنُ مِنْهَا ٧١ (١)
 عَلَى يَقِينٍ بِتَخْلِيدِهَا . بَلْ ، لِكُلِّ شَيْءٍ مُدَّةٌ ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَرْكِهَا .
 وَالخُرُوجُ مِنْهَا فِي مُدَّةِ الْعُمُرِ خَيْرٌ مِنْ مَيِّتَةٍ عَلَى فِتْنَةٍ أَوْ غَرَقٍ ، عَسَى
 بِذَلِكَ أَنْ يُعْظِمَ اللَّهُ الْأَجَرَ ، وَيُكَفِّرَ السَّيِّئَاتِ . وَيَكُونُ ذَلِكَ لِلْإِنْسَانِ زَاجِرًا
 عَنِ الْآثَامِ ، وَيَعْتَبِرُ فَقَدْ مَالَهُ كَأَنَّهُ لَمْ يَكْتَسِبْهُ بِرَزِيْقَةٍ نَفْسُهُ إِذْ حَانَ حَيْثُهَا ،
 فَيَقْدَمُ لَهَا النَّظَرَ ، بِتَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى ، قَبْلَ الْمَوْتِ وَحُلُولِ الْقَوْتِ . وَاللَّهُ
 الْمُسْتَعَانُ ! لَا شَرِيكَ لَهُ !

سُئِلَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — عَنْ عَلَامَةِ انْشِرَاحِ الْقَلْبِ لِلْإِسْلَامِ ؛
 ١٠ قَال : « هُوَ التَّجَافِي عَنْ دَارِ النُّرُورِ ، وَالْإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ
 بِالْمَوْتِ قَبْلَ لِقَاءِ الْقَوْتِ . »

الفصل الثاني عشر

تأملات أخيرة بعد النقي

٨٥ - المؤلف والشعر

- وإذ قد أتينا على وصف بعض الحادثات بالأندلس ، ورتبة دولتنا ،
وما انتهت إليه فيها أحكامنا ، حسب ساعدتنا عليه أذهاننا ، ونالتة
٥ مَقْدُرَتُنَا ، إلى انصرام الأمد ، فلنرجع الآن إلى ذكر بعض ما يتعلق
بذلك من شعير نظمناه وقت فراغ البال وجام النفس ، مع ما أعان على
ذلك من النظر إلى كلُّ مُسْتَحْسَنٍ ، والشُّرُورِ بطيب كلِّ خَبِيرٍ .
على أنني لم أنتحل قبل ، ولا كان من شأني الأخذ به ، إلا على
سبيل الاستطراف والإطناب في وصف شيء أريدُ نعتَه . فربما صنعتُ
١٠ في البيتِ أو البيتينِ أياماً ، أخضرُ لها ذهني ، وأحُدُ فِكْرِي ؛ فتصدع
بعد كَدٍّ ، وما أكادُ ، كالشيء المُسْتَغْرَبِ من غيرِ مَعْدِنِهِ . فيُنشِدُها
الكَتَبَةُ في مجالس الاحتفال للراحات ، تقطع بذلك الزمان عند الفراغ
من الشغل ، كالذي يأخذ به الملوكُ أنفُسَهُمْ في ساعات الدَّعة ؛ ونُصِيفُ
مَعَهَا لَمَعاً من آدابٍ وسيرٍ مُخَضَّرِي ، ممَّا يَخْتَلِجُ في الخاطر ويُجَرِّبُهَا الإنسانُ
١٥ بِصُحْبَةِ الزمان وتَنَقُّلِهِ في الحالات . وقيلَ لِرَجُلٍ : « من أين لك هذا
العلمُ ؟ » فقال : « قلباً عقولاً ، ولساناً سؤولاً ! »

٨٦ — استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره

وكلُّ شيءٍ إِنَّمَا يَنْطَبِعُ فِي النِّشْأَةِ وَحِينَ الْمَوْلِدِ . ولقد طالعتُ من مَوْلَدِي
أشياءَ مَيَّزَتْهَا مِنْ طِبَائِي وَأَخْلَاقِي ، عَلَى أَنَّ وَاضِعِيهِ الْقُوَّةُ وَتَحْنُ فِي حَالِ
الطفولية ، * لم يُوصَلْ إِذْ ذَاكَ إِلَى مَعْرِفَةِ شَيْءٍ مِنْ أَحْوَالِي . وَكَتَمَهُ ٧١ (ب)
عَنِّي سِمَاجَةً مُدَّةً ، حَتَّى وَقَعَ السَّفَرُ إِلَى يَدِي عَلَى غَيْرِ ظَنٍّ ؛ فَشَقَّ ذَلِكَ
عَلَيْهِ ، خَوْفًا عَلَى مِنَ الْعُجْبِ بِمَا كَانَ فِيهِ مَنْصُوصًا مِنَ السَّعَادَةِ . فَطَالَعْتُ
مِنْهُ عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ ، إِذْ كَانَ الْمَوْلِدُ رَضْدِي ؛ وَكَانَ الطَّالِعُ الْحَوْتَ
بِأَرْبَعِ دَرَجٍ ، وَصَاحِبُهُ الْمُشْتَرَى فِي الْحَادِي عَشَرَ مَعَ الزُّهْرَةِ ؛ وَسَقَطَتْ
الْشَّمْسُ فِي الدَّلْوِ مَعَ عُطَارِدٍ ؛ وَاتَّفَقَتِ النَّحْصَانِ فِي الثَّوْرِ بَيْتَ الْأَخُوَّةِ
وَالْقَرَابَةِ ؛ وَصَارَ الْقَمَرُ هَيْلَاجًا إِذْ كَانَ فِي السَّابِعِ مِنَ الْبُرُوجِ ، فَصَلَحَ ١٠
لِلذِّكْرِ لِأَجْلِ سُقُوطِ نَيِّرِ النَّوْبَةِ ؛ وَالزُّهْرَةُ كَذَخْدَاهُ ، دُلَّتْ بِمَكَانِهَا
— وَاللَّهُ أَعْلَمُ — عَلَى قَوْلِهِمْ ، عَلَى سِنِّيهِ الْوُسْطَى خَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ سَنَةً
يَزِيدُهَا الْمُشْتَرَى سِنِّيهِ الصُّغْرَى اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ؛ فَجَمِيعُ ذَلِكَ سَبْعَةٌ
وخمسونَ عَامًا . وَاللَّهُ بِغَيْبِهِ أَعْلَمُ !

١٥ وَتَكَلَّمَ (الطَّالِعُ) عَلَى أَرْبَابِ مُثَلَّثَاتِ النَّيِّرِ الدَّالَّةِ عَلَى تَقْسِيمِ
السَّعَادَةِ لِلْمَوْلِدِ ؛ فَكَانَ رَبُّ الْمُثَلَّثَةِ الْأُولَى زُحْلًا ، وَمَعَهُ الْمِرْيَخُ فِي
بَيْتِ غُرُوبِهِ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الثُّلُثَ الْأَوَّلَ فِيهِ بَعْضُ التَّقْدِيرِ وَالتَّنْغِيصِ
وَالْتَكْدِيرِ ؛ وَمِثْلُهُ الثُّلُثُ الثَّانِي الَّذِي لِعُطَارِدٍ ، إِذْ كَانَ فِي بَيْتِ الشَّقَاءِ
وَالْهُمُومِ ، مُحْشُورًا بَيْنَ النَّحْسَيْنِ ؛ فَدَلَّ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ وَأَشَدَّ ،
٢٠ كَالَّذِي تَبَيَّنَ الْآنَ ؛ وَالْقِسْمَةُ الثَّلَاثَةُ لِلْمُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي بَيْتِ الرَّجَاءِ

وَالسَّعَادَةِ ؛ فَدَلَّ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ كُلُّهُ ، وَأُطْنَبَ فِي وَصْفِ السَّعَادَةِ فِيهِ ، لَا أَدْرِي كَيْفَ هُوَ ، إِذْ هُوَ بَعِيدٌ فِي الْقِيَاسِ ، قَرِيبٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ .

ثُمَّ وَصَفَ خَبَرَ الْأَمْرَاضِ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْأَمْرَاضِ النَّفْسَانِيَّةِ مِنَ السَّوْدَاءِ وَحِدَثَانِ النَّفْسِ بِأَشْيَاءٍ مُخَوِّفَةٍ .

وَذَكَرَ خَبَرَ الْبَيْنِ ؛ فَقَالَ : بَحِثْ شَهِيدَ شَاهِدٍ ، يَكُونُ الْوَلَدُ ؛ وَشَهِيدَ آخَرَ بَأَنَّ لَا وَلَدَ . وَدَلَّ عَلَى الْقِلَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ كَوْنِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتَاهُ دَلِيلًا عَلَى قِلَّتِهِمْ ؛ وَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ فِي نِصْفِ الْعُمُرِ . فَظَهَرَ ذَلِكَ بِنَشَأَتِهِمُ الْآنَ .

١٠ وَذَكَرَ خَبَرَ الزَّهَادَةِ فِي الْحَرَامِ كُلِّهِ ؛ وَحَقَّ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ ، غَيْرَ أَنَّ الَّذِي يَتَهَيَّأُ فِي نَصْبَةِ الْمَوْلِدِ أَغْلَبُ عَلَى الطَّبْعِ ؛ ثُمَّ نَظَرَ فِي وَجْهِ التَّعَفُّفِ ، وَابْتَحَثَ عَلَى مَا أَوْجَبَ ذَلِكَ ، وَأَنَّ تِلْكَ الزَّهَادَةَ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ مَعَ سَلَامَةِ الْمُعْتَقَدِ ؛ فَإِنَّ الزُّهْرَةَ ، إِذْ كَانَتْ فِي أَحَدِ بَيْتِ زُحَلٍ ، ظَهَرَ عَلَى الْمَوْلُودِ قُبْحُ ذَلِكَ الشَّرِّ ؛ فَتَعَفَّفَ . وَقَالَ إِنَّ حِكْمَتَهُ فِي يَدَيْهِ أَكْثَرَ مِنْهَا فِي لِسَانِهِ .

وَرَأَى صَاحِبَ بَيْتِ الْعُرْسِ ، وَهُوَ عَطَارِدٌ ، فِي بَيْتِ زُحَلٍ ؛ فَدَلَّ عَلَى الْمَيْلِ إِلَى الصَّخَارِ ذَوِي الطَّبَائِعِ الْعَطَارِدِيَّةِ ، مَعَ مُنَافَرَةٍ لَا تُبِيحُهُ الشَّرِيعَةُ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ صَاحِبِ الْعُرْسِ وَصَاحِبِ الطَّالِعِ مُوَاصَلَةً وَلَا مُشَاكَلَةً .

٢٠ كُلُّ هَذَا قَدْ عَلَيْنَاهُ مِنْ أَنْفُسِنَا ، كَأَنَّهُ حَاضِرٌ مَعَنَا ، وَمُطْلَعٌ

علينا . فلم نَشْكُ في صِحَّتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ ، فَسُبْحَانَ مُصَرِّفِ الْأَيَّامِ وَمُجْرِى الْأَفْلاكِ !

(الْقَلْبُ مَا اسْتَدَارَ مِنَ الْأَشْيَاءِ ؛ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : « كُلُّ شَيْءٍ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُون » ^(١) . وَسَمَّاها سَمَاءً ؛ فَإِنَّ الْعَرَبَ تَدْعُو كُلَّ مَا ارْتَفَعَ سَمَاءً ؛ هِيَ ، لَارْتِفَاعِهَا عَلَيْنَا ، سَمَاءً ؛ وَهَيَّئْتُهَا : فَلَكٌ ، لَا سَمَاءً .)

٨٧ — أراء المؤلف في التنجيم

وَلَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، غَيْرَ أَنَّ أَهْلَ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا هِيَ دَلَالٌ عَلَى الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَلَا يُعْلَمُ بِهَا الْجَلِيَّةُ ، كَالْفَيْثِ الْمُنْزَلِ دَلِيلٌ عَلَى نَبَاتِ الزَّرْعِ بِهِ ، أَوْ كَالنَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ بِمَكَانٍ عَلِمَ أَنَّهَا تُحْرَقُ . وَيَحْتَجُّونَ بِحَدِيثِ الرَّسُولِ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — فِي قَوْلِهِ : أَقْبَلْتُ بِجَرِيَّةٍ ، فَتَشَامَتُ ، فَتَلَكَ عَيْنٌ غَدِيْقَةً . وَمُعَانَاةُ الْحَكِيمِ الْمَاهِرِ دَلِيلٌ عَلَى بُرْثِهِ ، يَرْجَى لَهُ ذَلِكَ إِنْ أَخَّرَتْهُ الْمُدَّةُ . وَجِئْتُ بِطَبِيبٍ عَالِمٍ إِلَى أَحَدِ الْعُظَمَاءِ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ ، فَلَمَّا شَكَا الْمَرِيضُ إِلَيْهِ ، قَالَ لَهُ الْحَكِيمُ : « قَدْ بَرِيتَ بِحَوْلِ اللَّهِ ! » فَلَمَّا أَعْلَمَهُ التَّرْجُمَانُ بِقَوْلِهِ ، قَالَ الْعَلِيلُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » ، فَأَجَابَهُ الْحَكِيمُ : « إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَدْ شَاءَ : لَمْ يَسْتَقْنِ إِلَيْكَ مِنْ أَرْضِ الْهِنْدِ إِلَّا وَقَدْ قَضَى بِصِحَّتِكَ ! »

وَقَدْ أَغْلَى ^(٢) أَهْلُ الْهِنْدِ فِي هَذَا الْعِلْمِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ اتَّخَذَهُ شَرْعًا ، حَتَّى

(١) سورة الأنبياء : ٢٣ = سورة يس : ٤٠ .

(٢) أصل : « اغلوا » .

إن فيهم من لا يؤلّي تملكتم إلا من شاكل طالع الدولة ؛
 وهم يزعمون أن طالع الملك ، إن لم يكن وتدا من أوتاد المملكة ،
 أو كان منها ثاني عشر أو سادساً ، وأمكنة الكواكب غير متفقة*
 (١) ٧٢ لك ، فإنه ينحسها ، ولو بلغ الجهد من الاحتياط عليها : إما تهلكه ،
 أو يهلكها ، ضرورة تسوقه الأقدار إليها . فكانوا يتخيرون الطوالع قبل
 اختيار العقول والمذاهب ، يرون أن القدر أغلب من الرأي ، ويقولون :
 « لك سعادة الدولة ومساعدة الأقدار هيأت لنا هذه الآراء لطول
 المدد . »

ثم إنهم يزعمون أن العمر الطبيعي مائة وعشرون عاماً ، وأن القواطع
 التي تكون قبله إنما هي من أحداث داخلية على الإنسان ، عرضية ،
 إما من فساد المزاج ؛ فخور الطبيعة ، إذ جعلوا الأربع طبائع التي في
 الإنسان قوامه كأركان البيت ، فتى فسدت منها طبيعة ، اعتل
 الجسم ؛ وإن تغيرت كلها ، مات . وجعلوها مشاكلة للأزمينة : فالدم
 ربيعي ، والبلغم شتوي ، والصفراء صيفية ، والسوداء خريفية ؛ فمن
 عالج كل زمان منها بضده من الأغذية والأدوية ، فقد أصاب . ولا
 ١٥ باقى مع الله !

و[لما] احتج عليهم بالذى يموت فجأة ، أو فى زحمة ، أو بأرق
 سبب ، وهو يظهر صحيح الجسم ، أضافوا إلى الطب من علم النجوم ،
 واتفق رأيهم أن لا فلسفة تتم حتى يجمعها ، وأن لا قوام لأحد العليين
 ٢٠ دون الآخر ؛ قالوا : إنما ذلك من الهياليج الساقطة ؛ فإن المولود ، إذا
 كانت هياليجه ساهرة ، صعب ارتباط نفسه بجسمه ؛ فلا تخرج إلا عن

مَشَقَّةٌ مع تمامِ المَدَّةِ التي تدُلُّ عليها الطَّيَّةُ . وإن كانت هَيَالِجُهُ ساقِطَةً كُلَّهَا ، عرض للموت بَارَقَ سببٌ . فإن لم يكن له هَيَلَاجٌ ، سَيَّرَتْ المَطْلَعِيَّةُ وَعُدَّ لها أعوامٌ ؛ ويكون القَطْعُ عند تمامِها ، وقد يكون في تَحَاوِيلِ السَّنِينَ ؛ وإن تَمَّ الطَّيَّةُ عند انتهاء صاحبِ حَدِّ الدَّرَجَةِ إلى موضعٍ نحسٍ ، قَطْعٌ أو شبه القَطْعِ ، إن لم تُسَاعِدْهُ النجومُ السعيدةُ .
وَسَمَوُهُ الجَانِّ بَخْتَانٍ ، وهو دليلُ الحياةِ بإذن الله .

- ومنها من رأى ذلك قوَّةً لنفسه* ، ورضيَ بما قسم له الباري* — عزَّ ٧٢ (ب) وجَلَّ — ؛ فلا ينقد على نفسه ، ويعيش طيب العيش ، يدري أن لا قاطعَ يقطع به في تلك المَدَّةِ ، وَيُسَجِّعُ لقول عليٍّ — رضى الله عنه —
١٠ لرجُلٍ قد أسَنَّ : « أَيْةُ شجاعةٍ قد فاتتكَ ! » يعنى : لو أنك قبل اليوم تدرى أن هذا يكون عُمرُكَ لم تُبالِ .
وأما أنا ، فأقول إنه تأنيسٌ ما لم تقرب المَدَّةُ ، وزيادةٌ في أَلَمِ المَنِيَّةِ إذا اقْتَرَبَتْ . ولا يكون الطَّبُّ إِلَّا لِيُصَحَّ البَدَنُ مُدَّةَ الحياةِ لكرهيةِ العيشِ في تكديرٍ . وأما لِدَفْعِ أَجَلٍ ، فلا ينفع شيءٌ .

٨٨ — آراء طَبَّيَّةٍ في الأغذية والنبيذ

١٥

قال بعض الحكماء : « الناس يعيشوا^(١) ليأْكُلُوا ، وَنَحْنُ نَأْكُلُ لِنَعِيشَ ! » فتأملْ معناه .
وجمع أحدُ الملوك أطباءَهُ ، فقال لهم : « أَعْلِمُونِي بالدواءِ الذي لا داءَ معه ! » فكَلَّمَهُم تكَلَّمَ على الأدويةِ والمُعَاناةِ بها ، غَيْرَ واحدٍ منهم كان

(١) كذا في الأصل .

أكبرهم سنًا ؛ فردَّ عليهم أن : « ليس عن هذا سألكم الأمير ! ولكنَّه يأذنُ لي في الكلام ؟ » قال : « قُلْ ! فَأَنْتُمْ مَعْدِنُ الْحِكْمَةِ وَالْفَلَسَفَةِ ! » فقال « أيُّها الأمير ! إنَّ الدَّواءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَكُونَ ، عِنْدَ أَخَذِكَ لِلْغَدَاءِ ، تَتْرُكُ مِنْهُ بَقْدَرٍ مَا تَتَمُّ بِهِ الشَّبْعَةُ ، وَلَوْ لُفِّمَتَيْنِ ، وَلَا تَتَمَلَّأُ ! فَذَاكَ دَوَاءٌ لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى طَيِّبٍ ! »

وَذَكَرَ هَذَا عَنِ الرَّشِيدِ ، إِنَّهُ قَدَّمَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَصْعَةً بِطَعَامٍ ؛ فَلَمَّا أَكَلَ قَالَ : « هَذَا غَدَاءٌ وَدَوَاءٌ ! فَا زِيدْ عَلَيْهِ كَانَ دَاءٌ ! » وَعَلَى أَنَّهُ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَصْلُ كُلِّ دَاءٍ الْبُرُودَةُ ، وَأَصْلُ كُلِّ دَوَاءٍ الْحَمِيَّةُ ! » وَقِيلَ : « أَقْلِلْ طَعَامًا ، تَحْمَدُ مِنْهَا ! » وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ : « إِنَّ الْكَثْرَةَ وَالْقَلَّةَ عَدُوَّ الطَّبِيعَةِ . »

قَدْ نَرَى^(١) فِي الْخَمْرِ مَا ، إِذَا اعتدل مزاجه منه بالكثير ، لم يجب أن يُقال له : « قَلِّلْ ! » وَلَا مِنْ شَارِبٍ وَاقَعَهُ الْقَلِيلُ ، أَنْ يُقال له : « ازْدَدْ ! » غَيْرَ أَنَّ الْعَاقِلَ يَرَى ذَلِكَ بِحُسْنِهِ ، وَيَعْلَمُ مَا لَمْ يُوَافِقْ طَبْعَهُ ؛ فَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ شَيْئًا .

وَسُئِلَ حَكِيمٌ عَنِ الْخَمْرِ ؛ فَأَعَابَهَا ، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ : « إِذَا أَخَذْتَ كَيْفَ يَنْتَبِغِي وَمَعَ مَنْ يَنْتَبِغِي ، فَلَا بَأْسَ بِهَا : تَفْرَحُ النَّفْسُ ، وَتَذْهَبُ بِالْهَمُومِ ، وَتَشْجَعُ ، وَتَحْمِلُ عَلَى الْفَضَائِلِ . وَالتَّزْيِيدُ مِنْهَا شَرٌّ كَثِيرٌ ، * كَمَا أَنَّ التَّقْلِيلَ مِنْهَا خَيْرٌ كَثِيرٌ ! »

(١) ٧٣

وشبهوا كثيرها في الأبدان مثل الترموس الذي إذا أكثر عليه بالماء
وطال مكثه ، استحال وذهب نوره .

وقيل فيها :

سَأَلْتُ الشَّيْخَ بُقْرَاطًا وَبُقْرَاطٌ لَهُ عَقْلُ
فَقَضَّلَ مَا لَهُ شِبْهُ وَطَبَّ مَا لَهُ مِثْلُ
قُلْتُ : اَلْخَمْرُ تَعْجِبُنِي ! قَال : كَثِيرُهَا قَلُّ !
قُلْتُ : كَمْ تَقْدَرُ لِي ! قَال ، وَقَوْلُهُ فَضْلُ :
وَجَدْتُ مِنْ طِبَائِعِ أَرْبَعَةٍ هِيَ الْأَصْلُ
فَأَرْبَعَةٌ لِأَرْبَعَةٍ لِكُلِّ طَبِيعَةٍ رِطْلُ

٥

١٠ هذا ما قاله الناس . ولا خير فيما لا تبيحه الشريعة . ولا بأس
بِعِلْمِ الشَّيْءِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى وَضْعِهِ ؛ وَبِفَضْلِ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِهِ لِمَنْ
ابْتَلِيَ بِهَا أَنْ يَأْخُذَهَا عَلَى حَقِّهَا .

وقالوا إنه مما يؤلّد فرح النفس الشرب بآنية الذهب وشمّ التّرجس ،
كما أن الشرب بآنية القزدير وشمّ البنفسج مما يؤلّد الحزن .

١٥ وقالوا إنّها من أكبر أدوية السوداء في تلك الساعة ؛ وتعقبُ سوداءُ

أشْرَ من الأولى إن أكثر منها . والعلة في ذلك أنه لا خير فيها إلا
مارق منها ، وحال عليها الحول ، وعطرت رائحته ، وهي حارة يابسة ،
ثمّ تستحيل إلى البرد عن شرب الماء للضرورة ، وتجد الرطوبة منها ،
كبديّة اللون ، غليظة الروثق ، مؤلدة للدم والنوم ؛ وهي الموافقة

٢٠ لزمان الشتاء . وليتخذ منها لكلّ زمان ما يوافق طبيعته ، ويخالف هواه .

ورأوا أنّ أخذها بعد الغداء بساعة ، ليتنام الإنسان قبلها ويروى

من الماء أَنْجَعُ لَهُ وَأَنْفَعُ . وكذلك الْجَمَاعُ أَنْفَعُ أَنْ يَكُونَ بَعْدَ سَكُونِ
الأعضاء وتودُّعِها بالنوم بعد الطعام ، في صبيحة تلك الليلة ، عند تملي
الأعضاء ، واحتياجها إلى إخراج الفضول ، ونشاطها . ولا يكون ذلك عن
*تَكَلُّفٍ ، حَتَّى تَمِيلَ الطَّبِيعَةُ إِلَيْهِ ، لَا سِيَّامَا إِنْ سَاعَدَتْهَا النَّفْسُ ؛ وَيُؤَافِقُ (ب) ٧٣
ذلك الشَّخْصُ هَوَاهَا ، إِذِ النَّفْسُ وَالْجِسْمُ شَكْلَانِ مُرْتَبِطَانِ : مَتَى اعْتَلَّ
أحدهما ، تَضَعُضَعُ الْآخَرُ ؛ وَمَتَى صَحَّ جَمِيعًا ، قَوِيَتْ اللَّتَّةُ وَتَكَامَلَتْ
الصَّحَّةُ . وَيَكُونُ ذَلِكَ أَسْرَعَ فِي الْبَاهِ ، كَمَا أَنَّ الْمَعِدَةَ مَتَى اشْتَهَتْ
شَيْئًا ، فَقَدْ ضَمِنَتْ هَضْمَهُ .

قال جَالِينُوسُ : « إِنَّ الْمَرِيضَ الَّذِي يَشْتَهِي أَرْجَى مِنْهُ لِلصَّحِيحِ
الَّذِي لَا يَشْتَهِي ! » أَلَا تَرَى أَنَّ الطَّيِّبَ الْمَاهِرَ ، إِذَا عَانِيَ الْعَلِيلَ ،
وَقَاسَ بَيْنَ دَوَائِيْنِ يَكُونُ نَجْعُهُمَا وَاحِدًا ، قَصَدَ إِلَى الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ النَّفْسَ
عَلَيْهِ أَقْبَلُ فِي حَالِ الصَّحَّةِ ؛ فَيَعْتَمِدُهُ . أَلَا تَرَى أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ
وَشَرَابَ السَّكَنْجَبِينَ فِعْلُهُمَا وَاحِدٌ ؛ غَيْرَ أَنَّ شَرَابَ السَّقَرَجَلِ أَلْيَقُ بِالنَّفْسِ ،
وَهِيَ إِلَيْهِ أَشْوَقُ ؛ فَيَرَى الْحَكِيمُ تَوَقَّاتَهُ إِلَيْهِ زَائِدًا عَلَى فِي السَّوَاءِ ، وَيَنْجَحُ
١٥ فِيهِ بِالشَّهْوَةِ .

وَلَمْ يَرَوْا لَشَرْبِ الْخَمْرِ عِنْدَ الْعَطَشِ شَيْئًا أَنْفَعَ مِنْ شَرْبِ الْمَاءِ ،
لِلتَّوَقَّانِ وَإِطْفَاءِ الْحَرَارَةِ وَقَمْعِ الْأَيْخِرَةِ .

وَلَيْسَتْغَمِلَ مِنَ الطَّعَامِ مَا خَفَّ ، وَلَوْ عَاوَدَهُ فِي النَّهَارِ مَرَّاتٍ ؛ فَهُوَ
أَسْرَعُ لَهُضْمِهِ ، وَأَشْهَى لِمَعِدَّتِهِ ، وَأَخَفَّ عَلَى جَوَارِحِهِ . قَالَ بَعْضُ
٢٠ الْحُكَمَاءِ : لِأَنَّ أَتَمَلَّأُ شَرَابًا أَحَبُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَمَلَّأُ طَعَامًا ! فَإِنْ
التَّخَمَّةُ ، إِنْ تَعَقَّدَتْ ، قَتَلَتْ ؛ وَإِنْ تَحَلَّلَتْ ، أَسْقَمَتْ . « قَالَ بَعْضُ

الفلاسفة : « خففوا هذه الأنفس من أوقار الشهوات ، لتصعدَ إلى عالمها الأَكْبَرِ ؛ فتأتيكم بمجائب ما هُنالك ! »

وقالوا في الشراب إنه يُسَلِّيُ الهموم . وأنا أقولُ إنها تَهَيِّجُ الهموم ، إنما هو ما نزل عليه : إن أَلْفَتَ سروراً ، حَرَّكَتْ منه ما سكن الإنسان عنه ؛ وإن أَلْفَتَ هُموماً ، ذَكَرَتْ بما هو فيه وأشدَّ منه ، وفَقَّتْ إلى طُرُقِ السوء . والهمُّ إنما يكون بما ينظر الإنسان من سوء ؛ فذاك الذي لا يُسْلِيهِ عنه شيء ، ولا يَأْتِيهِ منه نَاسٌ ؛ والنعْمُ إنما يكون بما مَضَى ؛ فربما سَلَتْ الخمرُ عن بعض ذلك . ولا شيء يُولِّدُ النومَ مثل النعمِ بتذكُّرِ ما خَلَفَ ، أو النَّظَرِ في كتاب لا ينبغي منه تعلُّماً أَكْثَرَ* من مطالعة ٧٤ (١) ما مَضَى . ١٠

ومن الجُهَالِ مَنْ يَتَقَدُّ أن العشاءَ قريبُ المنامِ يُولِّدُ الرقادَ من أجل التعلُّي ؛ وأنا أقولُ إنه يمنعه ؛ فإن الحرارة تصعد إلى الدماغ من الأبخرة وكلُّ حارٍّ مانعٌ للنوم ، كما أنَّ البَرْدَ في الدماغ مَوْلِدُهُ . ألا ترى أنَّ الأدمغةَ الباردةَ كثيرةُ النزلات من الرطوبات ، وتولِّدُ التسيان ؟ والسريعُ الحفظُ قد يكون في دماغه مَرَارَةٌ وَيُبُوسَةٌ ؟ وقلَّ ما تَرَاهُ يَنْزَلُ ، وإن كان ، فلا يدومُ ذلك به ؛ فإنها من فضلات الدماغ . وكذلك الجاحِظُ العَيْنَيْنِ يُعْرَضُ عن ذلك ، وَقَلَّمَا يَسْلَمُ من الأمراض والتعَرُّقِ . والغائرُ العَيْنَيْنِ عِنْدَهُمْ أَصَحُّ بَصَراً ، مع أنَّها من صفات الجمال ، إذا قالوا : « هو الغائرُ العَيْنَيْنِ ، الأَسِيلُ الخَلْدَيْنِ ، المُشْرِفُ الحَاجِبَيْنِ »

كذلك قَوْلِي ، وإنه لا يتمُّ لأحدٍ جلالٌ إن خَشِنَتْ أطرافه وامتلأت خَدَاهُ . وكانت العرب تمدح في الإنسان كِبَرَ رأسِهِ ، وتقول إنه علامةُ

الشُّؤْدُدُ . وَيَمْدَحُ الْفَلَامَ الْأَبْلَهَ الْمُقُولُ .

وقيل : الجمال في اللسان ، ما كان ناطقاً بالصواب ، ولا خيراً في
التَّهَوُّرَ والإِكْثَارِ بما لا يحتاج . ووَصَفَ بعضُ الشعراء رجلاً فيما رثى
به ؛ فقال :

لَقَدْ وَارَى الْمَقَابِرُ مِنْ شَرِيكِ كَثِيرٍ تَحَلَّمَ وَقَلِيلٍ عَابَ ٥
صَمُوتًا فِي الْمَجَالِسِ غَيْرَ عَمَى جَدِيرًا حِينَ يَنْطِقُ بِالصَّوَابِ

٨٩ - رجع الكلام إلى التنجيم

وَمَا وَصَفْنَاهُ مِنْ عِلْمِ التَّنْجِيمِ ، اخْتَجَجْتُ يَوْمًا بَعْضَ الْمُنْجِمِينَ أَنَّهُمْ
عَلَى غَيْرِ شَيْءٍ ؛ قَالَ : إِنْ كُنْتَ تَقْتَضِي بَأْتِنَا نَزْعُ أَنْ الْكَوَاكِبَ فَاعِلَةٌ
أَوْ يَعْلَمُ أَحَدُ الْغَيْبِ ، فَمُحَالٌ ذَلِكَ ، لَا يَدَّعِيهِ أَحَدٌ ، غَيْرَ أَنَّا قَوْلُ بِأَنَّهَا ١٠
مُصَرَّفَةٌ . أَلَسْتَ تَقُولُ فِي الشَّمْسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهَا ضِيَاءً ؟ فَكَذَلِكَ أَقُولُ
فِي النَّجْمِ السَّعِيدِ أَوْ النَّحِيسِ إِنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ لِلذَّكَاءِ ؛ ثُمَّ لَا يَعْلَمُ كَيْفِيَّةَ هَذِهِ
السَّعَادَةِ وَصُورَتِهَا غَيْرَ الْحَمَلَةِ ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَنْتَهِي مِنْهَا .

« وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ إِلَّا مُوَافِقٌ لِلشَّرَائِعِ إِذِ النَّصْبَةُ كُلُّهَا مَخْلُوقَةٌ مِنْ مُدَبِّرٍ
وَاحِدٍ ، لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ؛ فَتَى كَانَ فِي الْعَالَمِ دَوَلَّةٌ أَوْ مِلَّةٌ ، لَمْ تَدُلَّ النُّجُومُ
عَلَى غَيْرِهَا ، إِذِ الْحُكْمُ مِنْ لَدُنِ الْوَاحِدِ * . فَأَوَّلُ مَا نَبْتَدِئُكَ بِهِ أَنَّهُ ٧٤)
مَا مِنْ طَالِعِ الْقِرَانِ مِلَّةٌ وَمَوْلِدِ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ شَا كَلَّ ، وَاتَّفَقَتْ لَهُ مِنَ
السَّعَادَةِ فِي الْمِثْنَةِ مَا خَرَجَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ إِلَى الْفِعْلِ .

« وَأُخْرَى . أَلَيْسَ تَقُولُ الْيَهُودُ إِنَّهُمْ زُحَلِيُّونَ ؟ لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ !

٢٠ أَلَا تَرَى اتَّخَذَهُمُ السَّبْتُ عِيدًا ؛ وَهُوَ زُحَلٌ ، وَأَخْلَافُهُمْ كُلُّهَا مُطَابِقَةٌ لِمَا

يدلُّ عليه زُحَلُ من البُخْل ، والقَذَارَةُ ، والخُبِيثُ ، والمسكرُ ، والخديعة ؟
 ثمَّ الرُّومُ من بَعْدِهِمْ شَمْسِيُّونَ ، لا امْتِرَاءَ في ذلك ! أَلَا تَرَى أَنَّ يَوْمَ
 الأخْدِ جُعِلَ لَهُمْ عِيداً ، وهو يَوْمُ شَمْسِيٍّ ، وطبائعتهم موافقةٌ للشمس ،
 وصُورُهُم فيها : البَيَاضُ والحُمْرةُ والشَّقَرَةُ ، والرَّهْبَانِيَّةُ في عِبَادِهِمْ لِعَقْمِ
 الشمس ؟ ثمَّ المسلمون : أَلَيْسَ هُم زَهْرِيَّينَ ؟ والزَّهْرَةُ دَالَّةٌ على الدين ،
 والنظافة ، والمروءة ، والضوء ، والطهر من الجنابة ، وإباحة النكاح ، والإمام ،
 والطيب والزينة ؟ ثمَّ أَمَرْنَا بِاتِّخَاذِ الْجُمُعَةِ عِيداً ، وهو يوم الزَّهْرَةِ !

« ثُمَّ انْظُرْ إِلَى بَرْجِ الْفَلَكَ . تقولُ إِنَّ السَّابِعَ بَيْتُ الْمَرْسِ .
 وأكثر ما يَسْتَعْمِلُ النَّاسُ الْفَلَاحَ في شهر رَجَب ، وهو السابع من أشهر
 ١٠ العام الْمُرَوَّخِ به ، الذي أوَّلُهُ الْمُحَرَّمُ ؛ والثامن من البروج بَيْتُ الموت
 والموارِيثُ ، وشهرُ شَعْبَانَ الثامن من الأشهر الذي تُنْسَخُ فيه الآجال ؛
 والتاسع من البروج بَيْتُ الدين والسَّقَرِ ، وشهرُ رَمَضَانَ الْمُعْظَمِ ، تاسعُ
 أشهر العام . وجب فيه الصوم ومُحَافَظَةُ الشَّرْعِ ؛ والعاشر بَيْتُ الْمُلْكِ
 والسُّلْطَانِ . واتَّخِذَ الْعَاشِرُ مِنَ الْأَشْهُرِ عِيداً يَظْهَرُ فِيهِ بَهَاءُ الدِّينِ وَعِزُّهُ .
 ١٥ » وقد قال الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴾ ^(١) . وأَقْسَمَ
 ﴿ بِالْخُنُوسِ الْجَوَارِ الْكُنُوسِ ﴾ ^(٢) وهى الكواكبُ السَّيَّارَةُ . ويزعمون
 أَنَّ زُحْلَ هُوَ النِّجْمُ الثَّاقِبُ . لِأَنَّهُ يَفْتَقُ بِضَوْئِهِ سَبْعَ سَمَوَاتٍ . وَأَنَّهُ أَعْظَمُ
 مِنَ الْأَرْضِ سِتَّةً وَتِسْعُونَ مَرَّةً ؛ وَغَيْرُهُ مِنَ الْكَوَاكِبِ قَدْ وَصَفُوا قِسْمَتَهَا
 مِنَ الْعَظَمِ عَلَى الْأَرْضِ . غَيْرَ الْقَمَرِ وَعُطَارِدِ ، فَإِنَّهَا أَصْغَرُ مِنَ الْأَرْضِ . وَأَنَّ

(١) سورة البروج : ١ .

(٢) سورة التَّكْوِيْدِ : ١٥ - ١٦ .

الشمس أعظم من الدنيا مائة وثمانون ضعفاً . ولكل كوكب منها مدة*
يقطع فيها الفلك . وربته هيأها له بارئته — عز وجل — ؛ وإن العالم ٧٥ (١)
السفلى متعلق بالعلوى . مؤثر به بإذن ربه . «

ومنهم من قال : لأى شيء تُنسب إلينا الزندقة ؟ ولم تُفكر الخالق ؛
وإنما تكلمنا فى المخلوقات ؛ فيوصف كل مخلوق بما يدركه علم الإنسان .
كواصف رجل أو شجر أو جبل ! «

وذكر عن حكيم أنه رُئى بالمصحف عن يمينه . والأسطرلاب عن
شماله ؛ فسئل ما الذى أوجب جمعها لديه ؛ فقال : « أتلو فى المصحف
كلام الله . وأعتبر فى الأسطرلاب خلق الله ؛ وعلم الهيئته عبادة ! »
وإنه لما نص على هذه المقالة ؛ كان جوابي عنها : « كل ما تقول

يشبه يكون من موافقة أهل السنة بما احتججت به ؛ غير أنكم خالفتم
القرآن فى قولكم « يكون » و « لا يكون » ؛ والله يقول^(١) ﴿ قُلْ
لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ . ﴾ قالوا : « لَسْنَا
نقطع عن الأمر أنه يكون ؛ ولا نقول إلا أنه يدُلُّ . ونأتى بحجة إلا يتم
شرحها . اللهم ! إذ قلنا : هذا مولد سعيد ، هل نقدر على شرح تلك السعادة
والكائن فيها . ومِنَّا مَنْ يتحرى ، فيعدل ولا يتكلم على شيء . وقولنا هذا
كقول من رأى سحاباً قال : فيقول : « هذه تدُلُّ على الماء الكثير » . هل
قائل ذلك ملحد ؟ نعم الله يفعل ما يشاء .

وهذا أيضاً مما قدمنا ذكره صدر الكتاب أن كل مفتون ملقن
حجته ؛ والله يقول^(٢) : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ ؛ على أن الحق

عليه نورٌ لا يخبئ ؛ تقول العرب : « الحقُّ أبلج ، والباطل لَجَلج . » .
قال المؤمنون : « لم أَغْتَبِطْ بِأَيَّامِ السُّرُورِ مُذْ عَلِمْتَ التَّجِيمَ ، ولا اسْتَمَرَيْتُ
الطَّعَامَ مُذْ عَلِمْتُ الطُّبَّ ، ولا طَابَ لِي النُّومُ مُذْ عَلِمْتُ عِبَارَةَ الرُّوْيَا ! »

٩٠ - مسائل فَلَكِيَّة

٥. ويزعمون أَنَّ الليلَ ظِلُّ الأرض ، ولا ضياءٌ غير الشمس ؛ فإشراقها
على الأرض عند طلوعها ، كان النهار ؛ وبدخولها تحت الأرض ، رجع
الظِّلُّ طالماً ، فأظلمَ الليل .
وبعضهم من قرأ أَنَّ الشمس تجري ، لا مُسْتَقَرٌّ لها ، إذ يقولون إِنَّ
الشمس لا تَسْتَقِرُّ* بمكان ، إذ لا يصحُّ أَنْ يكون المكان إِلَّا أعظم من ٧٥ (ب)
الذي تحلُّ فيه ؛ ولا أعظم من الشمس إِلَّا الفلك ، والفلكُ دَوَّارٌ .
١٠. وقالوا في الكسوف إِنَّ الكلام فيه ما يمكن إِلَّا بالوقوف على صورة
الهيئة ، ولو لا ذلك ، لم يجد القول . وقد أثبت قوله بما ظهر من الكسوف
الذي حَدَّ أَمْرُهُ وَقْتَ انْجِلَالِهِ وَمَبْلَغِ الْمُنْكَسَفِ منه ؛ وإن الشمس في
ذاتها لا يعرضها شيءٌ غير أَنَّ جرم القمر يحول بينها وبين الأرض متى
قابلها ؛ وكُسُوف القمر من مُقَابَلَةِ الأرض .
١٥. وزعموا أَنَّ ضوء الكواكب والقمر من الشمس ، وَأَنَّهَا أَجْرَامٌ شَفَافَةٌ
تَكْتَسِي النُّورَ مِنَ النَّيِّرِ الْأَعْظَمِ ؛ فيبدو ضوءها بغييها ، ويطمس عليها
طلوعها . وهو قول الشاعر في ذلك :
لِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُمْ كَوَاكِبُ

٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطب

وقال أهل الطبيعة : إِنَّ لَا حَيَّوانَ إِلَّا بِالْحَرارةِ والرطوبة ، فَأَيْنَ مَا كَانَ
 المله والشمس تولد فيه الحَيَّوان ، وقد يكون من غير نسل . ونرى حَيَّوانًا
 يكون في جوف صَخْرَةٍ صَمَاءً مُكَمَّلَةً ؛ والله يخلق ما يشاء . قال تعالى ^(١) :
 ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ، عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا
 تَعْلَمُونَ ﴾ . وَذَكَرَ عن الْحَجاج أَنَّهُ رَأَى في المنام على حالَةٍ حَسَنَةٍ ؛
 فُسِّئِلَ عن ذلك ، على ما كان من جوره ؛ فقال : « رَجَّحَنِي رَبِّي بِكَلِمَةٍ
 قُلْتُهَا : مَرَزْتُ يَوْمًا على زرعٍ ؛ فَقُلْتُ : لو شاء الله ، لَأَنْبَتَهُ في النارِ
 وَالْيَمَاقِ ا » (أى في الصحارى التى لا ماء فيها) وقال تعالى ^(٢) : ﴿ وَيَخْلُقُ
 مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

ولم يبلغ الإنسان بعلمه أَكْثَرَ من معرفة الطبيعة : علاجٌ ضعيفٌ لا يرفع
 قدرًا أَكْثَرَ من تقويم المزاج عند انحرافه ؛ فعالجوا الأبدان بما أدركته ،
 عقولهم ، وجربوه بأعمارهم ، وتركوه سلفًا في الأواخر . فكلُّ يَمَانِي على
 مقدار تَجَرُّبَتِهِ ^(٣) ولا يوافقُ القِراءةَ حَظًّا حَسَنًا ومَعْرِفَةً بهذا الشأن ، هَدِ
 ١٥ أَخْطَأَ وَتَكَلَّفَ . * وقالوا إِنَّ الدَّواءَ المُسَهِّلَ للجسم بمنزلة الصابون للثوب : ٧٦ (١)
 يُنْقِيهِ ويحلقه ؛ فاستعماله في زمان الخريف أَوْلَى في سُلطان السَّوداءِ فيه ،
 كما أَنَّ استعمالَ القَصْدِ في زمان الربيع تخفيفٌ لا يحظى من أخرج فيه الدم .
 وَإِنَّ أَشْبَهَ شَيْءٍ الأَغْذيةَ بمزاج الإنسان : فَالْخُبْزُ النَّقِيُّ واللَّحْمُ النَّقِيُّ والشرابُ

(١) سورة الواقعة : ٦٠ - ٦١ . (٢) سورة النحل : ٨ .

(٣) بياض نحر كلمة في الأصل .

الْحَوَالِي؛ فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَى هَذِهِ دُونَ تَخْلِيْطِ لَمْ يَزَلْ صَحِيْحَ الْجِسْمِ ، قَوِيَّ الْبَنِيَّةِ .
وقيل لجالينوس الحكيم ، وكان في زمان المسيح — عليه السلام — :
« إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَ نَبِيًّا يَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ! » فقال : « وأنا
أُعَالِجُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ ! » فلما قيل : « يُخَيِّ الْمَوْتَى » لم يُصَدِّقْ
هـ ذلك حتى رآه مُعَايَنَةً حَقًّا .

٩٢ — تقض قول من ينكر أن الجن تتكلم

وَتُنْكِرُ الْحُكَمَاءُ مَا يَزْعِمُ النَّاسُ مِنْ رُؤْيَا الْجِنِّ ، وَتُكَذِّبُ مَنْ يَقُولُ
بِسَمَاعِ نُطْقِهِمْ أَوْ كَلَامِهِمْ عَلَى أَلْسِنَةِ الْبَشَرِ ، وَقَوْلُ إِنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا مِنْ لَه
لِسَانٍ وَآلَهُ تُعِينُهُ ، وَإِلَّا ، فَكَيْفَ تَنْطِقُ رِيحٌ تَهْبُ؟ إِنَّمَا هُوَ بِرِسَامٍ
١٠ يعرض في دماغ مَنْ يَدَّعِي ذَلِكَ ؛ فَيَتَصَوَّرُ فِي دِمَاغِهِ أَمْرًا مَا يَحْتَمِلُ لَهُ بَفْسَادُهُ
أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ وَيَسْمَعُ ، مَا لَيْسَ مِنْهُ شَيْءٌ عَلَى حَقِيقَةٍ ؛ فَيَهْدِي هَذَا نَاقًا ، ضَرَبًا
مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ ، مُفَكِّرًا فِي بَلَدِهِ أَوْ شَخْصٍ أَوْ صُورَةٍ
مِنَ الصُّوَرِ : إِذَا حَدَّثَتْهُ نَفْسُهُ بِهَا ، صَارَ كَالنَّاظِرِ إِلَيْهَا ، وَإِنْ سَدَّ عَيْنَيْهِ ،
أَوْ كَالنَّائِمِ يَرَى مَا تُحَدِّثُهُ بِهِ نَفْسُهُ ، أَوْ كَالنَّاظِرِ فِي الْمِرْآةِ يَرَى مَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ .
١٥ هذا ، لِعَمْرِى مَذْهَبٌ خُولِفَ بِهِ طَرِيقُ السُّنَّةِ . وَاللَّهُ يَقُولُ ^(١) : ﴿ قَالَ
عَفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ ﴾ وَقَوْلُهُ ^(٢) : ﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ ؛
وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَكُونُ النَّطْقُ إِلَّا بِلِسَانٍ ، وَلَا الْمَرْوِيَّةُ إِلَّا بِبَصَرٍ
لَيْسَ عَلَى خِلْفَةِ الْإِنْسِ ، كُلٌّ عَلَى جَبَلَةٍ ، يَرَى وَيَسْمَعُ وَيَعْقِلُ .
ولو لا ذلك لم تَدِنْ ، ولا سَبَّحَتْ ، ولا اهْتَدَتْ لِمَا يُسَرَّتْ لَهُ .

(٢) سورة الأعراف : ٢٧ .

(١) سورة النمل : ٢٩ .

إِنَّ الطَّيْرَ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا لَا تَعْقِلُ وَصَفَّاهَا اللَّهُ بِمَعْرِفَتِهِ ، قَالَ ^(١) : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ ؛ وَقَالَ تَعَالَى ^(٢) ﴿ وَإِنْ مِنْ مَنَى إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ . وَوَصَفَ بالسُّجُودِ النِّجْمَ * وَالشَّجَرِ وَالنُّوَابِ ^(٣) ۷۸ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا جَوَامِدُ . فَكَيْفَ أَحَدُ الثَّقَلَيْنِ الَّذِينَ بَشَّرَا بِالثَّوَابِ ، وَأَنْذَرَا بِالْعِقَابِ ، وَخُوطِبَا بِمَا خُوطِبَ بِهِ الْإِنْسُ . وَقَالَ تَعَالَى ^(٤) : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ﴾ .
فَمَنْ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ وَيَعْقِلُونَ ، فَلَا يُؤْمِنُ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَيَحْتَاجُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ هَذَا نَسَقًا فِي كُلِّ مَنْ لَيْسَ لَهُ لِسَانٌ وَجَوَارِحُ أَنَّهُ لَا يَتَكَلَّمُ بِجَوَارِحِ الْإِنْسَانِ ؛ فَالْمَلَائِكَةُ لَا تَوْصَفُ بِيَدٍ وَلَا لِسَانٍ ؛ وَهُمْ الْمَنْزُولُونَ بِالْوَحْيِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُخَاطَبُونَ لَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ : فَلَا يُؤْمِنُ بِالرِّسَالَةِ مَنْ يَتَمَذَّهَبُ بِهَذَا .

٩٣ - حديث عن السرقة وعن هوم الهوى والشباب

وَقَالُوا إِنَّ الْجَمَاعَ مِنْ أَكْبَرِ أَدْوِيَةِ السَّوْدَاءِ لِسُرُورِ تِلْكَ السَّاعَةِ ؛ وَدُخُولِ الْحَمَامِ ، لَمَّا يَمْرُضُ الْإِنْسَانُ مِنَ الْإِنْطِرَابِ فِيهِ . مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَقَرَّ عَيْنُهُ حَيَاتِهِ ، فَلْيَتَمَتَّعْ مَا وَجَدَ سَهْوَةً شَهْوَتِهِ ؛ وَمَنْ اغْتَنَمَ سَاعَةَ لَدَّتِهِ ؛ فَقَدْ عَنِمَ ؛ وَمَنْ أَخَّرَهَا ، فَقَدْ عَدِمَ ! فَإِنَّ الْإِنْسَانَ ابْنُ الْآنِ !
وَقَالُوا فِي الْجُلُوسِ عَلَى الْمِيَاهِ وَالرِّيَاحِينَ مِمَّا يُسَلِّي الْعَاشِقَ وَيَتَدَاوَى مِنْ أَحْزَانِهِ بِهِ . وَأَمَّا أَنَا ، فَأَقُولُ إِنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي تَذْكَارِهِ ؛ وَنَقِيمِ الْبُرْهَانِ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ النَّفْسَ لَا تَوَلِّعُ إِلَّا بِمَا اسْتَحْسَنَتْ ؛ فَكُلُّ مُسْتَحْسِنٍ تَرَاهُ

(١) سورة النور : ٤١ . (٢) سورة الإسراء : ٤٤ . (٣) سورة الأنعام : ١٣٠ .

يُخْرِجُهَا إِلَى ذِكْرِ الْأَسْنَى فِي خَاطِرِهَا ، وَكُلُّ حَدِيثٍ إِنَّمَا يَسُوقُهُ إِلَيْهِ ؛
وَكُلُّ مَا زِيدَ تَذْكَارًا زَادَ شَوْقًا ، فَأَعْقَبَهُ سَهْرًا وَقَلَقًا . وَالشَّيْءُ لَا يُمَاقِي
إِلَّا بِضَدِّهِ : فَكَيْفَ يَشْفِ بِحُسْنٍ وَيُسْلِيهِ حُسْنٌ ؟ بَلْ يُوقِظُهُ وَيَشْغَلُهُ !
أَلَا تَرَى أَنَّ الْمَكْرُوبَ يَتَفَرَّجُ بِالسُّرُورِ ، وَالسُّرُورَ ، يَضْمَعِلُ بِالْكَدْرِ ؟
٥ . وَلَيْسَ لِعَاشِقٍ مُرَزَّإٌ بِمَالٍ وَلَا أَهْلٌ ، فَيَتَسَلَّى بِمَا يُذْهِبُ غُومَهُ ؛ بَلْ
هُوَ مِنْ شَأْنِهِ فِي لَذَّةٍ حَلَاوَتِهَا مَشُوبَةٌ بِحَرَارَةٍ : وَهُوَ حُكْمُ الْحُلُوكَةِ فِي
الْمُدَاقَةِ ، لَا يَكُونُ إِلَّا مَائِلًا إِلَى الْحَرَارَةِ ؟ وَكَذَلِكَ فِي الْمُشْتَهَاتِ : كُلُّ
مَا تَمَّتْ حَرَارَتُهُ ، طَابَ رِيحُهُ .

- وإذا قاس حالَ أزمِنَتِهِ التي كانت تَسْرُهُ على ضروب من حالات
١٠ الصبوة ، لم يَجِدْ فِيهَا مَدَّةً كانت عنده أَفْضَلَ ، وَأَبْلَغَ فِي السُّرُورِ ، وَأَهْشَّ
لِلنَّفْسِ وَاللِّبْقِ * بِالْحِسِّ وَأَذْكَى لِلْقَلْبِ ، وَأَصْفَى مَشْرَبًا ، وَأَهْنَأَ طَعْمًا ، مِنْ ٧٧ (١)
تلك المَدَّةِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهَا بَعْضُ جَوْيٍّ ؛ فَإِنَّهُ « لَا بُدَّ بَعْدَ الشَّهِيدِ
مِنْ إِبْرِ النَّحْلِ » ، وَدَوَاؤُهُ ، مَا لَا يَرْضَاهُ ، وَلَا يَخْتَارُهُ بَدَلًا مِمَّا هُوَ
فِيهِ ؛ إِنْ يَشْغَلُهُ مِنْ ذَلِكَ خَطْبٌ كَبِيرٌ ، يَنْسَى بِهِ مَا كَانَ عَلَيْهِ ، وَالَّذِي
١٥ هُوَ بِسَبِيلِهِ عِنْدَهُ أَوَّلَى .

٩٤ — تأملات نظرية وأمثلة يضر بها المؤلف

من قصّة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا

- وَالصَّبْوَةُ تُحْدِثُ لِلإِنْسَانِ هَيْجَانًا وَهُمُومًا : كَالْمُهَمِّمِ بِالنَّظَرِ فِي مَالِهِ ،
أَوِ الْمُشْتَغَبِ بِمُحَاوَلَةِ مَا يُصْلِحُهُ ؛ فَلَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ ضَارًّا ، بَلْ يُوَلِّمُ مِنْهُ
٢٠ مُكَابَدَةَ الْأَعْدَاءِ وَمَقَاسَاةَ طَلَبِ الْعَيْشِ ، الَّذِي ، إِنْ فُتِرَ عَنْهُ شَيْءٌ ، لَا طَلَبَ

الزيادة في الرزق . فإن ذلك يسعى كالبطير الذي هو بالخيار في الكد والراحة .

- والنفس تَوَاقَّةٌ : متى سَمِعَتْ إلى مَرْتَبَةٍ ، تَأَقَّتْ إلى ما فوقها ؛ فالما قبل يَرَى أَنَّ كُلَّ كَيْدٍ وَطَلَبٍ دُونَ السَّعْيِ فِي طَلَبٍ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ قِيَامِ الْعَيْشِ فَخَرٌّ وَأَشْرٌ وَرَغْبَةٌ وَحِرْصٌ . ولذلك هو الإنسانُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ مَسْئُولٌ ، إِلَّا عَنْ ثَلَاثَةٍ : طَعَامٌ يَسُدُّ جَوْعَهُ ، وَثَوْبٌ يَسْتُرُ عَوْرَتَهُ ؛ وَبَيْتٌ يَكُنُّهُ مِنَ الشَّمْسِ . وَلَوْ أَنَّ لَهُ الدُّنْيَا أَجْمَعُ ، لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنْهَا زَائِدًا إِلَّا حُظُّ الْعَيْنِ الَّذِي يَسْتَوِي بِهِ فِيهِ مَعَ غَيْرِهِ مِنَ النَّاسِظِينَ ، فَسَلِمَ مِنْ تَعْبَاتِهِ ، وَتَوَرَّطَ هُوَ فِي حِسَابِهِ وَأُورَازِهِ ، وَمَا كَانَ إِلَى انْقِطَاعِ وَنَقَادٍ . فَحَقِيقٌ عَلَى اللَّيِّبِ أَنْ يَزْهَدَ فِيهِ ؛ لَوْ آلَتْ حَالُهُ إِلَى السَّلَامَةِ بَعْدَ ذَهَابِهِ ، لَا عَلَيْهِ وَلَا لَهُ ؛ فَكَيْفَ ، وَهُوَ قَدْ أُيْقِنَ بِالْفَنَاءِ وَبَعْدَهُ الْحِسَابُ وَالْجَنَّةُ أَوْ النَّارُ ؟ وَقَالَ الْمَسِيحُ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « الدُّنْيَا قَنْطَرَةٌ : فَاعْبُرُوهَا وَلَا تَعْمُرُوهَا ! » عَلَى أَنَّهُ لَا يُوجَدُ أَحَدٌ يَزْهَدُ فِي حَالٍ كُلِّ الزَّهَادَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ مِنْهُ أَمَلُهُ أَوْ بَعْضُهُ ؛ فَإِنَّ الزَّهَادَةَ الطَّبِيعِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ فِيمَا تَكْرَهُهُ النَّفْسُ ، وَلَا بُدَّ مِنْ مَيْلِهَا إِلَى مَا فِيهِ أَدْنَى سُرُورٍ . وَاللَّهُ يَقُولُ فِي الْإِنْسَانِ ، لَعَلِمِهِ بِهِ ^(١) : ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ ؛ فَكَأَنَّ الشَّيْءَ ، إِذَا أُدْرِكَ ، انصرفت عنه النفسُ لِبُلُوغِ نَهْمَتِهَا ؛ وَمَتَى تَمَنَّعَ عَلَيْهَا ، كَانَتْ بِهِ أَشَدَّ ۝ ۷۷ (ب) كَلَمًا .

- ولقد بَلَوْتُ مِنْ نَفْسِي بَعْضَ ذَلِكَ ، إِذَا الطَّمَعُ الْبَشَرِيُّ وَاحِدٌ ، لَا يَكَادُ يَخْتَلِفُ إِلَّا فِي الْأَقْلِ ؛ وَلِذَلِكَ أَمَرَ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجِبَ لِأَبْنَاءِ

جنسه ما يجب لنفسه ، خطأ على العدل والإنصاف .

وأجِدُنِي فِي كَثْرَةِ الْمَالِ ، بَعْدَ تَمَلُّكِ عَلَيْهِ مَعَ ذَهَابِهِ ، أَزْهَدَ مِنِّي فِيهِ قَبْلَ اكْتِسَابِهِ ، مَعَ سُقُوفِ الْحَالِ إِذْ ذَاكَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ الْآنَ .
وَكَذَلِكَ شَأْنِي كُلُّهُ فِي كُلِّ مَا أَدْرَكْتُهُ قَبْلُ مِنَ الْأَمْرِ وَالتَّهَيُّ ؛ وَاكْتِسَابِ الذِّخَائِرِ ، وَالتَّأْتِي فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَرَائِبِ وَالْمَبَانِي ، وَمَا شَاكَلَ مِنَ الْأَحْوَالِ الرَّفِيعَةِ الَّتِي نَشَأْنَا عَلَيْهَا ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَتَمَنَّاهُ النَّفْسُ ، وَمَا لَا تَطْنُهُ ، إِلَّا وَقَدْ بَلَغْنَا مِنْهُ الْغَايَةَ ، وَتَجَاوَزْنَا فِيهِ التَّهْيَاةَ ؛ وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْحَصُولِ عَلَيْهِ يَنْقَطِعُ وَيَذْهَبُ وَشَيْكَاً ، فَتَطُولُ عَلَيْهِ الْحَسْرَةُ ، وَيُعَدُّ مِنْ جَمَلَةِ الْأَحْلَامِ ! بَلْ ، تَمَادَى بَرَهَةً مِنْ عِشْرِينَ عَامًا ؛ وَمَا كَانَ قَبْلَهُ يَكَادُ أَنْ يُوَازِيَهُ ؛ إِذْ رُبُّنَا فِي حِجْرِهِ . ١٠

وَوَجَدْتُنِي ، بَعْدَ قَدْ هَذَا كُلُّهُ ، عَلَى الْوَلَدِ أَحْرَصَ مِنِّي عَلَى مَا سِوَاهُ مِنْ كُلِّ مَا وَصَفْنَا ، لَعَدِمِهِ ذَلِكَ الْوَقْتُ ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي : « الْغَايَةُ الَّتِي إِلَيْهَا يَسْعَى النَّاسُ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاهُمْ ، قَدْ أَدْرَكْنَاهَا ، وَشَهَرْنَا بِهَا فِي الْآفَاقِ ؛ وَلَا بُدَّ مِنْ قَعْدِهَا ، بَاكِراً كَانَ أَوْ مُؤَخَّراً ، بِحَيَاةٍ أَوْ مَوْتٍ ! فَنَحْسِبُ هَذِهِ الْعِشْرِينَ عَامًا هِيَ مِائَةُ عَامٍ ، إِذَا تَمَّتْ ؛ سَوَاءٌ ، وَكَانَ لَمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ ! وَنَحْنُ الْآنَ جُدْرَاهُ بِالنَّظَرِ فِيمَا تَبْتَغِيهِ . وَلِلَّهِ أَنْ يَقْضِيَ مَا شَاءَ ! »
وَقِيلَ لِرَجُلٍ حَرَاثٍ : « هَلْ زَرَعْتُمْ ؟ » قَالُوا : حَرَثْنَا . وَاللَّهُ الزَّارِعُ ! » وَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْمُزَارِعِينَ ؛ فَإِنَّهُمْ يَدْفَنُونَ فِي الْأَرْضِ أَقْوَانَهُمْ وَيَطْلُبُونَ فَضْلَ اللَّهِ وَبَرَكَتَهُ . ١٥

٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده

وكان تديرنا هذا إلهاماً لينفذ القدر ، بكون من نشأ لنا من الولد .
لم يتبع وقته ، ولا كان في غير مكانه .

(وذكر * الفلاسفة أن الوحي يتجزأ على ثلاث : كلام وإلهام ، ٧٨ (١))
ومنهم ؛ وهو قوله تعالى ^(١) : ﴿ وَأَوْحِي رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ . وقيل في قوله ^(٢)
- عز وجل - ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي ﴾ إنما كان وحي
إلهام . وكان النبي - عليه السلام - يقول في بعض أقسامه : « لا ا
ومقلب القلوب ! » فإنها بين يدي الرحمن يُقلبها كيف شاء لينفذ فيه
أحكامه وتجري عليها أقداره .)

١٠ فما بقي لنا من الآمال غير مالٍ خلالٍ للعاش ، يغني عن السؤال ،
وعملٍ صالحٍ للعاد ، يُنجي من العقاب ويوجب الثواب .
وقد كان مشراط الحكيم يكره الوطأ مدة عمره ، يعتقد بذلك أنه
مُهرمٌ للجسم ومُسرعٌ إلى الفناء ، قد قيل إن فاعل ذلك مُقتبسٌ من
حياته ؛ فن شاء ، فليقل ، ومن شاء فليكثر ! ولهذا أرجح الجاحظ
١٥ في « كتاب الحيوان » بأن الخصى إنما طال عمره من أنه لا يُجامع .

وأما أنا أقول إن تلك الساعة التي يستحيل فيها عن الإنسانية بقطعه
إلى ^(٣) أشد استِفراغاً ، وأذهب لجوهرية ، وأقطع لثروقه من
أن لو جامع كل يوم في عمره عشر مرّات ؛ لأنّ المُجامع مُخرجٌ

(٢) سورة القصص : ٧ .

(١) سورة النحل : ٦٨ .

(٣) بياض كلمة في الأصل ؛ ولعله : « الحيوانية » .

للفضول ، وهذا خُرْجٌ منه الجَوْهَرُ ، وفُرُغَتْ عروقه ، ولُبِثَتْ لحمه ، وأَضِيفَتْ عَصْبُهُ ، وأَرِخَتْ جِلْدَتُهُ .

ولَمَّا كَبِرَ سِنَّ سُقْرَاطَ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ الْكِبَرِ إِلَّا الْمَوْتُ ، جَامَعَ مَرَّةً مِنْ عُمْرِهِ ، آخِرَ زَمَانِهِ ، وتَأَوَّلَ فِي ذَلِكَ إِنَّمَالًا لِحِكْمَةِ الْبَارِي — عَزَّ وَجَلَّ — ؛ وَقَالَ : « لَمْ تَكُنْ حِكْمَةُ النِّسْلِ إِلَّا بِهَذَا الْفِعْلِ ؛ وَإِنْ أَنَا مُتُّ تَارِكًا لَهُ أَصْلًا ، كُنْتُ كَالسَّاحِطِ أَوِ الْمُعْنَتِ لِمَا رَتَبَهُ الرَّبُّ ، وَعَسَى بِذَلِكَ نَسْتَوْجِبُ عِقَابَهُ ! » ثُمَّ قَالَ ، إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ : « مَا أَظُنُّ عِيَا عَلَى إِلَّا مُجَامَعَةَ تِلْكَ السَّاعَةِ ! »

وكان من نعمة الله على إن رزقني بكرًا أولادى ابنةً ، لم يَزَلْ قَبِيلُنَا كُلُّهُ يَتَبَرَّكُ بِهَا ، وَيَكْرَهُ أَنْ يَكُونَ بِكْرُهُ ابْنًا ذَكَرًا . وقد رأينا في سَيِّفِ الدَّوْلَةِ أَيْبُنَا — رَحِمَهُ اللَّهُ — أَنْ لَمْ تَمْ لَهُ فَرَحُهُ بِذَلِكَ ؛ عَلَى أَنَّ هَذَا * لَيْسَ (ب) ٧٨ عَلَى الْعُمُومِ ؛ وَإِنَّمَا ذَكَرْنَاهُ لِلتَّضَاوُلِ ، إِذْ قَالَ نَبِيُّنَا — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « تَفَاءَلُوا وَلَا تَطَيَّرُوا ! » فَتَحَنُّ قَدْ تَفَاءَلْنَا ، لَا سِيَّامَا بِمَا شَهِرَ عِنْدَ أَهَالِينَا وَقَالُوهُ قَدِيمًا ؛ وَلَوْ كَانَ ضِدَّهُ ، مَا ذَكَرْنَاهُ ، لِلنَّهْيِ عَنْهُ .

١٥ ثُمَّ رَزَقْنَا بَعْدَ هَذَا ابْنَيْنِ ؛ فَلَمْ تُبَشِّرْ بِالْاِثْنَيْنِ ، كَتَّى لَا يَجْتَمِعَ عَلَيْنَا حَزَنُ ذَلِكَ مَعَ مَا نَحْنُ فِي سَبِيلِهِ ، لُطْفًا مِنَ الْوَهَّابِ وَإِنْعَامًا وَإِحْسَانًا . فَتَعَدَّادُ رِغْمِ اللَّهِ شُكْرًا لَهَا ، وَالْإِعْلَانُ عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ وَالتَّقْوَى ، لَا عَلَى الْفَخْرِ وَالْخِيَلَاءِ ، مِنْ أَوْجَبِ مَا يَأْخُذُ بِهِ الْإِنْسَانُ نَفْسَهُ . قَالَ النَّبِيُّ — عَلَيْهِ السَّلَامُ — : « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ ، وَلَا فَخْرُ ؛ وَأَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، وَلَا فَخْرُ ! » ٢٠

٩٦ — توجه المؤلف الحديث إلى قراءته ، راضين عنه أو ساخطين عليه

ثم انصرف وجهُ اهتِبَالِنَا إلى وَضْعِ هذا الكتاب ، وهو كَعَمْرِى بِمَنْزِلَةِ الابْنِ الذى يُبْنَى ذِكْرُ أبيه فى العالم ، لِنُبَيِّنَ به عن أَنْفُسِنَا مَا أَشْكَلَ عَلَى الجَاهِلِ من مَقَالَةٍ سَوِيَّةٍ [فى دَوَلَةٍ ،] زَعَمَ الحَاسِدُونَ أَنَّ مِنْهَا كَانَ سَقُوطُنَا .
ولن نَعْدِمَ مع هذا بَرَكَتَهَا لِمَا نَرْجُوهُ من ثَوَابِنَا ، وَحَسَنَاتِهِ لِبُعْدِنَا مِنْهَا وَنَزَاهَتِنَا عَنْهَا . وَإِنَّمَا وَضَعْنَا هذا الكتاب لِمَنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ الأَمْرُ مِنْ أَهْلِ الفضل والحق ، الْمُحِبِّينَ ^(١) لله فِينَا ، الوَادِّينَ ^(٢) الْخَيْرَ لَنَا ؛ وَلَا يَزِيدُ الْبُغَاةُ إِلَّا طَغْيَانًا وَتَعْنِيَةً .

١٠ فَرُدُّ عَلَى أَهْلِ الْإِنْصَافِ وَذَوَى الْأَلْبَابِ :
« إِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ! فَعَلَيْكُمْ اعْتِدَادُنَا ، وَإِنَّا كَمْ خَاطَبْنَا ، وَلَكُمْ مَا تَكَلَّفْنَا ! فَلَا عَمِيَّ بَكُمْ عَنِ الْمَعْرِفَةِ تَحِيدُكُمْ عَنِ الْمِنْهَاجِ ؛ وَلَا شَتَانٍ لِرَبِّهِ سَلَفَتْ تُحَرِّفُكُمْ إِلَى نَفْثَاتِ الْحَاقِدِينَ ! وَاللَّهُ يَجْعَلُنَا فِي الْجَنَّةِ إِخْوَانًا ، كَمَا جَعَلَنَا عَلَى الْخَيْرِ أَعْوَانًا ! »

١٥ وَرُدُّ عَلَى مَنْ اعْتَزَّ بِجَهْلٍ أَوْ حِقْدٍ :
« اخْشَأْ بِجَهْلِكَ ، وَمُتْ بِغَيْظِكَ ! فَلَيْسَتْ الْأَقْدَارُ جَارِيَةً عَلَى اخْتِيَارِكَ ، وَلَا أَنْتَ الْمُخَاطَبُ ! بَلْ تَأْخُذُ بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ — عَلَيْهِ السَّلَام — فِي قَوْلِهِ ^(٣) : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ

(٢) أصل : « الوادون » .

(١) أصل : « المحبون » .

(٣) سورة الأعراف : ١٩٩ .

الجاهِلين ﴿ . وهل تنقم ، أيها الطاعين لنا ، أن ورثنا مُلكاً عن آباء
 كرام ، يَوْمٌ منه خَيْرٌ من عُمرِكَ كُلِّهِ ؟ إِذْ قَالَتْ * الْعُلَمَاءُ إِنَّهُ من عاش (١) ٧٩
 ذا فَضْلٍ على نفسه وأصحابه ، فهو ، وإن قَصُرَ عُمرُهُ ، طويلُ العُمرِ ،
 مع أَنَّهُ كان في طاعةٍ لم تُوصَفْ مقدماً ، بحمد الله ، بجورٍ ولا طغيانٍ ،
 ولا سَفَكنا دَمًا ، ولا غَصَبنا مالاً . وكانت مَدَّتْنا فيه نحو من عشرين
 عاماً خَيْراً من سِنينَ ، إِذْ كَيْلَةُ القَدَرِ خَيْرٌ من أَلْفِ شهرٍ . وتَمَامُ المُلد
 على قديم الدَّهرِ عادةٌ لا تُسْتَعْرَبُ لنا خاصَّةً . ولا بُدَّ من الفراقِ ! فللهُ الحمدُ
 إِذْ لم نَفقدها بَقَدْرٍ عقولنا ولا أدياننا ، ولا تَمَّتْ بنفادِ أعمارنا : فيَوْمٌ من عُمرِ
 الإنسانِ يذكرُ الله فيه خَيْرٌ من تمامِ عَمَلِهِ ؛ وَمَنِيَّةٌ على بلاءٍ وتذكُّارِ
 خَيْرٌ من مَنِيَّةٍ على فِتْنَةٍ غَفَلَةٍ .

٩٧ - يدفع المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه
 من أخطاء حياته الخاصة .

ثُمَّ أَضْرَبْتُ عن وَصْفِ كُلِّ جَمِيلٍ فَعَلْنَاهُ ، وَحَزَمَ اسْتَشْعَرْنَاهُ ،
 وَخِدْمَةَ للدولة تكلفناها .

١٥ وَطَلَبْتُ بُنْيَاتَ الطريق ، وَتَتَبَعْتُ ما لا عارَ فيه على المَلِكِ . ولا تَهْصانَ
 في المَمْلَكَةِ ، من راحةٍ تُخْتَلَسُ عند الفراغ من الشغل كي تعقب نَشَاطًا ،
 وَعَمَّا دُفِعْنَا إِلَيْهِ تَسْلِيَةً . فقد قالت الحُكَماءُ : « تَرَكَ الذَّاتَ يُعْقِبُ
 البَرْدَةَ ، ويؤثِّرُ في الحِلْدِ أدْوَاءُ مُنْكَرَةٌ . وقيل : إِذا لم يكن للمرءِ
 على البقاء مَقْدَرَةٌ ، فَلْيَتَمَتَّعْ ؛ فَإِنْ تَرَكَ ذَلِكَ للنفس .
 ٢٠ فَهَجَّئْنَا بِلَفْظِكَ ، وأَخْرَجَتْها من حَيْرِ الهَزْلِ إلى الجَدِّ ، وَكُنْتَ كَجَارِ

سُبَّة : إِنْ رَأَى حَسَنَةً ، كَتَمَهَا ؛ وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً ، أَذَاعَهَا . فَطَفَّتْ
وَأَرْبَبَتْ إِنْ افْتَرَيْتَ ، وَمَا أَدَعَتْ هَذَا ، وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ أَكُنْ مَخْلُوعَ
الْعَذَارِ ، وَلَا أَخْذْتُ إِلَى رَاحَةٍ تَوْجِبُ الْغَفْلَةَ ، كَالَّذِي صَنَعَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا
مِنَ الْمُلُوكِ ، وَتَعَفَّفْنَا عَنِ الدِّمَاءِ وَالْأَمْوَالِ وَالْحُرِّ !

• وَلَمْ يَبْقَ لَكَ مَا تَقُولُ : « إِنْ مَا كَانَ صَاحِبُ غَرْطَاةٍ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِ
الْمَالِ ، مُحِبًّا فِي الْحِسَانِ ، يُنَادِمُ الصَّبِيَّانِ ! » [وَإِذَا] لَمْ تُحَسِّنِ الرُّوْيَةَ ،
وَلَا ظَنَنْتَهُ فِكْرًا .

- أَلَسْتَ تَعْلَمُ ، أَيُّهَا الْجَاهِلُ ، أَنَّ الْمَلِكَ لَا يَنْتَفِعُ مِنَ الْمَالِ إِلَّا بِمَا كَانَ
أَوْقَارًا ؟ وَهَلْ اسْتَوْجِبَ الْمَلِكُ إِلَّا بِذَلِكَ ؟ وَكَيْفَ لَا يَحْرُسُ عَلَى صِيَانَةِ
١٠ عِزِّهِ وَالْعُدَّةِ عَلَى عَدُوِّهِ ؟ مَا أَنْسَاكَ لَوْ عَلِمْتَ أَنَّهُ مَنَعَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ أُعْطِيَ
فِي غَيْرِهِ مَا يَجِبُ ؟ قَهْلُ مَتَى ضَاعَ مَعْقِلُ ، أَوْ رَفُضَ جُنْدًا ، وَدَخَلَتْ ٧٩ (ب)
دَاخِلَةٌ مِنَ النُّقْتِيرِ أَوْ لِلْنَّعِ ؟ أَوْ مَتَى شَكَرَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّهُ أَخَذَ مَالًا
بَغَيْرِ حَقِّ ؟ لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَى تَزْوِيرِ ذَلِكَ ! فَالْأَغْلَبُ يَعْلَمُ صِحَّتَهُ . وَأَكْثَرُ
مِنَ قَوْلِكَ مَتَى خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ شَاعِرٌ بِصِلَةٍ جَزَلَةٍ ، أَوْ مَتَى خَرَجَ [مَادِحٌ]
١٥ بِكِسْوَةٍ سَنِيَّةٍ : أَمْرٌ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى اعْتِذَارٍ ، إِذِ الْعَمَلُ بِهِ مِنَ الْأَذْبَارِ .
وَأَمَّا مُنَادِمَةُ الصَّبِيَّانِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ اسْتِعْمَالِ شَيْءٍ مِنَ الْخَمْرِ ،
الَّتِي قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْنَا مِنْهَا ، فَالِلْمُقَارِ وَالرِّيَّارِ ؟ لَيْسَ هَذَا تَجْلِسَ حُكْمٌ :
فَيُتَخَيَّرُ لَهُ ذَوُو الْأَسْنَانِ ، وَلَا يُضَيَّعُ لِتَدْيِيرِ رَأْيٍ ، فَيُشَاوَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعِلْمِ ،
وَلَا مَيْدَانُ حَرْبٍ ، فَيُدْعَى إِلَيْهِ أَنْجَادُ الْقُرْسَانِ ! وَلِكُلِّ وَقْتٍ حِكْمٌ :
٢٠ مِنْ اسْتِعْمَالٍ فِيهِ غَيْرُ شَاكِلَةٍ ، قَدْ جَهَلَ . وَلَمْ نَكُنْ مَعَ هَذَا نَأْخُذُ بِهِمْ
فِي جِدِّ ، وَلَا نُمَكِّنُهُمْ مِنْ أَمْرِ ، وَلَا نُنْهَضُهُمْ إِلَى غَيْرِ طَرِيقَتِهِمْ ؟

والمُسْتَعْمَلُونَ لخدمَةِ الدولة مشهورُونَ ؛ مِمَّنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَدَرَبَةٌ :
والخُدَيْمُ لَا يَكُونُ نَدِيمًا : كَيْفَ تَصُولُ الْيَوْمَ عَلَى مَنْ أَطْلَعَ عَلَى عَوْرَاتِكَ
الْبَارِحَةَ ، إِذِ الشُّكْرُ عَوْرَةٌ ؟ أَمْ كَيْفَ تَأْمُرُ بِخِدْمَةِ الْجُنْدِيَّةِ وَالشَّدَّةِ عَلَيْهِ
فِي الْخُرُوجِ مَنْ تَعَاطَى مَعَكَ الْكَأْسَ ، وَكَثُرَ مَعَكَ الْمَزَاحُ وَالْعَرَبْدَةُ ؟ ثُمَّ
تَطْلُبُهُ لخدمَتِكَ ، فَتَجِدُهُ عُسُولًا عَمَّا يَصْلُحُكَ مَشْغُولًا .

- وَبَغَيْرِ هَذَا كُلِّهِ ، فَإِنَّ الدُّوَلَ الْكِبَارَ لَمْ يَزَلْ فِيهَا الْفِلْمَانُ وَأَبْنَاءُ
الصَّنَائِعِ صِنَارًا وَكِبَارًا ، عَبِيدًا وَأَحْرَارًا ، وَهُمْ بَيْنَ يَدَيِ الرَّئِيسِ جَمَالٌ ،
وَعَلَى خِدْمَتِهِ أَغْوَانٌ ؛ وَبِتَصَرُّفِ الصَّغِيرِ السَّنِّ فِيمَا لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْنِ أَنْ
يَتَوَلَّاهُ . وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ وَرُسْبَتُهُ . وَهَلِ الْمُلْكُ وَالْمَالُ إِلَّا لِلتَّزْيِينِ وَالتَّجْمُلِ
بِهِ ، وَاتِّخَاذُ الْحِسَانِ مِنْهُمْ تَلِيقٌ بِهِمُ الْكِسْوَةُ السَّنِيَّةُ وَالْمَرَاكِبُ الْفَارِهَةُ ؟
وَأَخْوَاكَ مِنْ وَاتَاكَ ، إِذْ يَتَعَبَّدُ بِمَالِكَ مِنْ شَتَّى يَتَعَبَّدُ [خِدْمَتِكَ مِنْ]
حُرٍّ أَوْ مَمْلُوكٍ . وَإِنَّ ابْنَ الْإِنْسَانِ ، إِذَا لَمْ يَصْلُحْ لَهُ إِنْ يَقُلْ
هَذَا ، أَيْ عَمَلٍ وَلَيْنَاهُ عَلَى بِلْدَةٍ ، أَوْ صَرَفْنَا إِلَيْهِ حُكْمَ رَعِيَّةٍ ؟ إِلَّا
مَا وَصَفْنَاهُ ، لَا أَدْرِي غَيْرَهُ * وَإِلَّا فَتَكُونُ مُجْرِحًا ، وَإِلَّا شَارَتِكَ ٨٠ (١)
عَاضِدًا ، أَوْ تَكُونُ قَاضِيًا مُسْتَوْجِبًا (١) !

جَعَلَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ عَنِ الشَّرِّ مُعْرِضِينَ ، وَبَطَاعَتِهِ عَامِلِينَ ! إِنَّهُ أَكْرَمُ
الْأَكْرَمِينَ ! لَا رَبَّ غَيْرَهُ ، وَلَا إِلَهَ حَقٍّ حَاشَاهُ !

(١) وقع نهرم ومحو كثير في آخر صفحة من المخطوط المنقول عنه .

كل الكتاب . والحمد لله . وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً

الملحق الأول

مُتَخَبَات عَنْ « كِتَابِ الْبَيَانِ الْمَغْرِبِ »^(١)

لَاِبْنِ عِذَارِي الْمَرَاكُشِيِّ

عَنْ دَوْلَةِ الْأَمِيرِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُبْلَقِينَ بْنِ زِيرِي

(١)

٥ وفي سنة ٤٦٥ ، كانت وفاة باديس بن حبّوس على قول المرّادى .
والأكثرون على أنّ وفاته كانت ٤٦٩ ؛ هكذا ذكر ابن القطّان فى « نَظْمِ
الْجَمَانِ » .

ذِكْرُ رِيعَةِ حَفِيدِ بَادِيسَ بْنِ حَبَّوسَ

هو عبد الله بن مُبْلَقِينَ الهالك بتدبير اليهودى للتقدم ذكره . وتسمى
١٠ بِالْمُظَفَّرِ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . وكان غلاماً لم يبلغ الحلم ؛ فاتفق على
مبايعته ووزّراه جدّه ووجوه صنهاجة . وانفرد بأمره رجلٌ منهم يُعرف
بِسِمَاكِة ؛ فاستقلّ بحاله ورياسته . وكان لباديس ولدٌ خلف من البنين ،
وكان قد أعطاه فى حياته مدينة جَيَّان ؛ فكان ينهمك فى شرب من الخمر ،
ويحدث أحداثاً قبيحة من القتل ؛ وكانت له كلبة سمّاها لُبُونَةَ ؛ فمن أحدث
١٥ له حادثاً أو استوجب عقوبةً ، أمر به ، فرُمِيَ إلى الكلبة ، فأكلته .

(١) عن مخطوط مكتبة جامع الفرويين بفاس (رقم ١٨٥٥) لم ينشر نصه إلى الآن .

فتفرق الناس عنه وكرهوه ، وانتفقوا على تقديم عبد الله بن بُلقين المذكور .
فقام بأمره سِمْجَةُ خَيْر قِيَام .

وطمع ابن عباد في رجوع تلك الجهة إليه لموت باديس ؛ فحشد من
كان عنده ، واستكثر من الجند ، وقدم إلى إغَرَنَاطَة ؛ فبرز عليها وبنى
ه بقربها حصناً على ستة فراسخ منها ، وملأه بالرماة والرجالة ، وترك الخيل
فيه مع قائده ، وأمرهم بالضرب على إغَرَنَاطَة وجهاتها . فكان ذلك .
ثم لم يزل سِمْجَةُ يخدم الصبي إلى أن بلغ مبلغ الرجال ؛ فأراد الانفراد
بحاله ؛ فنفى عن نفسه سِمْجَةَ ؛ فلحق بالمرية بمال كثير وحالة جسيمة ؛
ولم يزل بها إلى أن هلك . وبقى عبد الله بن بُلقين بغرناطة . وسيأتي
١٠ خبره في دولة المرابطين إن شاء الله تعالى .

(٢)

وفي سنة ٤٨٢ ، طرد عبد الله بن بُلقين من غرناطة مُقاتِل بن عَطِيَّة
الزَّنَاتِي ، وكان فارس الإسلام ، وهو مع إخوته في ثلاثمائة فارس . فكان
ذلك ابتداء نحوس عبد الله بن بُلقين .

١٥ وفيها ، قام مؤمل ، مولى باديس بن حبوس ، في قصبة لوشة ، على
حفيد مولاه بدعوة لعتونة ؛ فأخذه عبد الله وسجنه .

.....

فأول من شهر الخلفاء على يوسف بن تاشفين صاحب إغَرَنَاطَة عبد الله
ابن بُلقين ، كما ذكرنا ؛ فظفر في اختزان الأقوات ، وألحق الرماة
٢٠ والرجال ، وأعلى الأبراج ، وبنى الأسوار ، ووصل بعضها ببعض ، وأقام

عليها الدِّيدَانَات ، ونصب الرِّعَادَات ، وملأ بيوت السلاح ، وجدَّ في ضرب
السَّهام ، وبذل في ذلك جهده ؛ وإذا نفدت هذه ، لم تكن المِدَّة ؛ وتقل
المال والذخيرة ، وخرَّج المتاع والآنية إلى قَصَبَةِ الْمَنَكَب لكونها في غاية
المنعة وعلى ضَفَّة البحر ؛ ولم يستأصل ذلك لكثرتِه ؛ وهدم حصونا ، توهم
٥ عليه القيام منها ، ومن مَأْمَنِهِ يوتى الحذر .

وعمد على مال كثير ، وثياب قبيسة ، وتُحَفٌ جليلة ، وأعلاق رفيعة ؛
فوجَّه بها إلى الإِذْفُونَش ، وكتب إليه متطارحا عليه ، مستجيرا به ، وأعلمه
أنَّ البلد بلدُه ، وأنَّه فيه فائدة . فاهتزَّ لذلك إِذْفُونَشُ ، وقبل المال
والهدايا ، وأقسم بجميع أيمانه ومعتقد مَأْمَنِهِ أن يشدَّ اليد عليه في ملكه ،
١٠ ولا يتركه لضمِّهِ ولا هضمِهِ ، وأن ينهض إليه بنفسه ويبذل جدَّه في نصره ؛
وراجعه بمثل ذلك من قوله . فتويت نفسُ حفيد باديس بذلك .

وفي ذلك يقول السَّمْسَارِيُّ :

صَاحِبُ غَرْنَاطَةِ سَفِيَّةٍ وَأَعْلَمُ النَّاسِ بِالْأُمُورِ
صَانِعُ إِذْفُونَشٍ وَالنَّصَارَى فَأَنْظَرُ إِلَى رَأْيِهِ الدِّيرِ
وَشَادَ بَنِيَانَهُ خِلَافًا لِعَاطَةِ اللَّهِ وَالْأَمِيرِ
يَبْنِي عَلَى نَفْسِهِ سَفَاهًا كَأَنَّهُ دُودَةُ الْحَرِيرِ
دَعَاؤُهُ يَبْنِي فَسَوْفَ يَدْرِي إِذَا أَتَتْ قُدْرَةُ الْقَدِيرِ

١٥

وَاتَّصَلَتْ أَنْبَاؤُهُ بِأَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَقِيقَتِهَا ؛ فَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ؛ وَاسْتَزَادَ

جزعه .

٢٠ وَكَانَ أَبُو جَعْفَرٍ الْقَلْبَيْعِيُّ مِنْ أَهْلِ إِغْرَنَاطَةِ فَرِيدَ عَصْرِهِ فِي الْخَيْرِ وَالْعِلْمِ

وَالْتَلَاةِ ، وَالْمُشَارِ إِلَيْهِ

الملحق الثاني

متنخبات عن « كتاب الإحاطة في تأريخ غرناطة »
للسان الدين ابن الخطيب السُّلمانيّ

(١)

ترجمة عبد الله بن مُبْلَقِين^(١)

٥ عبد الله بن مُبْلَقِين بن باديس بن حُبُوس بن ما كَسَن بن زِيْرِي بن
مَنَاد الصَّنْهَاجِيّ أمير غرناطة .

أَوَّلِيَّتُهُ : قد مرَّ ذلك في اسم جدّه ما فيه كفاية^(٢) .

حَالُهُ : لَقَبُهُ الْمُظْفَرُ بِاللَّهِ ، الناصر لدين الله . ولى بعد جدّه الحاجب

المظفر بالله في شوال سنة ٤٦٥ . وصحبه سِمَاجَةُ الصَّنْهَاجِيّ تسع سنين .

١٠ ﴿ قَالَ الْغَافِقِيُّ : ﴾ وكان قد حاز حظاً وافراً من البلاغة والعرفه ،

شاعراً جيّداً الشعر ، مطبوعه ، حسن الخط ؛ كانت بفرناطة ربعة مُصَحَّف
يُخَطُّهُ في نهاية الصنعة والإتقان .

﴿ وَوَصَفَهُ ابْنُ الصَّيْرَفِيِّ ؛ فَقَالَ : ﴾ كان جباناً ، مغمداً السيف ،

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ٢١٤ .

(٢) راجع « مركز الإحاطة » (ط القاهرة) ج ١ ، ص ٢٣٨ : ترجمة الأمير باديس بن

حبوس الصَّنْهَاجِيّ .

قلعاً ، لا يثبت على الظهر ، عِزْهَاءَ ، لا أَرْبَ له في النساء ، هَيَّابَةً ، مفرط الجزع ، يخلد إلى الراحة ، ويستوزر الأغمار .

خلعه : ﴿ قال : ﴾ وفي عام ٤٨٣ ، تحرك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين خلع رؤساء الأندلس ؛ فأجاز البحر ويَمُّ قُرْطُبَةٍ . وتواترت الأنباء على حفيد باديس صاحب غرناطة بما يفيظه ويحفظه ، حسباً تقدّم^(١) في اسم مؤمّل مَوَّلَى باديس . وقدّم إلى غرناطة أربع محلات ؛ فنزلت بمقربة منها ، ولم تمتدّ يده إلى شيء بوجّه ؛ فسرّ الناس واستبشروا ، وأمنت البادية ، وتسايل أهل الحاضرة إلى القرى . وأسرع حفيد باديس في المال ، وألحق السوق والحاقة ، واستكثر من الليف ، وألح بالكتب على إذفونش بما يطعمه .

ونحقّ يوسف بن تاشفين استشراف الحضرة إلى مقدّمه ؛ فتحرك . وفي ليلة الأحد ثلاث عشرة خلت من رجب ، اجتمع إلى حفيد باديس صَنَائمه ؛ فخوفوه من عاقبة التربّص ، وحملوه على الخروج إليه . فركب ، وركبت أمته ، وخرجا ؛ وتركا القصر على حاله ؛ ولقي أمير المسلمين على فرسخين من المدينة ، فترجّل وسأله العفو ؛ فعفا عنه ووقف عليه ، وأمره بالركوب ؛ فركب وأقبل حتى نزل بالمشيخة^(٢) من خارج الحضرة . واضطربت المحلات ، وأمر مؤملاً بثقاف القصر ، فتولّى ذلك . وخرج الجُمّ من أهل المدينة ؛ فبايعوا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ؛

(١) راجع أسفله ، ص ٢١٢ .

(٢) اسم مكان من خارج غرناطة لم نعرّ عليه . وإنما ثبتناه عن النسخة الثانية الاسكوريالية من « الإحاطة » . وفي النسخة الأولى : « بالمشانح » .

قبلهم وأنسهم وسكن جانبهم ؛ فاطمأنوا . وسهل مؤملاً إليه دخول الأعيان ؛ فأمر بكتب الصكوك ورفع أنواع القبالات والخراج ، إلا زكاة العين وصدقة الماشية وعشر الزرع . واستقصى ما كان بالقصر ؛ فظهر على ما يحول الناظر ، ويروع الخاطر ، من الأعلام والذخيرة والحلى ، ونفيس الجواهر ، وأحجار الياقوت ، وقصب الزمرد ، وآنية الذهب والفضة ، وأطباق البلور المحكم ، والجرجانيات ، والعراقيات ، والتياب الرقيقة ، والأنماط ، والكامل ، والستائر ، وأوطئة الديباج ، مما كان في ادخار باديس واكتسابه . وأقبلت دواب الظهر من المنكب بأحمال السيك والمسبوك . واختلفت أم عبد الله لاستخراج ما أودع بطن الأرض ، حتى لم يبق إلا الخرنج والنقل والسقط ، وزرع ذلك الأمير على قواده ، ولم يستأثر منه بشيء .

﴿ قال ﴾ : ورغب إليه مؤملاً في دخول القصر ؛ فركب إليه ، وكثر استحسانه إياه ، وأمر بحفظه وتقدير أوضاعه وأفنيته .

ونقل عبد الله إلى مراکش ، وسنه يوم خلع خمس وثلاثون سنة وسبعة أشهر ؛ فاستقر بها هو وأخوه تميم ؛ وحل اعتقالهما ، ورقته عنهما ؛ وأجروا المرتب والمساهمة عليهما . وأحسن عبد الله أداء الطاعة ، مع لين الكلمة ؛ فضيقت مآربه ، وأسعفت رغبته ، وخف على الدولة ؛ فاستراح واستريح معه . ورزق الولد في الخمول ؛ فعاش له ابنان وبنت جمع لهم للمال ، فلما توفى ترك لهم مالا جماً .

مولده : ولد عبد الله سنة ٤٤٧ .

(٢)

ترجمة مقاتل بن عطيّة (١)

مُقاتِل بن عطية البرزالي ، يكنى أبا حرب . قال فيه أبو القاسم الغافقي : من أهل غرناطة ، ويُلقَّب بذي الوزارتين ؛ وتعرف بالرؤية لحرّة كانت في وجهه .

حاله : كان من الفرسان الشجعان ، لا يصطلي نباره ؛ وكان معه من قومه نحو من ثلاثمائة فارس من بني برزّال . ولأه الأمير عبدالله بن بلقين ابن باديس مدينة اليُسّانة ، والتقى به ابن عبّاد وأخذ بمخنقتها . وكان عبدالله يحزره . وعندما تحقّق حركة المتمرّدين إليه ، صرفه عن جهته ؛ فقلّ لذلك قاصره ، وأسرع ذهاب أمره :

شجاعته : قال : وحضر مُقاتل مع عبدالله بن بلقين أمير غرناطة وقبيلة النّيبِل في صدر سنة ٤٧٨ ؛ فأبلى فيها بلاءً عظيماً ، وجرح وجهه وخرق درعه بالطعن والضرب . وذكر من حضرها ونجا منها ، قال : كنت قد سقط الرمح من يدي ولم أشعر ، وحلت الترس ولم أعلم به ، وحلني الله إلى طريق منجاة ، فركبتها مرّةً أقعُ ومرّةً أقوم ؛ فأدركتُ فارساً على فرس أدهم ، ورمحه على عاتقه ، ودرقته على فخذه ، ودرعه مهتكةً بالطعن ، وبه جرحٌ في وجهه يشبّ دماً تحت منغفره ، وهو مع ذلك ينهض على رسله ، فرجعتُ إلى نفسي ؛ فوجدتُ ثقلاً ؛ فتذكّرتُ الترس ؛ فأخرجتُ جماله عن عاتقي

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٨٨ .

وَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي ؛ فَوَجِدْتُ خَفَّةً وَعُدْتُ إِلَى الْعَدُوِّ ؛ فَصَاحَ ذَلِكَ الْفَارِسُ : خُذِ
 التَّرْسَ ! « قُلْتُ : « لَا حَاجَةَ لِي بِهِ ! » فَقَالَ : « خُذْهُ ! » فَتَرَكْتُهُ وَوَايْتُ
 مُسْرِعًا ؛ فَهَمَزَ فَرَسُهُ وَوَضَعَ سِنَانَ رِمَحِهِ بَيْنَ كَتِفَيَّ وَقَالَ : « خُذِ التَّرْسَ ،
 وَإِلَّا أَخْرَجْتُهُ بَيْنَ كَتِفَيْكَ فِي صَدْرِكَ ! » فَرَأَيْتُ الْمَوْتَ الَّذِي فَرَزْتُ مِنْهُ ،
 وَرَجَعْتُ إِلَى التَّرْسِ ؛ فَأَخَذْتُهُ ، وَأَنَا أَدْعُو عَلَيْهِ ، وَأَسْرَعْتُ عَدُوًّا . فَقَالَ
 لِي : « عَلَى مَا كُنْتَ فَلَيَكُنْ عَدُوُّكَ ! » فَاسْتَعِذْتُ وَقُلْتُ : « مَا بَشَهُ اللَّهُ
 إِلَّا هَلَاكِي ! » وَإِذَا قِطْعَةً مِنْ خَيْلِ الرُّومِ قَدْ بَصُرَتْ بِهِ ؛ فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ
 يَسْرِعُ الْجَرْمِي فَيَسْلُمُ وَأُقْتَلُ ، فَلَمَّا ضَاقَ الطَّلُقُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَقْرَبِهِمْ مِنْهُ ، عَطَفَ
 عَلَيْهِ كَالْعَقَابِ وَطَعَنَهُ وَوَطَرَهُ ، وَتَخَلَّصَ الرِّمَحُ مِنْهُ ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى آخِرٍ ، فَطَعَنَهُ
 وَمَالَ عَلَى الثَّلَاثِ ، فَانْهَزَمَ مِنْهُ ، فَرَجَعَ إِلَيَّ ، وَقَدْ هَبْتُ مِنْ فَعْلِهِ ، وَرَشَّاشُ
 دَمِ الْجَرْحِ يَتَطَايَرُ مِنْ قِنَاعِ الْمُنْفَرِ لَشِدَّةِ نَفْسِهِ ، وَقَالَ لِي : « يَا فَاعِلُ ! يَا صَانِعُ !
 أَتَلْقَى الرِّمَحَ ، وَمَعَكَ مُقَاتِلُ الرُّيْثَةِ ؟ »

(٣)

ترجمة مؤمل^(١)

مُؤْمَلٌ ، مَوْلَى بَادِيسَ بْنِ حَبُوسَ .
حَالُهُ وَحِجَّتُهُ : ﴿ قَالَ ابْنُ الصَّيْرَمِيِّ ﴾ وَقَدْ ذَكَرَ عَبْدَ اللَّهِ بْنُ بُلْقَيْنَ
 حَفِيدَ بَادِيسَ ، وَاسْتَشَارَتَهُ فِي أَمْرِهِ لَمَّا يَلْفَحُهُ حَرَكَةُ يَوْسُفَ بْنِ تَاشُفِينَ إِلَى
 خَلْعِهِ : وَكَانَ فِي الْجُلَّةِ مِنْ أَحْبَابِهِ رَجُلٌ مِنْ عِبِيدِ جَدِّهِ اسْمُهُ مُؤْمَلٌ ، وَلَهُ
 سَنٌ ، وَعِنْدَهُ دِهْلَاءٌ وَفِطْنَةٌ وَرَأْيٌ وَنَظَرٌ .

(١) مخطوطة الاسكوريال (رقم ١٦٧٣) ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

﴿ قال في موضع آخر ﴾ : ولم يكن في وزراء مملكته وأجباء دولته أصيلُ الرأي جَزَلُ الكلمة إلا ابن أبي خَيْثَمَة من كتبتَه ، ومؤمِّل من عبيد جدّه ، وجعفر من فتَيانَه .

﴿ رجع . قال ﴾ : فألطف له مؤمِّل في القول ، وأعلمه برفقي وحسن أدبٍ أن ذلك غير صواب . وأشار إليه بالخروج إلى أمير المسلمين ، إذا قَرُبَ ، والتطارُح عليه ؛ فإنه لا يمكنه مدافعتَه ولا يطاق حربُه ، والاستخذاء له أحد عاقبة وأيمنُ مغبة . وتابعه على ذلك نظراؤه من أهل السنِّ والحنكة ، ودافع في صدر رأيه الغلة الأعمار ؛ فاستشاط غيظًا على مؤمِّل ومن نحا نحوه ، وهمَّ بهم . فخرجوا ، وقد سبل بهم فرقًا منه . فلما جنَّهم الليلُ ، فرَّوا إلى كَوْشَة ، وبها من أبناء عبيد باديس قائدها ؛ فلكوها وثاروا فيها بدعوة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

وبادر مؤمِّل بخطاب يوسف المذكور ؛ وقد كان سفر إليه عن سلطانه ؛ فأعجبه عقلاً ونبلًا ؛ فاهتزَّ إليه ؛ وكان أقوى الأسباب على حركته . وبادر حفيد باديس لأمره ؛ فأشخص الجيش لنظر صهره ؛ فتغلب عليهم . وسبق مؤمِّل ومن كان معه شرَّ سوق في الحديد ، قد أركبوا على دوابٍ هجن ، وكُشفت رؤوسهم ؛ وأردف وراء كلِّ رجلٍ من يصفعه . وتقدَّم الأمر في نصب الجذوع وإحضار الرماة . ونلطفَ جعفر في أمرهم وقال للأمير عبد الله : « إن قتلتمهم الآن ، أطفأتَ غضبك وأذهبتَ مالك ! فاستخرج المال ، وأنت من وراء الانتقام ! » فتفقهم . وأطعموا في أنفسهم ريثما شغله الهول . وأنفذ يوسف بن تاشفين في حلِّ اعتقالهم ؛ فلم تسعه مخالفته . فأطلقهم . ولما ملك غرناطة على تفتية تلك الحال ، قدَّم مؤمِّلًا على

مُسْتَخْلَصَه ، وجعل بيده مفاتيح قصره ؛ فقال ما شاء من مال وحظوة ،
واقضى ما أراد من صاميتٍ وذخيرةٍ . ونُسبت إليه بغرناطة آثار ، منها
السَّقَاية بباب الفخَّارين ، والحوَر المروقة بحوَر مؤمِّل . أدركتها ،
وهي بحالها .

وفاته : ﴿ قال ابن الصِّيرَفِي ﴾ : وفي ربيع الأوَّل من هذا العام ، وهو عام ٤٩٢ ،
توفِّي بغرناطة مؤمِّل ، مَوْلَى باديس بن حَبُوس ، عبدُ أمير المسلمين وجابي
مُسْتَخْلَصَه . وكان له دهاءٌ وصبرٌ ؛ ولم يكن بقارىء ولا كاتبٍ ؛ رزقه الله عند
أمير المسلمين أيَّامَ حياته منزلةً لطيفةً ودرجةً رفيعةً . ولا أشرف على
النيَّة ، أحضر ما كان عنده من مال المُسْتَخْلَص ، وأشهد الحاضرين على
دفعه إلى من استوثقه على حمله ؛ ثمَّ أبرأ جميعَ عُمَّاله وكُتَّابه ، وأنفذ
رجالاً من صنائعه إلى أمير المسلمين بجملةٍ من مال نفسه ، يُريه أنَّ ذلك
جميع ما اكتسبه في دولته أيَّام خدمته ، وأنَّ بيت المال أولى به ؛ ورغب
في ستر أهله ووَلَدِه . فلما وصل ذلك إليه ، أظهر الأسف عليه ، وأمضى
تقديم صنيعته .

ثمَّ ذكر ما كشف البحث عنه من محتجته ، وشقاء مَنْ خلفه بسببه ،
وعدَّد مالاََ وذخيرةً .

فهرس أسماء الرجال

٧١ ، ٨٢ ، ٩٠ ، ١٠٧ ، ١١٧ ،
١١٨ ، ١٣٠ ، ١٦٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ،
٢١٠

ياديس بن المنصور (أمير إفريقية) ٢٤

ياديس بن وادي ١٤٦

باطر (بطره) شولش ٦٩ ، ٧٤

ابن البراء ١٣٧

يزلف (والي السوس) ١٦٣

بقراط ١٨٥

ابن بكر ١٧٠

أبو بكر بن مسكن ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،
١٥٧

بليار الصنهاجي ٨٧

بلقين بن ياديس سيف الدولة (والد عبد الله

المؤلف) ١٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٥ ،

٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

١٩٩

بلقين بن حبوس ٣٣ ، ٣٥

بلقين بن زاوي بن زيري ٢٤

- ث -

ابن ياقنوت ٩٦ ، ٩٧

تميم بن بلقين بن ياديس المعز (آخر عبد الله

المؤلف) ٤١ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٩٠ ،

٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ١٠٢ ،

١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٦ ،

١٦٢ ، ١٦٣

- ج -

الجاحظ ١٩٨

- ا -

أبو إبراهيم اليهودي (ابن نفالة) ٣٠ ،

٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ .

ولد أبي إبراهيم اليهودي ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ،

٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٦ ،

٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٦ ،

٨٨ ، ١٣٣ ، ٢٠٥ .

ابن الأحسن السجلماي ١٠٢ ، ١٧٢

ابن الأحمر ١٤٥

أبو الأحوص بن صاحح (صاحب المرية)

٤٤ ، ٤٥

أختا عبد الله المؤلف ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٤

الإذفوش ٢٠٧ ، ٢٠٩ . وانظر « ألفوش »

ابن أرقم ٥١ ، ٥٢

ابن الأصبحي ٩٧

ابن أنسحى للكاتب ٦٣ ، ٦٠

إفلاطون ٨

أبرهانش ١٢٣ ، ١٢٤

ألفوش السادس ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ،

٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ،

٨٤ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،

١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٢ ،

١١٣ ، ١٢٠ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ،

١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ،

١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،

- ب -

ياديس بن حبوس المظفر (جد عبد الله) ١١ ،

١٢ ، ١٣ ، ٣٧ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٦٨ ،

جالينوس ١٨٦ ، ١٩٣
 جعفر الخصى ١٥١ ، ٢١٣
 ابن أبي جوش ٨٦

- ح -

حبوب بن ماكسن (أمير فرناطة) ١٧ ،
 ١٩ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٦٧
 الحجاج ١٩٢
 ابن الحديدي ٧٧
 ابن الحسن النباهي (قاضي مالقة) ٦٤
 الحكم المستنصر بالله ١٥

- خ -

ابن الخياط المنجم ٧٨
 ابن أبي خيشمة ١٥٨ ، ٢١٣

- د -

داوود بن عائشة ١٠٣

- ذ -

ابن ذي النون ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٢ ، ٦٧ ،
 ٦٩ ، ٧١ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨

- ر -

الرازي (ابن المعتمد بن عباد) ١٠٣ ، ١٠٨ ،
 ١١٢ ، ١٧١

أبو الربيع بن الماطوف ٤٨ ، ١٣٠

أبو الربيع النصراني ٦٦ ، ٦٨

الرشيد (هارون) ١٨٤

الرشيد (ابن المعتمد بن عباد) ٨١

ابن رشيق ٨٠ ، ٨١ ، ١٠٨ ، ١١٠ ،
 ١١١ ، ١١٢ ، ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٢

١٤٤ ، ١٧٣ ، ١٧٤

الروى أو النصراني = ألفونش السادس
 الريه (لقب مقاتل بن عطية البرزالي) ٢١١ ،

٢١٢

ابن الريولة ٧٧ ، ٧٨

- ز -

زاوي بن زيري ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢ ،
 ٢٤ ، ٢٥

زاوي الصنهاجي ٨٧

زهير (صاحب المرية) ٣٤ ، ٣٥

ابن الزيتوني القروي ١٥٨

- س -

سراج الدولة ٨١

ابن سعدون ١٤٩ ، ١٥٥

ابن السقاء ٤٥

سقراط ٨ ، ١٩٨ ، ١٩٩

ابن سلمون ١١٧

سماجة الصنهاجي ٧٦ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ،

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٥ ، ٩٦ ،

١٤١ ، ١٧٩ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨

السمساري ٢٠٧

ابن سهل (القاضي) ١١٥ ، ١١٨ ، ١٤٦

السيد لدريق ١٧٥

سير (الأمير المرابطي) ١١٠ ، ١٦٠ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٧٤

سيف الدولة = بلقين بن باديس ولده عبد الله

ابن سيق ١٣٢

- ش -

شغلان ٧٣

- ص -

الصحراري (أبو بكر م يوسف بن تاشفين)

١٧١

-ق-

القادر (حفيد ابن ذى الثون) ٧٧ ، ٨٠ ،
 ١٥٣ ، ١٧٣ .
 ولد القاضي (صاحب باغه) ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦
 قروور ١١٠ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١٤٨ ، ١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ،
 ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ،
 ١٧١ ، ١٧٣
 ابن القطان ٢٠٥
 ابن القليحي أبو جعفر ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ،
 ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٠٧

-ك-

كباب بن تميم ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٥ ،
 ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠٠

-ل-

ليبب الخصى ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ،
 ١٥١
 للة الخادم ١٥٨
 ابن أبي لولا ١٣١

-م-

ابن ماشاء الله ١٤٧
 ماكسن بن باديس بن حبوس ٤٠ ، ٤٨ ،
 ٤٩ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
 ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ٧٦ ، ٩٤ ،
 ٢٠٥ ، ٢٠٦
 المأمون بن المعتمد ١٧٠
 المتوكل بن الأفطس ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٦
 مجاهد (صاحب دائية) ٤٤ ، ٤٥

ابن صباح = أبو الأحوص والمعتمد صاحب
 المريّة .

أبو الصمصام ١٧١

ابن الصيرفي ٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٤

-ع-

عباد (المعتضد بن عباد) ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ،
 ٥٩

عباد بن المعتمد ٧١

العباس بن المتوكل بن الأفطس ١٧٤

أبو العباس الحكيم ١٣٢

أبو العباس (كاتب حبوس) ٢٧ ، ٢٨ ،
 ٣٠

ولد أبو العباس ٣٠ ، ٣١

ولد عباس (كاتب زهير) ٣٤ ، ٣٥

عبد الله بن القروي ٣٦ ، ٣٨ ، ٣٩ ،
 ٤٠ ، ٤٢ ، ٥٩

عبد الملك (القاضي) ١٠٢

أم العلور (بنت عم ماكسن) ٦٧ ، ٦٨

علي بن أبي طالب ١٨٣

علي بن القروي ٣٣ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
 ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٢

ابن عمار ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٥ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ،
 ٩٦

عمر بن عبد العزيز ١١

-غ-

الغافقي (أبو القاسم) ٢٠٨ ، ٢١١

-ف-

فرقان ٢٨ ، ٣٢

الفضل بن المتوكل بن الأفطس ١٧٤

ولد مجاهد ٦٢ ، ٧٨

مخلوف بن ملول ٥٨

المرادى ٢٠٥

المرتضى ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٥

ابن مرتين ٧١

ابن المرة ١٣٠ ، ١٣٢

المتعين بن هود ٧٨

مسكن بن حبوس المقرالى ٥٣ ، ٥٥ ، ٦٠ ،

٦٢ ، ٦١

المظفر (جد عداقه) = باديس بن حبوس -

المحتمم بن صالح (صاحب المرية) ٤٥ ،

٤٦ ، ٤٩ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

١٠٤ ، ١٠٩ ، ١١٣ ، ١٤٤ ، ١٦٤ ،

١٦٧ ، ١٦٥

المعتد = حباد .

المعتد بن حباد ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٥ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٩١ ،

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ ،

١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،

١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ،

١٣١ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ،

١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ،

١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٠٦

معد بن يعلى ١٢٩

المعز بن باديس (أمير إفريقية) ٢٤ ، ٢٥ ،

٤٣

المعز = تميم بن بلقين بن باديس -

معز الدولة بن المحتمم بن صالح ١٦٧

مقاتل بن حطية البرزالي ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

مقاتل بن يحيى ٤٧

المقتدر بن هود ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ،

ابن ملحان ٧١

منذر بن هود ٧٩

المنصور بن أبي عامر ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،

المنصور بن أبي عامر (صاحب الأندلس)

٤٤ ، ٤٥

المنصور بن المتوكل بن الأفلح ١٧٢ ،

١٧٣ ، ١٧٤

المؤمن بن هود ٧٨ ، ٧٩

موسى ٨

موفق (صاحب المدينة) ٣٧

مؤمل ١١٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،

١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،

١٥٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٢ ،

٢١٣ ، ٢١٤

ابن ميمون (أمين يهود اليسانة) ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٣٢

- ن -

الناية ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٥ ، ٧٠ ، ٧٣ ، ١٣٣

نعمان ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٤ ، ١٤٨ ،

- ه -

هشام المؤيد ١٥

- و -

واصل الطنج ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ،

والدة المؤلف ٩٤ ، ٩٥ ، ١٥٥ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٢١٠

- ع -

يحيى بن يفران ٥٣ ، ٥٧ ، ٥٨ ،

يدير بن حباشة بن ماكسن ٢٧ ، ٢٨ ،

٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ،

أبن يعيش ٦٤

ابن يكون ١٤٥

يوسف بن تاشفين أمير المسلمين ١٠٢ ، ١٠٣ ،

۲۱۹

۱۷۶ ۷ ۱۷۴ ۷ ۱۷۲ — ۱۴۳ ۷ ۱۳۸

۲۱۳ ۷ ۲۱۲ ۷ ۲۱۰ ۷ ۲۰۹ ۷ ۲۰۶

۲۱۴

۱۴۷ ۷ ۱۴۱ ۷ ۱۴۰ ۷ ۱۳۸ یوسف بن حجاج

۱۰۸ ۷ ۱۰۷ ۷ ۱۰۶ ۷ ۱۰۵ ۷ ۱۰۴

۱۱۴ ۷ ۱۱۳ ۷ ۱۱۲ ۷ ۱۱۱ ۷ ۱۱۰

۱۲۰ ۷ ۱۱۹ ۷ ۱۱۸ ۷ ۱۱۷ ۷ ۱۱۵

۱۲۹ ۷ ۱۲۸ ۷ ۱۲۷ ۷ ۱۲۲ ۷ ۱۲۱

فهرس أسماء الأمم والقبائل والعائلات

صهاجة ١٨ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ،	الإفنج ٤٤ ، ٤٥ ، ٨١
٢٨ ، ٣٠ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٥٢ ، ٥٤ ،	البربر ١٦ ، ١٨ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٧ ،	٦٤ ، ٩٣ ، ١٥٠
٨٥ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ، ٢٠٥ ،	بنو برزال ٦٢ ، ٦٣
بنو عباد ٤٧ ، ٧٩ ، ١٦٤	بنو تاقناوت ٩٧ ، ٩٨
بنو اللوارنكي ٧٧	تلكاتة ٢٤ ، ٥٧ ، ٨٧ ، ١٤٦
لمتونة ٢٠٦	بنو حمود ٤٤
المرابطون ٤٥ ، ٨١ ، ١٠١ ، ١٠٢ ،	الروم أو التصاري ١٥ ، ١٦ ، ٧٠ ،
١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢١ ، ١٢٢ ،	٧٣ ، ٧٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٩ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،	١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٨ ،
١٣٩ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٦٠ ،	١٢٩ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٢ ،
١٦٨ ، ١٧٥	١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢١٢
المغاربة ٦٠ ، ٦١ ، ١١٩ ، ١٥٠ ،	زناقة ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،
بنو مغيث ٧٧	١٣٧
اليهود ٣٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،	بنو زيري ١٢٨

فهرس الأعلام الجغرافية

١٦٠٤ ١٥٢٤ ١٠٨٤ ١٠٤٤	أرجوننة (Archidona) ٩٥٤ ٩١
جلرون (Jotrón) ٩٤٤ ٩٢	إسطة (Estepe) ٧٥
جليقية (Galice) ٧٢	إشبيلية (Seville) ١٠٣٤ ١٠٢٤ ٧٥
جيان (Jaén) ١٩٤ ٥٥٤ ٥٣٤ ٦٠٤	١٧٥٤ ١٧٠٤ ١٦٨٤ ١٢٨٤ ١٠٥
٦١٤ ٦٣٤ ٧٦٤ ٩٤٤ ٢٠٥	أشتير ٩١
حارث ٩٤	حصن آشر (Iznajar) ١٩
الحمرء (Alhambra) بقرناطة ٥٤٤ ١٣٠٤	إقرناطة = قرناطة
الحمة (Alhama) ٩١	آغمات ١٧١
حور مؤل (بقرناطة) ٢١٤	إلبيرة (Elvira) ١٨٤ ١٩٤ ٢٠٤
دانية (Denia) ٧٧٤ ٧٨٤ ٧٩٤	٢٢٤ ٢١
الرملة (La Rambla) بقرناطة ٣٢	أنقيرة (Antequera) ٩٥
رندة (Ronda) ١٧١	أبرش ٩٢
ريه ٩١	باب الفخارين (بقرناطة) ٢١٣
ريئة ٩٤٤ ٩٢	باب فستالة (بمالقة) ٩٢
الزاوية (La Zubia) ٢٢	باغه (Priggo) ٦٩٤ ٦٦٤ ٦٤٤ ٤٤٤
الزلاقة (Sagrajas) ١٠٦٤ ١٠٥٤ ١٠٤٤	بسطة (Baza) ٧١٤ ٥٧
سبنة (Ceuta) ١٠٢٤ ١٠٣٤ ١٢٩٤	بطلوس (Badajoz) ٤٠٤ ١٠٤٤ ١٠٥٤
١٤٥٤ ١٤٦٤ ١٦٠٤	١١٣٤ ١١٤٤ ١١٥٤ ١٧٢٤ ١٧٣٤
سرقسطة (Saragossa) ٧٨٤ ٨٠٤ ٨١٤ ١٢٢٤	١٧٤
السطح (عمل) ٢٢٤ ٢٢	بلنسية (Valence) ٧٧٤ ٧٨٤ ١٥٣٤
السوس ١٦٣	١٧٢٤ ١٧٥٤
شاط (Jete) ٩٠	بليلى (Velillos) ٧٠٤ ٧١٤ ٧٢٤
شربة ١١٣	١٤٨٤ ٧٤
شرق الأندلس ٦٠٤ ٨٠٤ ١٢٢٤	بياسة (Bacza) ٦٢٤ ٦٣٤ ٩٦٤
شقورة (Segura) ٨٠٤ ٨١٤	تدلى (Dellys) ١٦٨
شليز (Sierra Nevada) ٢٢	تدير ٧٩
شنت أتلج ٧٢	الجليل (نظر) ٢٢٤ ١١٣٤
شنت مرية (Santa Maria) ٨٠	جريشة ٩٦٤ ٩٧٤ ٩٨٤ ١٠٤٤
شنىل (Genil) ٢٠	الجزائر (Alger) ١٦٨
شيلس ٧١٤ ٧٢٤	جزيرة الأندلس ١٠١٤ ١٠٧٤
صالحة (Zafia) ٩١	الجزيرة الخضراء (Algeciras) ١٠٢٤ ١٠٣٤

الصحراء (Sahara) ١٥٨

صخرة حبيب ٩٢

صخرة دوس ٩١

طرابلس ٨٩

طليطلة (Tolède) ٧٣ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٥٦

١٠١ ، ٨٠

المدينة (Maroc) ١١٨ ، ١٨ ، ١٦

١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٣٩ ، ١١٩

النريية ٩٤ ، ١٣٩ ، ١٣٧ ، ١٤٨

غرناطة (Grenade) ٢٤ ، ٢٣ ، ٢٢

٤٧ ، ٤٤ ، ٤٣ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٢٥

٦٣ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩ ، ٥٣ ، ٥٢

٧٥ ، ٧٤ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٧٠ ، ٦٩ ، ٦٥

١٢٠ ، ١١٣ ، ١٠٧ ، ٩٢ ، ٨٦

١٣٧ ، ١٣٤ ، ١٢٩ ، ١٢٣ ، ١٢١

١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٤٩

١٦٨ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٦٢ ، ١٥٦

٢٠٩ ، ٢٠٨ ، ٢٠٦ ، ١٧٠ ، ١٦٩

٢١٤ ، ٢١٣

فحص غرناطة ٢٢ ، ٤٤ ، ٧٠ ، ١٥٢

فنيانة (Fifiana) ٨٩ ، ٨٨ ، ٦٠ ، ٥٩

الفوننت (Alfuenta) ٣٤

قاشرة ٧٦

قاهرة ٩٤

قبريرة ٥٣

قبرة (Cabra) ٦٦ ، ٦٤ ، ٤٤

قرطبة (Cordoue) ٧١ ، ٤٥ ، ٤٣

١٤٧ ، ١٤٦ ، ١٣١ ، ٧٨ ، ٧٧

٢٠٩ ، ١٧٠ ، ١٦٨ ، ١٥٢

قرطمة (Cartama) ٩٤

قرمونة (Carmona) ١٧٠

القصر (حصن) ٩١

قلعة أسطليز (Alcala la Real) ٧٥ ، ٧٠

قلعة حماد ١٦٧ ، ١٦٨

قوجر ٣٢

القيروان ٢٥ ، ٢٤

لرقة (Lorca) ٤٤

لوثة (Loja) ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٤ ، ١٤٤

٢١٣ ، ٢٠٦ ، ١٥١

ليبط (Alodo) ١٠٨ ، ١٠٧ ، ٨١

١٢٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٧ ، ١٢٢

١٧٣ ، ١٦٥ ، ١٤٤ ، ١٣١ ، ١٢٤

مارتش (Martos) ٧٦

مالقة (Malaga) ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧

٩٣ ، ٩٢ ، ٩١ ، ٦٤ ، ٥٨ ، ٥٧

١٠٧ ، ١٠٦ ، ١٠٢ ، ٩٦ ، ٩٥

١٣٨ ، ١١٥ ، ١١٣

المدينة ٢١

مراكش ٢١٠ (واقظ مروكش)

مرسية (Murcie) ٨١ ، ٨٠ ، ٧٩ ، ٧٦

١٤٥ ، ١٤٤ ، ١١٢ ، ١١١ ، ١٠٨

١٤٦

مروكش ١٧١ ، ١٢٥

المرية (Almeria) ٤٤ ، ٣٥ ، ٣٤

٩٠ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٤٥

١٦٧ ، ١٦٥ ، ١٦٤ ، ١٢٣ ، ١١٣

٢٠٦ ، ١٦٨

مرية بلش (Velez Malaga) ٩١

المشيحة ٢٠٩

المطمر ٧٦

مكناسة الزيتون ١٦١ ، ١٦٠ ، ١١٥

١٧١ ، ١٧٠ ، ١٦٣

منت ماس ٩٢

المتورى ٨٩ ، ٨٨

المنكب (Almuficars) ٥٣ ، ٤٤

١٢١ ، ١٢٠ ، ٩٠ ، ٨٧ ، ٨٥

٢١٠ ، ٢٠٧ ، ١٥٩

ميشش (Mijas) ٩٤

٢٢٣

١١٣ ء ٨٧ ء ٨٦ ء ٨٥ ء ٦٤ ء ٥٩

١٢٣ ء ١١٤

ء ١٣١ ء ١٣٠ (Lucena) الیسانة

١٤٨ ء ١٤٥

النیل (Nivar) ٢١١ ء ١٢٩

نیمش ٩٦

الطنء ء ١١٨

ء ٤١ ء ٣٩ ء ٣٨ (Guadix) وادی آش

ء ٥٨ ء ٥٧ ء ٥٦ ء ٥٥ ء ٥٣ ء ٤٤

فهرس الفصول

صفحة

١	مقدمة الناشر
١	الفصل الأول : فظرات عامة للمؤلف
١	١ - القواعد التي يتعين للمؤلف اتباعها
٣	٢ - حقيقة الإسلام والرد على من لا يؤمن به
٦	٣ - قصور القياس دون عون من الوحي
١٠	٤ - ضرورة التعليم والتجربة
١١	٥ - التكوين السياسي للمؤلف
١٣	٦ - صعوبة الإنصاف التاريخي
١٤	٧ - المصادقة وأثرها في التأريخ . مثل المنصور
	الفصل الثاني : الأحداث المهمة لقيام دولة بني زيري وأوليات هذه الدولة . أيام زاوي بن
١٦	زيري وجبوس بن ماكسن
	٨ - الإصلاح العسكري الذي أدخله المنصور . قلوب بني زيري إلى الأندلس وقيام
١٦	دول الطوائف
١٨	٩ - استقرار بني زيري في البيرة بناء على طلب أهلها
٢٠	١٠ - رد الفعل الذي أحدثه في الأندلس قيام دولة بني زيري . اختطاط غرناطة
٢٢	١١ - خروج المرتضى لحرب بني زيري وهزيمته
٢٤	١٢ - رحيل زاوي بن زيري إلى إفريقية وموته هناك مسموماً
٢٥	١٣ - إمارة جبوس بن ماكسن
٢٧	١٤ - المؤامرات التي دبرت لإسناد الإمارة إلى يدير بن حباة . موت جبوس
٣٠	الفصل الثالث : إمارة باديس بن جبوس (١) من أوليتها إلى موت ابن نغالة
٣٠	١٥ - أولية إمارة باديس بن جبوس وتعاظم الوزير اليهودي أبي إبراهيم
٣٢	١٦ - فشل المؤامرة التي دبرها يدير بن حباة ضد باديس
٣٤	١٧ - انتصار باديس على زهير صاحب المرية
٣٦	١٨ - شخصية الأمير بلقين سيف الدولة والد المؤلف
٣٦	١٩ - نشاط يوسف بن نغالة اليهودي ومؤامراته

صفحة

- ٢٠ - موت الأمير بلقين مسموماً ٣٩
- ٢١ - ما بلغ ابن قفرالة من المكان الأرفع ٤٢
- ٢٢ - استيلاء باديس على مالقة ٤٣
- ٢٣ - علاقات باديس ببنى صامح أصحاب المربة ٤٤
- ٢٤ - وصول الناية إلى غرناطة . حظوته ومنافسته لليهودى ٤٦
- ٢٥ - إجلاله الأمير ماكسن بن باديس ٤٨

الفصل الرابع : إمارة باديس بن حبوس . (٢) من موت ابن قفرالة إلى نهايتها ٥٠

- ٢٦ - مؤامرة للوزير اليهودى ابن قفرالة . ثورة صنهاجة عليه وقتله ٥٠
- ٢٧ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع وادى آتش من أيدي ابن صامح ٥٥
- ٢٨ - الحركة الموقفة التى قام بها باديس لانتزاع مالقة من يد ابن عباد ٥٧
- ٢٩ - الكشف عن أمر فتيانة وقتلتها ٥٩
- ٣٠ - استيلاء باديس على مدينة جيان ٦٠
- ٣١ - استيلاء الناية على ياسة ٦٢
- ٣٢ - مؤامرة ضد الناية ويقتله ٦٣
- ٣٣ - استدعاء الأمير باديس ولده ماكسن ورجوعه إلى الحضرة ٦٦

الفصل الخامس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (١) مشاكل

- الأندلس الخارجية وحال الجزيرة عند ابتداء إمارة عبد الله ٦٩
- ٣٤ - رفض مطالب ألفونش السادس واشترائه مع بن عمار ٦٩
- ٣٥ - المهادنة بين عبد الله وابن صامح صاحب المربة ٧١
- ٣٦ - مهاجمة ألفونش السادس على غرناطة واضطرار عبد الله إلى المهادنة معه ٧٢
- ٣٧ - استيلاء ألفونش السادس على طليطلة ٧٦
- ٣٨ - استيلاء ابن هود على دائية . بعض أخبار بنى هود ٧٧
- ٣٩ - ثورة ابن عمار على المعتمد بمرسية إلى أن أعرجه منها ابن رشيق . أعماله بعد ذلك ومهلكه الشننج ٧٩
- ٤٠ - عقد الصلح بين عبد الله وبين المعتمد صاحب أشيلية ٨٢
- ٤١ - المؤلف يتحدث من منهجه في كتابة مذكراته ٨٢

الفصل السادس : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٢) مشاكل

- غرناطة الداخلية إلى قنوم المرابطين ٨٤
- ٤٢ - عزل الوزير سهاجة ، ثم إجلاله واستقلال عبد الله في الأمر ٨٤

صفحة

- ٤٣ - النزاع على الحدود بين مملكة غرناطة ومملكة المرية . تعاقب أحداثه وحله . ٨٨
 ٤٤ - توجيه صكر ضد تميم بن بلقين صاحب مالقة وأخى المؤلف ، ونصره إياه . ٩٠
 ٤٥ - ذكر ثورة كباب بن تميم وثورة بني تاقنوت ونهايتهما . ٩٥

الفصل السابع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٣) قدوم

- المرابطين إلى الأندلس وموقعة الزلاقة ومحاصرة حصن لبيط . ١٠١
 ٤٦ - مقدمات تدخل المرابطين في شؤون الأندلس . ١٠١
 ٤٧ - إرسال سفارات أندلسية إلى مراکش . احتلال المرابطين الجزيرة الخضراء . ١٠٢
 ٤٨ - تجمع جيوش الأندلسيين برسم الجهاد . ١٠٤
 ٤٩ - موقعة الزلاقة وانتصار المسلمين على ألفونش السادس . ١٠٤
 ٥٠ - يوسف بن تاشفين يعقد مجلس رؤساء الأندلس بعد المعركة . بدء الخلاف بين المتحالفين . ١٠٦
 ٥١ - عودة يوسف بن تاشفين إلى الأندلس . حصار حصن لبيط . ١٠٨
 ٥٢ - محاصرة لبيط . تصور فوضى ملوك الطوائف في ذلك الحين . ١٠٩
 ٥٣ - النزاع بين ابن عباد وبين ابن رشيقي . ١١٠
 ٥٤ - رفع الحصار عن لبيط . تفرق المحاصرين وإنشاء الخلاف بينهم . ١١٢

الفصل الثامن : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٤) سياسة

- عبد الله بعد عودته من لبيط . إجراءات دفاعية وسياسية . ١١٤
 ٥٥ - تشاؤم عبد الله بعد رجوعه من حصار لبيط . مسك قرور . ١١٤
 ٥٦ - بعض المؤامرات وتخاذل القليبي . ١١٦
 ٥٧ - سيرة الجند مع الأمير في ذلك الحين . تشييد الحصون . ١١٩
 ٥٨ - معاقلة عبد الله مع البرهانش وكنى ألفونش السادس . ١٢٢
 ٥٩ - التزام عبد الله على أداء الجزية لألفونش السادس وعقد اتفاق جديد معه . ١٢٤
 ٦٠ - تهديد يوسف بن تاشفين إلى عبد الله . عبد الله يبرر مملكته . ١٢٧

الفصل التاسع : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٥) الحوادث

- الآخيرة قبل النزاع ونذر الكارثة . ١٣٠
 ٦١ - ثورة يهود مدينة الرسانة . ١٣٠
 ٦٢ - قضية زناة . ١٣٣
 ٦٣ - انقلاب مؤمل وثورته في لوثة . ١٣٦

صفحة

- ٦٤ - وصف التائر نعمان وسيرته ضد عبد الله ١٣٩
- ٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختي عبد الله ١٣٩
- ٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله ١٤١
- ٦٧ - رجوع الحديث عن زواج الأميرتين أختي المؤلف ١٤٣
- ٦٨ - تدخل الأمير عبد الله في مسألة مرسية وغضب المعتمد ١٤٤
- ٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسبته من قبل عبد الله وإيقاع الخوف في نفسه بعد رجوعها ١٤٥

الفصل العاشر : إمارة عبد الله بن بلقين بن باديس مؤلف هذا الكتاب : (٦) استلامه

- السلطان المرابطي . محبته . إخراجهم من الأندلس ونفيه ١٤٧
- ٧٠ - عبور يوسف بن تاشفين إلى الأندلس وبدء مقاتلته لإياه ١٤٧
- ٧١ - وصول الجيش المرابطي قبالة غرناطة ١٤٩
- ٧٢ - الحالة داخل حضرة غرناطة ١٥٠
- ٧٣ - لا يجد عبد الله مخرجاً إلا بالتسليم ١٥١
- ٧٤ - تسليم الأمير عبد الله ونهب أمواله ١٥٤
- ٧٥ - نفي الأمير عبد الله إلى المغرب الأقصى ١٦٠
- ٧٦ - عزل الأمير تميم صاحب مالقة وأخى عبد الله . نفيه ١٦٢

الفصل الحادي عشر : عزل بقية ملوك الطوائف ومصيرهم بعد ذلك

- ٧٧ - موقف ملوك الطوائف أثناء الحملة على غرناطة ١٦٤
- ٧٨ - حركات المرابطين على المرية ١٦٧
- ٧٩ - توتر العلاقات بين الأمير المرابطي والمعتمد ١٦٨
- ٨٠ - الاستيلاء على قرطبة وإشيلية ونفي ابن عباد ١٦٩
- ٨١ - قفول يوسف بن تاشفين إلى مراكنس ١٧١
- ٨٢ - عزل المتوكل بن الأفطس صاحب بطليموس وبهلكه ١٧٢
- ٨٣ - نشاط المرابطين ضد النصارى . استيلاء « السيد » لذريق على بلنسية ١٧٥
- ٨٤ - تأملات في قلب الأقدار ١٧٦

الفصل الثاني عشر : تأملات أخيرة بعد النفي

- ٨٥ - المؤلف والشعر ١٧٨
- ٨٦ - استطراد المؤلف إلى الكلام عن طالعه ومصيره ١٧٩
- ٨٧ - آراء المؤلف في التنجيم ١٨١

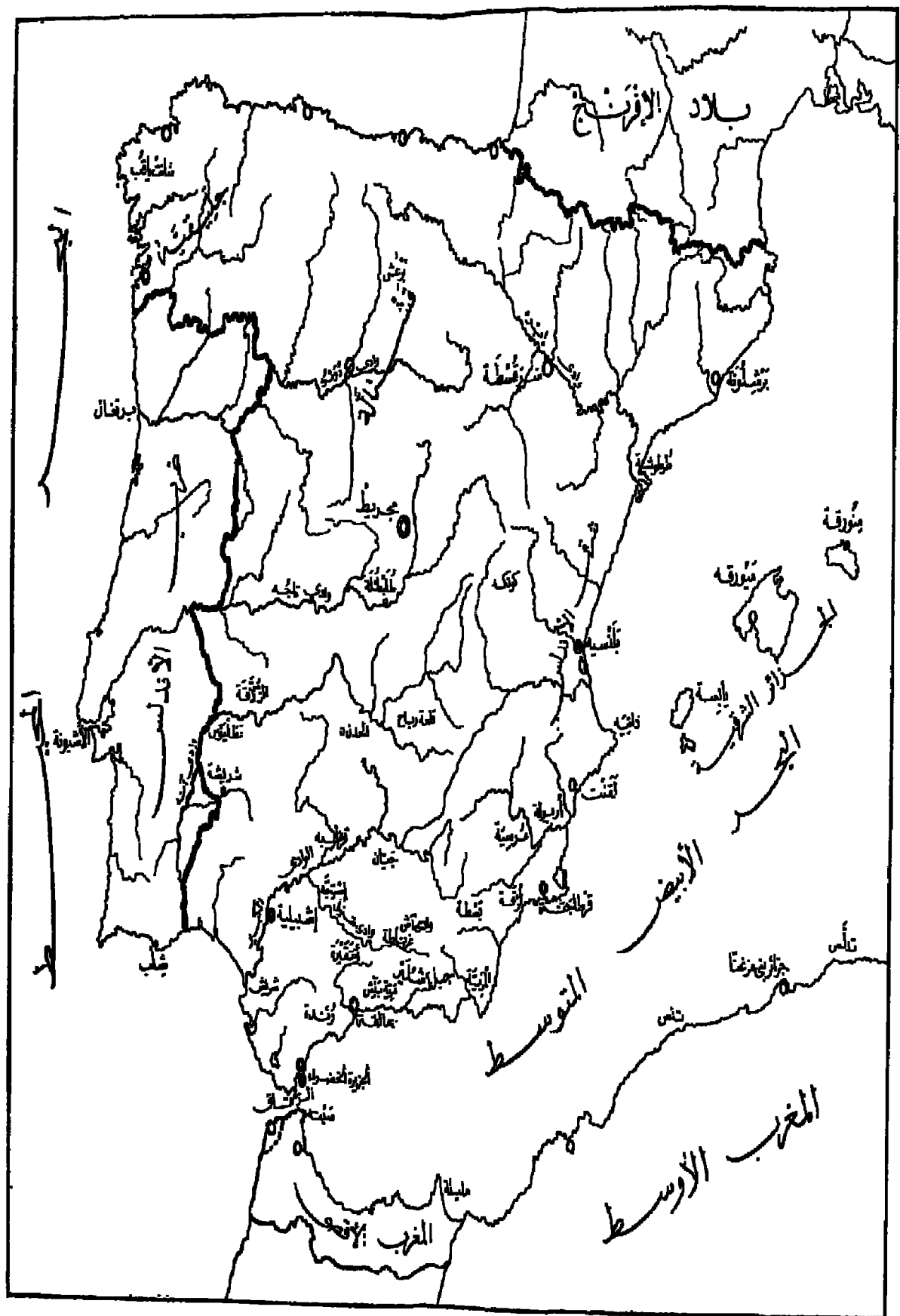
صفحة	
١٨٢	٨٨ - آراء طيبة في الأغذية والنبيد
١٨٨	٨٩ - رجع الكلام عن التنجيم
١٩١	٩٠ - مسائل فلكية
١٩٢	٩١ - تحديد العلوم الطبيعية والطلب
١٩٣	٩٢ - نقض قول من ينكر أن الجن تتكلم
١٩٤	٩٣ - حديث عن المسرة وعن هموم الهوى والشباب
	٩٤ - تأملات نظرية وأمثلة يضربها المؤلف من قصة حياته عن الطموح وزوال خيرات الدنيا
١٩٥	٩٥ - يتحدث المؤلف عن أولاده
١٩٨	٩٦ - توجه المؤلف الحديث إلى قرائه راضين عنه أو ساخطين عليه
٢٠٠	٩٧ - يلغ المؤلف عن نفسه ما عسى أن يؤخذ عليه من أخطاء حياته الخاصة

الملحق الأول : منتخبات من « كتاب البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي عن دولة الأمير
عبد الله ٢٠٥

الملحق الثاني : منتخبات من « كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة » لسان الدين ابن
الخطيب :

٢٠٨	(١) ترجمة عبد الله بن بلقين
٢١١	(٢) ترجمة مقاتل بن عطية
٢١٢	(٣) ترجمة مؤمل

فهارس الكتاب ٢١٥



خريطة جزيرة الأندلس في عهد ملوك الغرناطة

ذخائر العرب

١٨

مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري بغرناطة

٤٦٩ هـ - ٤٨٣ هـ

المسماة بكتاب التبيان

نشر وتحقيق

إ. ليفي بروفنسنا

تقديم

الدكتور سليمان العطار

ضبطه ووضع فهارسه

الدكتور محمد زينهم محمد عزب



دار المعارف

مذكرات الأمير عبد الله

آخر ملوك بني زيري بقرطبة

(٤٦٩ - ٤٨٣)

المسمّاه بكتاب "التبيان"

نشر وتحقيق
من النسخة الوحيدة المحفوظة
بجامع القرويين بفاس

إ. ليثي بروثنسكال

أستاذ الحضارة العربية بالسربون
ومدير معهد الدراسات العربية والإسلامية بجامعة باريس
والأستاذ الزائر بالجامعات المصرية

دار المعارف بمصر

مقدمة

إنَّ المصنَّف الذى سيوجه الجزء الأكبر من نصّه هنا — وهو كلُّ ما عُثر عليه لحدِّ الآن — سبق أن عُرف لدى كلِّ من درس تاريخ الأندلس بعض الشيء ، وعلى الأخصَّ العهد المسمّى بعهد ملوك الطوائف من هذا التاريخ ، والموافق إجمالاً للقرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . ولقد نشرتُ منه ، فى فترتين ، أولاً ثلاث قطع ، ومن ثمَّ قطعتين واسعة كلِّهما اكتُشف شيءٌ منها ، وذلك فى مجلّة « الأندلس » الصادرة فى مدريد فى عام ١٩٣٥ — ٣٩ وفى عام ١٩٤١ . وستظهر ترجمةٌ باللغة الإسبانية ، بعد فترة وجيزة ، بتوقيعى وتوقيع زميلى وصديقى الأستاذ إ . غرسية غومس ، للمجموع الذى أُلّف بين أجزائه اليوم ، ما عدا الصفحة الأولى وفراغاً طويلاً يؤسف له فى وسط الكتاب . وستصحب هذه الترجمة بمقدِّمة مفصّلة وبمجموعة من الملاحظات التاريخية والجغرافية أُحيلُ إليها منذ الآن القارئ الذى يرغب أن يطلّع بتفصيل على المؤلَّف الذى أنشره اليوم وعلى قيمته الأدبية والتاريخية .

سأقتصر هنا إذاً على بعض الإشارات الأساسيّة . فليس من المألوف أن نجد فى تاريخ العالم العربى ملوكاً أو شخصيّات رفيعة اعتنوا بتسطير حياتهم ، فكتبوا مذكراتهم لفائدة معاصريهم أو الأجيال القادمة . إنَّ هذه الملاحظة لتصدق على الغرب الإسلامى أكثر منها على الشرق ؛ فإذا

وُجد في الغرب الإسلامي بعض من يترجم لنفسه من الشخصيات الهامة كمثل ابن خلدون وابن الخطيب في القرن الثامن (الرابع عشر الميلادي) ، فلا يعرف من هذا الصنف التاريخي إلا مصنف واحد يذكر ، وهو كتاب التبيذق صاحب المهدي ابن تومرت مؤسس الموحّدية ، وقد وقّعت منذ أكثر من ربع قرن على مخطوط له بمكتبة الأسكوريال في إسبانيا ظل مجهولاً إلى ذلك الحين . وإنّه لتوفيق آخر ليس أقلّ سعادة من الأول ، أن أحصل ، بعد سنين طويلة ، وجزءاً بعد جزء ، على مصنف لترجمة شخصية لا يقلّ أهميّة عن الأول ، وهو مصنف الأمير عبد الله ، الذي كانت كراريسه مبعثرة بين مجموعة كثيفة من المخطوطات المهمة منذ ستة قرون على الأقلّ في جناح تابع لمسجد القرويين بفاس .

وقد كنّا نعرف ، بفضل إشارة واردة في كتاب « الحلال الموشية » المجهول المؤلف ، أنّ الأمير عبد الله كان قد دوّن تأريخاً عن الدولة التي أسّسها أسرته في إسبانيا والتي كان هو آخر ممثليها . وعندما أصدرت في ١٩٣٤ أوّل طبعة للقسم المتعلق بالأندلس من كتاب « أعمال الأعلام » لابن الخطيب ، جلبت انتباهي الفقرة الآتية (ص ٢٩٩) : « وقّعت على ديوان بخطّ عبد الله بن بلقين ألّفه بعد خلمه بمدينة آغمات وقرّر فيه أحواله والحادثة عليه بما يستظرف من مثله ، أتحنّى به خطيب المسجد بآغمات رحمه الله . » وبفضل إشارة أخرى وردت في نفس الكتاب ، نعرف أنّ ابن الخطيب قد زار آغمات وزار بها قبر المعتمد بن عباد في سنة ٧٩١ (١٣٩٠) ؛ فيمكننا أن نتساءل بأن المخطوط الذي استعملناه ، إذا لم يكن هو نفس هذه النسخة ، فهو على الأقلّ نسخة ثانية كتبت

عن الأصل وقُبلت معه ، كما تثبت ذلك الإشارة المترددة : « صح » ،
أصل » .

وأخيراً ، اكتشفت لي صدقة من صدف المطالعة العنوان التام
لمذكّرات عبد الله : ففي قهرة من كتاب « الرقبة العليا » (ص ٩٧) ،
وهو مصنف في مراتب القضاء بالأندلس لمؤلفه المشهور ابن الحسن النباهي
(وقد نشرته في القاهرة سنة ١٩٤٨) ، يتبيّن أنّ كتاب عبد الله
كان موسوماً بـ « التّبيان عن الحادثة الكائنة بدولة بني زيري
في غرناطة » .

إنّ هذا العنوان يعلن أحسن إعلان عما يُقصد منه : فالملوّف الذي
عُزل ونُفي قصد إلى سرد تأريخ دولته وظروف عزله .

* * *

من كان الأمير عبد الله هذا ، وأيّة قيمة يجب إعطاؤها إلى كتابه ؟
فلأكتفِ هنا بتلخيص ما نشرته عنه أخيراً في الطبعة الجديدة لدائرة
المعارف الإسلامية (الطبعة الفرنسية ، ج ١ ، ص ٤٥) :

كان عبد الله بن مُبلّق بن باديس بن حبّوس بن زيري الملك
الثالث والأخير لملكة غرناطة التي أسسها فرعٌ منحدرٌ من عائلة بني
زيري البربرية الصّنهاجية ، وذلك بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة .
وُلِدَ في سنة ٤٤٧ (١٠٥٦) ؛ وعيّن عند وفاة أبيه مُبلّق سيف الدولة
في عام ٤٥٦ (١٠٦٤) كوليّ عهد لجدّه الأمير باديس بن حبّوس ؛
ثمّ اعتلى بعده عرش غرناطة في سنة ٤٦٩ (١٠٧٧) ، بينما أصبح أخوه

تميم المُعِزَّ أميرًا مستقلًّا في مالقة . ولم تكن دولة الأمير عبد الله إِلَّا سلسلة طويلة من الاضطرابات في داخل مملكته ، والمشادات المسلَّحة مع جيرانه من الأمراء المسلمين ، والمواطنات مع ملك قشتالة ألفونس السادس . وسام عبد الله في وقعة الزَّلَاقَة ومحاصرة حصن لُيِّط عند تدخُّل المرابطين في إسبانيا . لكن اتِّفَاقاته مع الملك النصراني أدَّت به إلى ضياع عرشه ؛ فقد جاء الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين لمحاصرته في غرناطة عام ٤٨٣ (١٠٩٠) ؛ فاضطرَّ إلى أن يسلم نفسه إليه ؛ فعزل عن ملكه وأُرسل إلى المنفى بمدينة آغمات ، في جنوب المغرب الأقصى ، حيث انتهت حياته .

أما كتابة عبد الله لمذكراته ، فقد كانت أثناء إقامته الإيجارية في آغمات . وإنَّ هذه الترجمة الشخصيّة تكوِّن أعظم مجموعة وثائق نملكها عن تأريخ ملوك الطوائف وأقلها تحويراً ، كما نستطيع أن ندرك ذلك بسهولة . وعلى الرغم من الاستطرادات الطويلة التي يحاول فيها المؤلِّف أن يبرِّر موقفه السياسيَّ أمام الأخطار التي كانت تهدِّم مملكته ، فإنَّ كتاب « التبيان » يقدِّم لنا سرِّدًا مفصَّلًا جدًّا لجميع الجوادث التي أدَّت إلى استيلاء ألفونس السادس على مدينة طَلَيْطَلَة عام ٤٧٨ (١٠٨٥) وإلى تدخُّل المرابطين في شبه جزيرة إيبيريا في السنة التالية .

كما أنَّ مذكرات عبد الله هي وثيقة سيكولوجيّة من الطراز الأول ، يساعد بصورة أفضل من كُتُب التأريخ التي أَلَّفت من بعد ، على الحكم على حالة الانحلال الاجتماعيِّ والسياسيِّ في الأندلس قبل معركة الزَّلَاقَة وبعدها ، وعلى التقدُّم الذي حقَّقه في هذا الوقت أنصار استرجاع

إسبانيا المسلمة إلى النصرانية . ومن جهة أخرى ، إنَّ قصَّ الحوادث السابقة على حكم الأمير عبد الله نفسه هو أيضاً أمرٌ جديدٌ وهامٌ جداً . ويجب إذاً أن نعتبر مذكَّرات ملك غرناطة كدليل مرشد لتأريخ الطوائف الغامض ، وذلك ابتداءً من العصر الذي تنتهى فيه مؤلَّفات ابن حَيَّان . وإنَّ هذه الفترة التي سأصِفُها بحول الله في الجزء الرابع من كتابي « تأريخ إسبانيا الإسلامية » ستوضَّح بصورة أوسع وتحت ضوء جديد بفضل هذا الحصول السعيد على وثيقة غنيَّة لا يرتاب فيها .

* * *

إنَّ مخطوط مذكَّرات عبد الله يحتوي في مجموعه على ٨٠ ورقة من القُرطاس السحيك ومن القطع الكبير (٢٣ × ٣١ سنتمتر) . وهو مسجَّل في مكتبة جامع القرويين بفاس تحت رقم ١٨٨٦ . خطُّه من الخطِّ البسيط الأندلسي . والنسخة على العموم في حالة جيِّدة عدا ورقتين ممزقتين جداً . وقد أرفقنا مع النصِّ ملحقين يحتويان على فقرات غير منشورة من كتاب « البيان المغرب » لابن عِذارى المراكشي ، ومن كتاب « الإحاطة في تأريخ غرناطة » لابن الخطيب ، يتعلَّق هذا الذيل بالأمير عبد الله نفسه وبشخصيتين هامَّتين في دولته . وسيجد القارئ خريطة تساعد على الوقوف على أهمِّ المناطق الجنوبية في إسبانيا مما جرى ذكرها في النصِّ .

أودُّ في الختام أن أثبِّه قرَّائي الذين سيستغربون لبعض التعابير أو لبعض الصياغات في تأليف الأمير عبد الله إلى أن لفته ، مع أنها صحيحة ، قد تأثَّرت إلى حدٍّ ما باللغة العاميَّة الأندلسيَّة ، وأتَّه يلزم الرجوع بصورة

خاصّة إلى « ملحق القواميس العربيّة » لغزى لفهم بعض الألفاظ التي تبدو خاطئة .

وليس من الضروري أن أنبّه القراء من جهة أخرى إلى أن العناوين التي أضيفت داخل النصّ للتفريق بين محتويات الفصول لم تكن مرّ في النصّ الأصلي .

ا . ل . ب

باريس ٢٦ يونيو ١٩٥٥

en préparation, sera en grande partie éclairée sous un nouveau jour grâce à cet appoint d'une documentation fort riche et non suspecte.

* * *

Le manuscrit des "Mémoires" de 'Abd Allâh contient au total 80 feuilles d'épais papier de grand format [23 x 31 centimètres], inventoriées à la bibliothèque d'al-Qarawiyyîn à Fès sous le No. 1886. L'écriture est du genre *mabsûṭ* andalou; la copie est en général en bon état de conservation; seuls deux feuillets sont fort mutilés. Nous avons adjoint au texte deux appendices comportant des passages inédits du *Kitâb al-Bayân al-mughrib* d'Ibn 'Idhârî et de l'*Iḥâṭa* de Ibn al-Khaṭṭîb sur 'Abd Allah et deux personnages importants de son règne. Enfin une carte permettra au lecteur de retrouver les plus importantes localités du Sud de l'Espagne qui sont citées dans le texte.

Je voudrais, pour terminer, signaler à ceux de mes lecteurs qui s'étonneront de certaines acceptions ou de certaines tournures des "Mémoires" que la langue de 'Abd Allâh, bien qu'en général correcte, a subi dans une certaine mesure l'influence de l'arabe vulgaire hispanique et qu'il faut pour comprendre certains mots qui peuvent paraître erronés, faire appel principalement au *Supplément aux Dictionnaires arabes* de Dozy.

Je n'ai pas besoin de signaler d'autre part au lecteur que les titres qui ont été introduits pour séparer les diverses sections des "Mémoires" et en annoncer le contenu n'existent pas dans le texte original.

Paris, 26 juin 1955

R. L.-P.

sinhâjienne des Banû Zîrî. Né en 447 [1056], il fut désigné à la mort de son père Buluggîn Sayf al-dawla, en 456 [1064] comme l'héritier présomptif de son grand père Bâdis ibn Ḥabûs, et il lui succéda sur le trône de Grenade en 469 [1077], tandis que son frère Tamîm al-Mu'izz devenait prince indépendant de Malaga. Son règne ne fut qu'une longue suite de troubles à l'intérieur de son royaume, de conflits armés avec ses voisins musulmans et de compromissions avec le roi de Castille Alphonse VI. Au moment de l'intervention des Almoravides en Espagne, il participa aux campagnes d'al-Zallâqa et d'Aledo. Mais ses tractations avec le roi chrétien finirent par lui coûter son trône. En 483 [1090], Yûsuf ibn Tâshufîn vint le bloquer dans Grenade et il dut se rendre à sa merci. Il fut déchu de son trône et envoyé en exil dans le Sud du Maroc, à Aghmât, où il finit ses jours.

Ce fut au cours de son séjour forcé à Aghmât que 'Abd Allâh composa ses "Mémoires". Cette autobiographie — on pourra s'en rendre facilement compte — constitue la somme documentaire la plus considérable et la moins déformée que l'on possède sur l'histoire des *mulûk al-ṭawâ'if*. Malgré de longues digressions dans lesquelles l'auteur tente de justifier sa position politique devant les périls qui menaçaient son royaume, le *Kitâb al-Tibyân* fournit une chronique extrêmement détaillée de tous les événements qui aboutirent en 478 [1085] à la prise de Tolède par Alphonse VI, et, l'année suivante, à l'intervention des Almoravides dans la Péninsule ibérique.

C'est en même temps un document psychologique de premier ordre, qui permet, beaucoup mieux que les chroniques postérieures, de juger de l'état de décomposition sociale et politique de l'Espagne musulmane avant et après la bataille d'al-Zallâqa et des progrès accomplis à cette époque par les champions de la Reconquête chrétienne. Le récit des événements antérieurs au propre règne de l'émir 'Abd Allâh est également fort nouveau et fort important. Les "Mémoires" du prince de Grenade doivent être considérées, à partir de l'époque où prend fin la chronique d'Ibn Ḥayyân, comme un fil conducteur à travers l'histoire confuse des *ṭawâ'if*. Cette période, qui sera décrite au quatrième tome de mon *Histoire de l'Espagne musulmane*, actuellement

cahiers manuscrits jetés au rebut dans une dépendance de la mosquée d'al-Qarawiyîn à Fès depuis au moins six siècles.

On savait, grâce à une indication fournie par la chronique anonyme intitulée *al-Hulal al-manushîya*, que l'émir 'Abd Allâh avait composé un livre sur la dynastie fondée en Espagne par sa famille et dont il fut le dernier représentant. Quand, en 1934, je donnai une première édition de la partie relative à al-Andalus du *Kitâb A'mâl al-a'lâm* d'Ibn al-Khaṭīb, le passage suivant [p. 269] retint mon attention. "J'ai vu un *diwân*, écrit de sa propre main, que 'Abd Allâh ibn Buluggîn composa, après sa déposition, dans la ville d'Aghmât; il y relate son histoire et les événements qui concoururent à sa chute, et cette œuvre est fort curieuse. Le prédicateur de la mosquée d'Aghmât me fit cadeau de ce document". Nous savons, grâce à une précision fournie par le même ouvrage, qu'Ibn al-Khaṭīb visita Aghmât et le tombeau d'al-Mu'tamid Ibn 'Abbâd en 781 [1360]. Et l'on peut se demander si le manuscrit que nous avons utilisé n'est pas, sinon cette copie elle-même, du moins une seconde copie faite sur l'original et confrontée avec lui, comme le prouve la mention fréquente: *ṣahha; aṣl^m*.

Enfin, un autre hasard de lecture devait me révéler le titre exact des "Mémoires" de 'Abd Allâh: en effet, d'un passage du *Kitâb al-Marqaba al-'ulyâ*, [p. 97], ouvrage sur la judicature andalouse que j'ai publié au Caire en 1948 et dont l'auteur fut le célèbre Ibn al-Ḥasan al-Nubâḥî, il ressort que le livre s'intitulait *al-Tibyân 'an al-ḥāditha al-kā'ina bi-dawlat Banî Zîrî fi Gharnāṭa*.

Ce titre dit bien ce qu'il veut dire: l'auteur, détrôné et exilé, s'est proposé de relater l'histoire de son règne et les circonstances de sa chute.

Qui était cet émir 'Abd Allâh et quelle valeur faut-il attribuer à son livre ? Qu'il me suffise de résumer ici ce que j'en ai écrit récemment dans la nouvelle édition de *l'Encyclopédie de l'Islam* [p. 45].

'Abd Allâh ibn Buluggîn ibn Bâdis ibn Ḥabûs ibn Zîrî fut le troisième et dernier souverain du royaume de Grenade fondé après la chute du califat de Cordoue par une branche collatérale de la famille berbère

AVANT - PROPOS

L'ouvrage dont on va trouver ici la plus grande partie du texte — tout ce qui en a été jusqu'ici retrouvé — est déjà connu de tous ceux qui ont étudié quelque peu l'histoire de l'Espagne musulmane et plus spécialement la période de cette histoire dite des *mulūk al-tawā'if*, correspondant en gros au Ve siècle de l'hégire [XIe siècle de J.-C.]. En effet, au fur et à mesure de leur découverte et à deux reprises, j'en ai publié d'abord trois puis deux fragments étendus dans la revue "al-Andalus" de Madrid, en 1935-36 et en 1941. De l'ensemble aujourd'hui reconstitué, à part la première page et une longue et regrettable lacune centrale, une traduction en espagnol paraîtra à bref délai sous la signature de mon collègue et ami le Prof. E. García Gómez et la mienne. Cette traduction sera accompagnée d'une introduction détaillée et d'un appareil de notes historiques et géographiques auxquelles je renvoie d'ores et déjà le lecteur désireux d'être renseigné en détail sur l'ouvrage que je publie aujourd'hui et sur sa valeur documentaire et littéraire.

Je me bornerai donc ici à quelques indications essentielles. Il n'est pas fréquent de rencontrer, dans l'histoire du monde arabe, des souverains ou des personnages haut placés qui aient pris soin de retracer leur carrière en rédigeant leurs "Mémoires" à l'intention de leurs contemporains ou des générations futures. Cette constatation est encore plus vraie pour l'Occident de l'Islam que pour l'Orient; si on y trouve quelques autobiographies de personnages importants, tels qu'Ibn Khaldûn et Ibn al-Khaṭīb au VIIIe siècle [XIVe siècle J.-C.], on ne connaît, dans ce genre historique, qu'une œuvre à citer: celle d'al-Baydhaq, le compagnon du Mahdî Ibn Tûmart, le fondateur de l'almoḥadisme, dont j'eus la chance, il y a plus de vingt-cinq ans, de retrouver en Espagne, à l'Escorial, un manuscrit jusque-là demeuré ignoré. C'est une autre chance, non moins heureuse, qui m'a valu de mettre la main, à plusieurs années d'intervalle et morceau par morceau, sur un ouvrage autobiographique non moins précieux: celui de l'émir 'Abd Allāh, dont les feuillets s'entassaient pêle-mêle dans un fouillis de

LES « MÉMOIRES » DE ʿABD ALLAH

DERNIER ROI ZIRIDE DE GRENADE

[Ve-XIe siècle]

TEXTE ARABE

publié d'après l'unicum de Fès

par

E. LEVI - PROVENÇAL

Professeur à la Sorbonne,

Directeur de l'Institut d'Études Islamiques

de l'Université de Paris

LE CAIRE

ÉDITIONS AL-MAAREF

1955